لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة كتب فى تاريخ العصور الوسطى
تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة — ١



الإمبراطورية البيزنطية

تأليف

نورمان بينز

مع فصلين فى تاريخ الدولة البيزنطية لشارل ديل
وفصل عن علاقة الإسلام ببيزنطة لفازلييف
وثبت بأسماء الأباطرة الرومان الشرقيين لستيفن رونسيان

تعريب

دكتور
حسين مؤنس
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

محمود يوسف زايد
المدرس بالمدارس الثانوية بفلسطين

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٠

اهداءات ٢٠٠٢
أ.د/ محمد طه الحاجرى
الاسكندرية



جستنيان
رسم بالفسيفساء فى كنيسة القديس أبوليناريوس فى راڤنا

الامبراطورية البيزنطية

تاريخها وحضارتها وعلاقتها بالاسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب ترجمة للمجلد رقم ١١٨ من مجموعة

The Home University Library of Modern Knowledge.

وهو :

NORMAN H. BAYNES, *The Byzantine Empire.*
(London 1946)

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سلسلة كتب فى تاريخ العصور الوسطى
تحت إشراف الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة — ١



تأليف

نورمان بينز

مع فصلين فى تاريخ الدولة البيزنطية لشارل ديل
وفصل عن علاقة الإسلام ببيزنطة لفازلييف
وثبت بأسماء الأباطرة الرومان الشرقيين لستيفن رونسمان

تعريب

دكتور
حسين مؤنس
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

محمود يوسف زايد
المدرس بالمدارس الثانوية بفلسطين

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٩٥٠

الطبعة الأولى

القاهرة ، يناير ١٩٥٠

تقـــديم

بقلم الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة

أستاذ تاريخ العصور الوسطى بجامعة فؤاد الأول — القاهرة

التاريخ البـيزنطى مرآة الحياة المتحضّرة بشرق أوربا فى العصور الوسطى ، ومن تلك المرآة انعكست على الأقاليم القريبة والبعيدة من الدولة البيزنطية أشـعة حضارية متفاوتة القوة والقدرة على البقاء . ومن هذه الأقاليم آسيا الصغرى وشمال العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا ، وهى الأقاليم التى ظلّت بيزنطية لعـدة قرون ، ثم امتدّت إليها موجة الفتوح الإسلامية فى القرن السابع الميلادى . فصارت جزءا من العـالم الإسلامى حتى العصر الحاضر .

وتأثّرت هذه الأقاليم بالمسلمين ، كما أثّرت هى كذلك بثقافتها البيزنطية فى العالم الإسلامى ، ومن هنا تتضح أهمية التاريخ البيزنطى فى تاريخ الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، يوم كان المسلمون يحكمون إمبراطورية واسعة ، وتلك أهمية يروى

بعض غُلّتها هـذا الـكتاب الذى يودّ العاملون على التاريخ الإســلامى عامة — والتاريخ المصرى خاصة — أن يَرَوا عدداً من أمثاله لا ترجمة فحسب ، بل تأليفاً علميا كذلك .

وللتاريخ البيزنطى وتأثيره العميق فى التاريخ الإســلامى عودة أخرى ، حين حلّ العثمانيون محلّ البيزنطيين فى إمبراطوريتهم وعاصمتهم ، إذ تمثّلت الدولة العثمانية ما شاءت أن تهضم من الثقافة البيزنطية وأساليب الحـكم والإدارة ، كما فعل المسلمون السابقون ، وأضفت على ولاياتها الشرقية مما أفادت من نماذج الحضارتين العثمانية والبيزنطية .

ومع هــذا جرى المتقدّمون السالفون على اعتبار التـاريخ الإسلامى كله وحدة مقفلة ، مصدرها بيئة صحراوية ، ولم يدركوا ما للبلاد المختلفة التى فتحها المسلمون شرقا وغربا وشمالا وجنوبا من أهميات تاريخيـة ضخمة ، فقنعوا — وقنع قراء التاريخ الإسلامى معهم — بتسمية الدولة البيزنطية " الروم " ، وتلك تسمية شوهاء عرجاء ، تعتمد على ما قبل الدولة البيزنطية فحسب من أصول بادت أو تـكاد ، لا على الدولة البيزنطيـة بعينها وحضارتها الرومانية الهلنستية . ثم لم تقف هذه القناعة الساذجة الخاطئة عند التسمية ، بل تعدّتها إلى الاجتزاء من أخبار أولئك

"الروم" بأسماء المدن التى استولى عليها منهم المسلمون ، أو استعادوها هم من المسلمين ، دون الإشارة إلى عوامل التجاوب التاريخى الذى أنتج ذلك التبادل المتصل .

والكتاب الذى بين أيدينا يصف الدولة البيزنطية وأحوالها من زوايا ذات شأن أساسى فى بناء التاريخ الإسلامى نفسه ، ويعين الباحث فى تعليل مراحل المدّ والجزر فى تاريخ الدولة الإسلامية على فهم كثير من هاتين الظاهرتين . والكتاب هو الأول فى موضوعه فى المكتبة العربية الحديثة ، كما أنه الأول فى سلسلة من الكتب والبحوث الخاصة بالعصور الوسطى فى الشرق والغرب . ويرجو كاتب هذه السطور التقديمية أن يعمل العاملون على الإضافة إلى هذه السلسلة فى صمت نشيط مسموع ، وأن يجعلوا رائدهم توضيح ما غلب عليه الغموض — أو الجهل — فى صفحات التاريخ الإسلامى الذى هو جزء من التاريخ الإنسانى العام ، وليس التاريخ الإنسانى العام جزءًا منه ، على قول المناطقة .

ويمتاز هذا الكتاب الطيب بجهود المترجمين فى النقل إلى العربية فى أسلوب سليم ، مع الحرص على تزويد المتن بالحواشى التى تطلّبها إيجاز المؤلف فى الأصل الإنجليزى بعض الأحيان ، وهذا وذاك فضلا عن فصولٍ نقلها المترجمان من مراجع ذات قدر

معلوم ، للبرهان على مدى تأثير البيزنطيين وحكومتهم و إدارتهم وثقافتهم فى التاريخ الإسلامى . و إذا كنت لا أريد أن أتعرض لمحتويات الكتاب فى شىء من التفصيل أو النقد ، فذلك لأن الكتاب الطيب سوف ينضح بما فيه للقارئ المستنير ، و إنى أرجو للذين ينقلون أمثاله أو أشباهه إلى العربية التوفيق كله ، فيما هم بصدده من خدمات خالصة لوجه المعرفة والتاريخ ، كما أرجو أن يحتل هذا الكتاب ما يليق به من مكانة فى المكتبة العربية .

مصر الجديدة { ٢١ يناير سنة ١٩٥٠ م
٣ ربيع الثانى ١٣٦٩ هـ } محمد مصطفى زيادة

مقدمة

إن امبراطورية تحتمل آلام النزع طيلة ألف سنة لا بد وأن يكون فى كيانها من القدرة ما يمكنها من تعويض ما يضيع من قواها بصورة مستمرة . وقد كان المؤرخون يحاولون — إلى حين قريب نسبيا — أن يحملونا على الاعتقاد بأن الدولة البيزنطية كانت فى سكرات الموت أبداً بالرغم مما كانت تبديه على مرّ القرون من صور المقاومة الموفقة لكل هجوم تستهدف له . ولم يُصَدّق الناس ذلك التناقض الجسيم إلا لكثرة ترديده ، ولكنه لم يقو على الصمود فى ضوء البحث الحديث . وكتابنا هذا إن هو إلا محاولة لتصوير بعض مظاهر الحضارة الرومانية الشرقية فى إيجاز ، وتذكيرِ الناس بأسماء بعض رجالها الذائعى الصيت الذين مجّدهم أهل زمانهم وكانوا فخر عصورهم .

بيد أنه لا بد لنا ، قبل كل شىء ، من الإجابة على سؤال واحد وهو : ما هى الفترة التى نستطيع ابتداء منها أن نتبين وجود امبراطورية بيزنطية أو رومانية شرقية واضحة ؟ ذلك أنه حتى فى ذلك الحين الذى قام فيه حاكم للشرق فى القسطنطينية وآخر للغرب فى ميلان أو رافنا ، لم يكن هذا الوضع لينتقص من الوحدة المثالية

للإمبراطورية الرومانية ، إذ أن هذا الانقسام كان كما وصفه كاتب من كتّاب القرن الرابع مجرد «شبه انقسام» ، وكان الغرض من ورائه تيسير الإدارة . فقد كان كل من الحاكمين يعترف بنفس القوانين ومبادئ الحكومة والتقاليد الرومانية . وحينما انتهى عهد رومولوس أوغسطس ، آخر أباطرة الغرب سنة ٤٧٦ م ظلت نظرية الدولة الواحدة قائمة دون تغيير ؛ إذ أن « شبه الانقسام » هذا انتهى ، وعادت الوحدة القديمة إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق الحاكم الغربى من تلقاء نفسها إلى صاحب العرش فى القسطنطينية ، وجُمع السلطان كله مرة أخرى فى يد واحدة . ويمكننا حتى فى عهد جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) أن نقول إن الظاهرة الوحيدة التى كانت تضفى على حكمه طابعَ الوحدة هى طموحه لاستعادة الأراضى الضائعة ، وتثبيت السيادة الإمبراطورية التى كانت لمن سبقوه ، حلا من الأعصر — أى أنه كان باختصار آخرَ الأباطرة الرومان ، ولم يصبح بعدُ بيزنطيا .

وقد يذهب آخرون إلى أن الدولة البيزنطية إنما بدأت يوم عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م ؛ إذ أنه فى ذلك اليوم فاجأ البابا شرلمانَ وتوّجه فى روما امبراطوراً على الغرب . فمن ذلك الحين قامت ، فى واقع الأمر ، امبراطوريتان وهما : الإمبراطورية الرومانية

المقدســة فى الغرب ، والإمبراطورية البيزنطية فى الشرق . وقد تبدو هذه النظرية مقبولة فى نظر مؤرخ النظريات السياسية ، ولـكنها أقل نفعاً لمن يدرس تاريخ روما الشرقيــة . فإذا أراد هذا الأخير أن يُعيّن الفترة التى يبدأ فيها التـاريخ الذى يدرسه فلا بد له من أن يختـار السنين الأولى من القرن السابع ، التى كانت بلاد شرقى البحر الأبيض المتوسط فيها قد اكتسبت تلك الميزات التى ظلت بعد ذلك تعيّن للساسة البيزنطيين حــدود سياساتهم دائما .

ومن الثابت أن سياسة جستنيان الإمبراطورية لم تكن إلا وَهْماً عسير التحقيق باهظ التكاليف . ثم إن محمداً [صلى الله عليه وسلم] جمع القبائل العربية على دين واحد ، وكانت النتيجة أن تدفّق أبناء الصحراء على فلسطين وسوريا بحماسة أعنف من أن تقاوم ، ولم يوقف اندفاعهم إلا الجبال التى تحمى آسيا الصغرى . ولم تلبث إفريقية أن سقطت فى أيديهم . وتدفّق الصقالبة عبر الدانوب . ثم إن حركة تبلور القوميات كانت قد بدأت إذ ذاك فى الولايات الرومانية ، ونشأت عن ذلك دول البلقان الحـالية . وهكذا نرى أن النصف الأول من القرن السابع هو الفترة المتميزة التى يجد المؤرخ نفسه ميالا إلى أن يتخذها بداية « للإمبراطورية بيزنطية » .

بيد أن هذا العصر ، على الرغم من أنه كان فى حد ذاته بداية لعصر جديد اقتضى إيجاد تعديلات فى السياسة والإدارة ، فإنه لم يكن إلا ختاما لعملية تطور طويلة ، ولا يمكن فهمه حق الفهم إلا على ضوء تاريخ العصور الثلاثة السابقة . ذلك لأن هناك حقيقة تزداد وضوحا أمام أعيننا يوما بعد يوم ، وهى أنه عند نهاية القرن الثالث المسيحى تنتهى حلقة من حلقات التاريخ ، إذ أن شعوب البحر الأبيض المتوسط بدأت حلقة جديدة من سلسلة تاريخها ، وهـذه الحلقة الجديدة يُعيّنها اعترافُ الدولة بالمسيحية واختطاطُ مدينة قسطنطين — روما الجديدة — فى بلاد اليونان . وهذه هى الحادثة التى يجب أن تُعيّن لنا نقطة بدايتنا .

وقد احتل الصليبيون القسطنطينية فى سنة ١٢٠٤ م ، وأخذ الحكام اللاتين مكان الأباطرة البيزنطيين . نعم ، إن الإمبراطورية قد أعيدت خلال القرن الثالث عشر ، ولكن أمراً جديداً جدّ على أيام أسرة باليولوجوس : ذلك أن مؤثرات جديدة من الغرب تسربت إلى العالم الرومانى ، ولم يبق لروما الجديدة نفسها من عظمتها السابقة إلا ظلها . ولا زالت هذه الفترة فى حاجة إلى دراسات طويلة حتى يشعر دارس التاريخ البيزنطى أنه يقف على أرض ثابتة . وربما حاول التخلص

بإصدار أحكام عامة ، ولكن ذلك لا يخلو من مجازفة . ولهذه الأسباب وغيرها قَصَر المؤلف نفسه فى هذا الكتيب بصفة خاصة على العصر الذى سبق سقوط القسطنطينية فى الحرب الصليبية الرابعة ؛ ولهذا فإن كلامنا يتناول الفتره الواقعة بين إنشاء روما الجديدة فى القرن الرابع واحتلال الصليبيين لها فى سنة ١٢٠٤ م . (المؤلف)

* * *

وقف المؤلف بعرضه التاريخى عند سنة ١٢٠٤ م ، ولكن فصوله على الحضارة تتناول الحضارة البيزنطية كلها حتى نهايتها فى القرن الخامس عشر ، بل إنه أضاف فصولا عن تراث بيزنطة .

ولهذا رأينا أن نضيف إلى الكتاب فصلين أخذناهما من كتاب شارل ديل المسمى : بيزنطة ، عظمتها واضمحلالها .

CHARLES DIEHL, *Byzance, Grandeur et Décadence* (Paris, 1919).

وهما : تكوين الإمبراطورية الشرقية .

La formation de l'empire oriental.

و : من أوج الدولة إلى سقوطها (٨٦٧ — ١٤٥٣)

De l'apogée de l'empire à sa chute (867—1453)

وقد قص فيهما المؤلف تاريخ الدولة البيزنطية من بدايته

إلى نهايته بأسلوبه البديع الشامل . وبذلك أصبحت الترجمة العربية شاملة لكل ما يحتاج إليه دارس التاريخ المبتدئ من المعلومات والحقائق عن تاريخ بيزنطة وحضارتها .

ولم يشر المؤلف إلا إشارات عابرة إلى العلاقات السياسية والحضارية بين العرب والروم ، فرأينا أن نسد حاجة القراء بفصل خاص عن هذه الناحية أخذناه من الكتاب الذى ألفته مجموعة من كبار الأساتذة المختصين فى التاريخ البيزنطى وعرضوا فيه لتراث بيزنطة واسمه :

Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization

Edited by

NORMAN H. BAYNES and H. St. L. B MOSS.

واسم الفصل *Byzantium and Islam.*

وكاتب الفصل الذى ترجمناه هو الأستاذ ڤازلييف الحجة المعروف فى الدراسات البيزنطية .

وختمنا الكتاب بملحق ثالث يضم أسماء أباطرة الدولة البيزنطية أخذناه من كتاب «الحضارة البيزنطية» تأليف : ستيڤن رونسيمان STEVEN RUNCIMAN : *The Byzantine Civilization* من صفحة ٣٠١ إلى ٣٠٥ . وبهذا نكون قد وفينا

قرّاء العربية حقهم من هذه الناحية ، وجعلنا من هذا الكتاب الصغير معرضاً يضم أفكار طائفة من أعلام الدراسات البيزنطية .

هذا وقد أضفنا تعليقات يسيرة هنا وهناك ، حيث اقتضى المقام توضيح النص أو التعريف ببعض الحقائق أو الشخصيات التى عَبَرَ بها المؤلف عبوراً سريعاً . ولما كان المؤلف قد أضاف بعض الحواشى القليلة ، فقد ميّزنا هذه الأخيرة بلفظ « المؤلف » تحتها وتركنا حواشينا من غير تعيين .

ويسرنا فى ختام هذه الكلمة اليسيرة أن نقدم أصدق الشكر إلى حضرات من تفضلوا بمعاونتنا فى إخراج هذا الكتاب ، ونخص بالذكر حضرة صاحب العزة الدكتور أحمد أمين بك رئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، والأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والأستاذين مصطفى عبد المجيد صالح وإحسان عباس .

والحمد لله أوّلاً وآخراً . (المعربان)



الفصل الأول

مدينة قنسطنطين

« تلك المدينة التى جمعت أمنيات الدنيا »
قنسطنطين الرودسى(١)

إن الحقيقة القائلة « إن تجارب كل جنس تتجسم فى نظمه السياسية » لتبدو أكثر وضوحا فى أعمال دقلديانوس وقنسطنطين منها فى أى شىء آخر. فقد ساد العالم الرومانى من الداخل فى القرن الثالث تفكك عام، فكان الفساد يهدد الدفاع العسكرى والحياة الاجتماعية، فهوجمت جميع الحدود، وعاثت جموع البرابرة فساداً فى الولايات فى غالة وعلى الراين والدانوب، بينما كانت فرق الإمبراطورية تواجه فى الشرق تقدم الفرس بقيادة الساسانيين، الذين ارتقوا إلى الحكم (حوالى ٢١٢ ب. م) بدافع من الحماس القومى الشديد.

(١) قنسطنطين الرودسى: مصنف مجموعة من الأشعار القصيرة تسمى *Anthologia Palatina* فيها قصائد لشعراء وثنيين ومسيحيين، وكانت ذائعة الانتشار خلال القرن العاشر الميلادى. ويذهب بعض المؤرخين الى أن قنسطنطين هذا هو نفس المؤلف المعروف بقنسطنطين خيفالاس. انظر:
KRUMBACHER: *Geschichte der Bysantinischen Literatur*, p. 727 — VASILIEV, *Hist. Byzantin*, I, 479.

وكانت روما قد فقدت أكثر قوادها الأكفاء فى ساحة القتال ، وانتخبت الشعوب الخاضعة لها قوادا وأباطرة — دفاعا عن نفسها . وأصبح الشعور بالوطنية لا يتعدى حدود الولاية ، لأنه لم يعد يعتمد على حماية جيوش الإمبراطورية ، بل على أهل الولاية أنفسهم .

وكان من الضرورى للإبقاء على روابط الناس بعضهم ببعض ، أن تفرض عليهم قيود صارمة لايفلت منها أحد ؛ ذلك أن المجتمع كان مهدداً بجيوش لا قبل له بها من الخارج ، وعدوان الجيش والانهيار الاقتصادى من الداخل .

وعلى هذا فقد اقتفى دقلديانوس خُطى أورليان *Aurelian* (٢٧٠ — ٢٧٥ م) وأجبر المواطن الرومانى على مُزاولة مهنة أبيه ، وألزمه الخضوع لنظم النقابة التى كان أبوه عضواً فيها . وكذلك لم يكن يُسمح له ، مهما تكن ظروفه ، أن يتخلص من التزاماته نحو الدولة . فكان عليه أن يلزم وظيفته سواء أكان مالك أرض ، أو عضواً فى مجلس بلد ، أو جنديا على الحدود . فإذا امتنع أُعيد مرغما مهما بلغت خسارته الشخصية على حساب حريته أو أملاكه . إذ أدرك هذا الإمبراطور الإلّيرى بعبقريته الفذة أن الأمل الوحيد لنجاة سفينة الدولة ، بعد أن أخذت

تتفكك خشبها ، هو العمل بهذا النظام الاجتماعى المتوارث .

ونقول بالإضافة إلى ما مر : إن اختبارات القرن الثالث هى التى أملت طبيعة إصلاحات دقلديانوس فى الحكم . فقد أثبتت أنه لا غنى عن وجود قوادٍ أكفاء يؤمنون بوجوب خضوعهم للحكومة ، وجيوشٍ سريعة الحركة يفقه أفرادها دروس الطاعة والنظام . فقد كان الوالى منذ أيام روما الأولى حاكما إداريا وقائداً عسكريا إذا دعت الضرورة . فكان تفرده فى سلطته *imperium* يكفل له نفوذا مدنيا وعسكريا . أما الآن فقد أصبح من الضرورى مراعاة الكفاءة العسكرية وحدها عند انتخاب الوالى ، لأنه لم يعد يجد من الوقت ما يعينه على تصريف واجباته المدنية . وعلى هذا فقد فصل دقلديانوس بين الواجبين فصلا تاما ، وهو إجراء ربما كان الإمبراطور جاليانوس *Gallienus* (٢٥٣ — ٢٦٨ م) هو أول من مهد له . وتعدّى ذلك إلى إبعاد أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء عن الجيش ؛ وعين فى الوظائف العسكرية رجالا من الطبقة المتوسطة (الفرسان) الذين لم يكن لهم من محتدهم أو ثرائهم ما يؤهلهم لتلك المناصب ، وإنما أهّلتهم لها كفاءاتهم . وأخذ دقلديانوس فى الوقت نفسه يسعى لمواجهة الخطر الذى قد ينشأ عن مُحاولة قائد ناجح اغتصاب العرش :

فزاد من عدد الولايات ، و بهذا أنقص من عدد القوات الخاضعة لإمرة أى قائد بمفرده ؛ ونظَّم الدفاع عن الحدود . ومن المرجح أنه كان صاحب الخطوة الأولى فى سبيل خلق جيش إمبراطورى متنقل ، وهو عمل أتمّه قنسطنطين فيما بعد (انظر الفصل السابع)

ومع هذا فقد بقى أن يتحوّل الإمبراطور ، ذلك السيد الجامح ، إلى خادم مطيع للحكومة ، وأصبح من الضرورى أن يُنَصَّ ثانية على سلطته . فاقتبس دقلديانوس لهذا الغرض أفكاراً فارسية عن الحكم المطلق من البلاط الساسانى : رأى أن يضفى على اللباس الأرجوانى أبهة شرقية وترفعاً ، وأن يصبح أميرُ الإمبراطورية القديمة ، الذى لم يكن بينه و بين شعبه حجاب ، ذلك الحاكم المقدس ، المترفع المحتجب ؛ ووجب على أفراد رعيته أن ينحنوا له صاغرين . ولم يعد الإمبراطور يعتمد فى تثبيت حقه فى العرش على هتافات التأييد الصاخبة[١] من الحرس

(١) كانت القوانين الرومانية القديمة تقضى بألا يلى موظف كبير وظيفة إلا بطريق الانتخاب . ولما كان الإمبراطور فى أول أمره موظفاً كبيراً عمله قيادة جيوش الدولة ، فقد كان لا بد أن ينتخبه مجلس الشيوخ لكى يتولى منصبه ؛ ولا بد أن يؤيد الشعب هذا الانتخاب بالهتاف للامبراطور . فلما تطورت نظم الدولة وأصبح الإمبراطور الحاكم المطلق للدولة الرومانية كلها بعد انتهاء الحروب الأهلية فى سنة ٣١ ق . م ، حرص أكتافيوس أول الأباطرة على مراعاة قواعد الدستور وسار خلفاؤه على هذا المنوال =

الإمبراطورى ، بل أضحى نفوذه مستمداً من الحق الإلهى ، وأصبح سلطانه هبة من السماء .

وبهذا سجلت روما على نفسها اعترافاً بما للشرق عليها من ديون ؛ ولم يكن هذا الاعتراف هو الأول من نوعه . فقد أصاب الحياة والفكر فى العالم الرومانى فى القرن الثالث تغير ملموس . نعم ، حدث أن قرر أوغسطس بعد أن انتصر فى اكتيوم (٣١ ق . م) أن يعتمد فى تثبيت سلطته على الولايات الغربية ، وأن إسبانيا وغالة أقبلتا على الأخذ بالثقافة اللاتينية بشغف أيام حكم الأسرة اليوليو — كلودية ؛ غير أن الشرق الهلينستى بقى ملموسَ الأثر فى روما . حتى أن جوفنال *Juvenal* فى نقده اللاذع سخر من ذلك بقوله : إن نهر العاصى الشامى أخذ يصب فى التيبر . وعلى كل حال فقد تخلل الإمبراطورية الرومانية تيار مقبل من أقصى الشرق . وبدا كأنما الفكر والثقافة الفارسيان أخذا يتقدمان لغزو أراضى شرق البحر الأبيض المتوسط .

= حرصوا على أن يكون ارتقاؤهم إلى منصب الإمبراطورية دستوريا من ناحية الشكل على الأقل ، فكان الطامع فى العرش يحرص على أن يجمع أفراد الحرس الإمبراطورى لكى ينادوا به امبراطوراً ، ويعتبر ذلك تأييداً من الشعب لانتخابه . وقد أصبحت مسألة هتاف الحرس الإمبراطورى للامبراطور هى البقية الوحيدة من مظاهر الدستور القديم .

وزحفت المذاهب الشرقيــة على الولايات الغربية وحمل رُماة الجيش الرومانى من المرتزقة الذين كانوا يجندون باستمرار من آسيا عبادةَ مثراس إلى معسكراتهم على الدانوب والراين .

وأخذ النزاع الدينى فى القرن الثالث شكل كفاح بين المذاهب الشرقية . وكانت الوثنية اللاتينية تحارب معركة خاسرة حتى إن مؤيدى البانتيون القديم من أتباع الإفلاطونية الجديدة أخذوا يستخدمون الأسلحة الآتية من الشرق ، وتشبعت صوفيتهم بعناصر شرقية بينما كان مرشدوهم يقيمون فى مصر وسوريا . وهكذا اتجه مركز العالم الدينى شطر الشرق .

وهجر الأدب أيضاً نهر التيبر ، وأخمــل الكتّابَ اللاتين منافسوهم اليونان ، وأصبحت مراكز العبقرية الأدبية فى الغرب توجد فى غالة و إفريقيا لا فى إيطاليا .

ثم إن خطر البرابرة قد بلغ أشدّه على الحدود الشرقية والشمالية . فقضى كلوديوس (٢٦٨ — ٢٧٠) نحبه يحارب القوط ، وقضى ڤاليريان ما تبقى من حياته أسيراً فى فارس . وكانت روما أبعد من أن تنجد حدودها القاصية على الدانوب والفرات .

كان أهل المجتمع الرومانى زراعاً لا تجّارة ؛ وحالت العوامل الطبيعية دون تدفق التجارة على روما . فالتيبر لم يكن يصلح

طريقاً للتجارة البحرية بسبب ضيق مجراه وكثرة فيضاناته ؛ ولم يكن غنى روما وليد شيء سوى ما سَلَبته من العالم ، ولأن ممالك الشرق المغلوبة نزلت عن كنوزها للغالب ؛ فلما أصبح البحر الأبيض المتوسط بحراً رومانيا تحول عنهـا — أى عن روما — فيض الغنى ، وانحطّت الزراعة فى إيطاليا ، وهجرت الطبقات الحاكمة بساطة السلف ، وأخذ الشرق يزوّد الرومان بأسباب الترف ، ولم تعـد إيطاليا تُنتج ما تؤدى منه أثمان ما تستورده من الأشياء ، وأصبح عليها أن تسد العجز الناشئ فى كل سـنة بالنقد ؛ فعمّ الفقر إيطاليا ، واتّجه منطق القوانين الاقتصادية الغاشم إلى الشرق كذلك .

وموجز القول إن المركز الدينى والأدبى والعسكرى للإمبراطورية قد انتقل . فلا عجب إذا احتاج حاكم يتوج رأسه بإكليل ملك الملوك إلى عاصمة شرقية للإمبراطورية ، وتُرك لقنسطنطين أن ينجز مابدأه دقليديانوس ، وأن يختار موقعاً ملائما لروما الجديدة .

وهكذا قامت المدينة التى كتب لها أن تظل عاصمة للإمبراطورية وحصناً للغرب طيلة قرون ؛ واستقرت على شبه الجزيرة البارز من أوروبا والذى يكاد يلاقى الشاطئ الأسيوى ،

وفى وسط الطريق بين الحدود الشمالية والشرقية ، فى بقعة يحميها مد بحر مرمرة العنيف من الهجمات البحريّة . واتخذت من القرن الذهبى ميناءً لها .

وأخذت بيزنطة اسماً مسيحيا بعد أن قضى قنسطنطين على ليسينيوس *Licinius* قضاءً مبرما . وبدأ العمل بإقامة سور المدينة الجديدة حين توج قنسطنطيوس قيصراً فى ٨ نوفمبر سنة ٣٢٤م ونشط العمل فى البناء سنة ٣٢٨ م ، واحتفل بالقسطنطينية فى ١١ مايو سنة ٣٣٠م احتفالاً مهيباً . وأقام الإمبراطور مع رجال بلاطه ومجلس الدولة *Consistorium* وهيئة حكمه المركزية فى العاصمة التى حملت اسمه .

وكان لقنسطنطين فى الحقيقة سبب آخر لتحوله هذا ؛ فقد شُيّدت القسطنطينية لتكون مدينة مسيحيّة الصبغة ، بينما ظلّت عاصمة التيبر حصناً للديانة القديمة إلى وقت طويل .

وظل اعتناق قنسطنطين للمسيحية ، وطبيعة معتقداته الدينية الشخصيّة موضوع جدل لا ينتهى إلى أن كتب العلاّمة الفرنسى جول موريس كتاباً فى نقود تلك الفترة أوضح فيه بجلاء — حسب ما رأى — أن قنسطنطين ولا ريب قد اتخذ المسيحيّة ديناً ، وأن الرواية التى تجعل تاريخ تنصّره منذ

احتلاله لروما فى أكتوبر سنة ٣١٢ م ، هى رواية صحيحة

ويتجلى مجد قنسطنطين الحقيقى فيما يلى : وهو أنه أقام طيلة حكمه على الإخلاص للسياسة التى اتفق على الأخذ بها مع ليسينيوس *Licinius* فى اجتماعهما بميلان فى فبراير ٣١٣ م فى عصر لا يعرف ناسه التسامح . وإذا جاز أن يكون منشور ميلان مجرد رواية ، فمما لا يقبل الشك أن رسائل وردت من البلاط الإمبراطورى إلى حكام الولايات تأمرهم بأن يسمحوا لجميع الطوائف — دون تمييز — أن يعتنقوا المذهب الذى يريدونه، وأن يمارسوا الطقوس الدينية الخاصّة بدياناتهم . وإذا جاز القول بأن قنسطنطين كان يبشر فى أواخر أيامه ، أو أن يقوم بصرف الوثنيين عن حضور احتفالاتهم ، أو حتى أن يحاول أن يجتذب شاه فارس إلى المسيحيّة ، فلا يجوز مطلقاً أن ندرج اسمه فى قائمة المضطهِدين ؛ فقد رفض فكرة إلزام الناس الدخول فى المسيحية .

وعلى كل حال فقد وجد قنسطنطين أنه يستطيع فى مدينته الجديدة أن يتحلّل مما عاهد ليسينيوس عليه فى ميلان . فقرر تحريم ممارسة الطقوس الوثنية فى مدينته بعد احتفاله المهيب بميلادها سنة ٣٣٠ م . ولكن كيف يتأتى لنا أن نفسّر إذاً حقيقة إنشاء معابد وثنية جديدة فى تلك الفترة ؟ أو على الأقل ترميم

بعضها فى نفس المدينة ؟ ذهب جول موريس إلى أنها أنشئت بين سنتى ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، وأن الذين أنشأوها كانوا موظفى الدولة لأنهم كانوا وثنيين ، فأرادوا بذلك التعبير عن تمسكهم بعقائدهم . لأن المسيحيين أبعدوا من الخدمة المدنيــة خلال فترة حكم دقلديانوس التى أطلق عليها فترة الاضطهاد ؛ ولا يغيبنّ عن الذهن أن الإمبراطور فى السنين الأولى هذه كان مضطراً إلى تنفيذ سياسته الجديدة عن طريق موظفيه الذين كانوا يناصبون أهدافه العداء ، حتى إن إرادة الإمبراطور لم يكن نصيبها سوى نزر من النجاح البطىء إزاء معتقدات الطبقة الحاكمة الراسخة . ومع هذا كله فقد فرضت القسطنطينية المسيحية على بيزنطة فرضا فى ٣٣٠ م .

وظلت عبادة الإمبراطور قائمة فى الولايات ، ولــكن فى شكل معدل : فأصبحت مجرد احتفال لا تصحبه أية قرابين وثنية ؛ وأقيم معبد فى أومبريا *Umbria* تكريما لذكرى الأسرة الفلافيّــة *Gens Flavia* ، وحتى لقد احتفظت الديّانة القديمة ببعض هيبتها فى القسطنطينية نفسها ؛ وكان ذلك أثراً مباشراً لعمل قنسطنطين : فهناك على عامود مرتفع نُصب تمثال كان فى الأصل على الأرجح يمثل أپولو ، ولــكنه أصبح يحمل ملامح

قنسطنطين . وحمل رأس الإمبراطور تاج هليوس *Helios* (إله الشمس) المتلألئ . وكان هذا التمثال موضع احترام المسيحيين والوثنيين على السواء . تُرى ما الذى يعنيه هذا ؟ لقد ادعى قنسطنطين بالرجوع إلى نسب أبيه قنسطنطيوس كلوروس أنه من نسل الإمبراطور البطل كلوديوس جوثيكوس . ويظهر أن كلوديوس وقنسطنطيوس وقنسطنطين نفسه فى أيامه الأولى ، عبدوا إله الشمس (سول إنفِكْتوس — الذى لا يقهر) . ويرى البعض أن قنسطنطين كان يرمى من وراء تمثاله هذا أن يُعلن لشعبه أنه لم يزل بعد تنصره يعترف بفضل أجداده العظماء ، وأن الأسرة الفلافية الجديدة التى أراد تأسيسها ، ذاتُ ماض عريق وأنها جديرة بولاء الرومان ، فإذا كان هذا هدف قنسطنطين ، فقد حققه ؛ وليس أدل على ذلك من أنه عند وفاته كانت هناك شواهد جلية على الطاعة التى أحياها فى نفوس الناس شعوره هذا تجاه أسرته .

وتساهل قنسطنطين مرة أخرى مع الوثنية ، فاستمر يعترف بإلهة الحظ *Tyche* — الروح الحارسة — إلهة بيزنطة وروما على السواء ، مع أنه قد يشك فيما إذا كان الإمبراطور قد أمر — كما يؤكد ذلك ملالاس *Malalas* — بأن يحمل تمثاله الذى صُوّرت عليه الإلهة *Tyche* — فى العيد السنوى بالمدينة — وسط

احتفال مهيب خلال الهيدروم[١]، و يقدم له سلطان الدولة مراسيم الاحترام . ذلك أن كل تقاليد تلك الفترة التى أسبغ عليها نوع من الإجلال قد عُزيت إلى قسطنطين . وقد أولى العلماء المحدثون تلك الصور المفرغة فى قالب مثالى أهمية كبيرة — ففسروا الرمز إلى روح بيزنطة على صورة جؤجؤ سفينة ، على أنه فى الواقع إشارة إلى روح روما الذى أراد قسطنطين أن ينقله إلى روما الجديدة التى أنشأها لذلك الغرض . وذلك تفسير معقول لأن روما كانت محرومة من الميناء — وهو روحها — ولا يستبعد أن يأتى دارس نقود فى عصر مقبل فيجادل بطريقة مشابهة مستنتجاً من

---

(١) الهيدروم hippodrome (من hippos اليونانية أى حصان ، و dromos أى ميدان) : هو حلبة سباق الخيل والألعاب فى المدن اليونانية والرومانية . وكان هيدروم القسطنطينية من أكبر منشآتها لأنه كان مجتمع أفراد الشعب للهو والتسلية حيث كانوا يشهدون سباق العربات وصراع المصارعين وبعض ألوان التمثيل الجدى والهزلى . وكان الأباطرة يذهبون إلى الهيدروم بعد تتويجهم مباشرة حيث يجلسون فى المقصورة الإمبراطورية التى كانت تسمى *Kathisma* وهناك يحييهم الشعب . وتعتبر هذه التحية بمثابة المبايعة . وكان اللاعبون يلبسون أثناء اللعب ملابس ملونة بأحد ألوان أربعة : الأخضر والأزرق والأبيض والأحمر . وبعد أن حرمت الكنيسة مبارزات الجلادين فى الملاعب العامة ، أصبح سباق العربات التى تجرها الخيول أشيع ضروب التسلية فى الملعب . وكانت كل طائفة من المتسابقين تميز نفسها بلون خاص . وكان لها أنصارها الذين كانوا يعتبرون أنفسهم وحدة فيقومون بنفقات الخيل والعربات والسائقين . انظر : VASILIEV, *Op. Cit.*, I, 204.

نقود الإمبراطورية البريطانية التى ستكون قد سقطت منذ أمد طويل أن عبادة الإلٰهة بريطانيا كانت شائعة فيها فى القرن العشرين إلى جانب المسيحية ، كأثر باق للوثنية القديمة فى الجزيرة .

ولا شك فى أن تمثال *Tyche* يستطيع أن يصور لنا — من وجهة نظر واحدة — فكرة قسطنطين عن هذه المدينة . فأهل القسطنطينية — كما يظهر من النقود المسكوكة فى المدينة الجديدة — هم الجمهور الرومانى : مُنحت لهم نفس الامتيازات ، وتمتعوا منذ ٣٣٢ م بتوزيع القمح والخمر والزيت من الحكومة ، فقد أخذت ناقلات القمح من السفن المصرية تبحر إلى القرن الذهبى ، بينما ظلت الفرق الرياضية تتبارى فى الملعب الرومانى . حقاً ، لقد كانت مدينة قسطنطين روما الجديدة ، إذ وضعت نظمها على نهج نظم روما القديمة ، وترى قسطنطيوس الثانى يرفع مجلس السناتو فى القسطنطينية إلى مستوى شبيهه فى مدينة التيبر .

وسعى قسطنطين إلى تشجيع أفراد الشعب على ترك مساكنهم والاستقرار فى عاصمته بكل الوسائل ، وقد سلبت من العالم الرومانى كنوزه الفنية ، وأصبحت القسطنطينية متحفاً حقيقياً حافلا بالروائع اليونانية والهيلينستية بينما اقتضى تنسيق الحمامات والكنائس والقاعات والميادين على مقياسه الواسع بذخاً كثيراً .

ليس هذا مكان لوصف القسطنطينية وصفاً مفصلا : لقصرها الذى كان يضم مجموعة معقدة من الأبنية التى كان يضيف إليها الأباطرة على التعاقب أبنية أخرى أثناء القرون ، ولشارعها الرئيسى ميزى *Mese* (١) الذى كان يسير من سنت صوفيا غرباً مخترقاً الفورم الذى أسسه قنسطنطين ، والفورم التّورى إلى البوابة الذهبية — بوابة مدخل القصر ، وبواكيه المغطاة بلاطاتها بالرخام ، والتى كانت تحف بشارع ميزى حيث كانت تقوم منصات البدالين ؛ وشوارعها الجانبية الضيقة التى لم يكن عرضها يزيد عن عشر أقدام ، والتى كانت تُضَيِّقها شرفات الدور البارزة وسلالمها الخارجية ؛ وكنائسُ سنت صوفيا والرسل الاثنا عشر وسنت إيرينى ، والسور المحيط بالمدينة الذى وسّعه ثيودوسيوس الثانى فى القرن الخامس ، والذى أعاد توسيعه هرقل فى القرن السابع . فإذا

---

(١) Mesé ميزى : اسم الشارع الرئيسى فى القسطنطينية أيام البيزنطيين وكان يبدأ عند باب القصر والهيدروم ويتجه نحو الغرب وطوله نحو ميلين . وكان متسعاً تقوم على جانبيه البواكى . وكان يخترق ميدانين : ميدان قنسطنطين وميدان ثيودوسيوس ويتفرع عند نهايته إلى شارعين يتجه الأول نحو ميدانى بول وأركاديوس ، وينتهى عند البوابة الذهبية ، ويمر الآخر بكنيسة الرسل ، وينتهى عند حى بلاخرناى ، والبوابة الخارزية وكانت أكبر المحلات التجارية فى العاصمة تقع فى هذا الشارع .

انظر : RUNCIMAN, *Byzantine Civilisation.* pp. 185—86 والمراجع المعطاة .

رغب القارئ فى المزيد فليرجع إلى كتب أخرى .

وحسبنا فى البدء أن ندرك كيف استطلع قنسطنطين أسرار ذلك العصر ، وماذا كانت تصوراته للمدينة . لقد حاولت الحكومة الوثنية أن تستأصل شأفة الكنيسة المسيحية ، فأخفقت فى ذلك ، وكان النجاح حليف قنسطنطين حين حاول أن يربط الحكومة الوثنية مع الكنيسة المسيحية برباط الصداقة . فالقسطنطينية رمز لذلك الاتحاد بين التقاليد الرومانية والمسيحية ، اتحاد اعتمد فى توثيق عراه على مر السنين اعتمادا كلياً ، حتى أصبحت المعتقدات الأرثوذكسية والرعوية الرومانية شيئين مترادفين .

الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية فى الامبراطورية الشرقية

« إننى لأرى حيثما وليت وجهى أنكم شعب شديد الورع »
أعمال الرسل ، ١٧ ، ٢ (ترجمة موفات) (١)

لا تزال الحياة الاجتماعية فى الإمبراطورية الشرقية تنتظر من يؤرخها(٢) ، وكل ما يمكن أن يعالج فى هذا الفصل الموجز لا يعطى للقارئ أكثر من صورة للجو العام فى العالم البيزنطى ؛ إذ أن الدراسة تصبح أمراً مستحيلا إذا لم تُرسم لذلك الموضوع خطوطه الكبرى .

لا يكاد أحد يُنكر أن مصالح الناس ، وما يثير اهتمامهم من الأمور لا تخرج عن أن تكون علمية أو اجتماعية ، وأن كل مسألة تتخذ شكل المعضلة الاجتماعية . أما فى الإمبراطورية الرومانية

---

(١) انظر أعمال الرسل ، إصحاح ١٧ ، ٢٣ من الترجمة العربية ط . نيويورك ، ١٨٦٧م ، حيث ورد هناك : « أراكم من كل وجه متدينين كثيراً » .

(٢) قضى المؤلف عدة سنين يجمع مادة لدراسة الحياة الفكرية والشعبية فى الإمبراطورية الشرقية .

الشرقية فقد كانت الهوايات والنزعات دينية ؛ وكانت الأمور من سياسية واجتماعية تلبس ثوباً دينياً .

لقد كان البيزنطى يعيش فى عالم تملأه وتسيطر عليه القوى الخفيّة . فكانت عطلاته أعياداً دينية ، وألعابه فى الملعب ، تُستَهل بتراتيل ، وعقوده التجارية تتسم بعلامة الصليب ، أو تحتوى على ابتهال للثالوث المقدّس . وإذا أراد أن يستخير الله فى شيء ، لم يفعل ذلك إلا عن طريق النساك أو طريق الرؤى التى يتمثل فيها القديسون الأموات . وكان يتخذ من التمائم المقدسة تعاويذ له . ويرى فى الغبار المحتوى على قطرة عرق انحدرت من جسم قديس من الذين ماتوا على الأعمدة أنجع دواء عنده . وكانت حروبه صليبيّة مقدسة ، وإمبراطوره خليفة لله فى أرضه ، وكل حادثة مروعة فى الطبيعة فهى إما نذير أو بشير ليثنيه أو يحفزه .

وكانت النتيجة لهذه النظرة أن أصبح العلم متهماً . ومجال القول ذو سعة فى تأييد تلك الحقيقة ، ولكن حادثة حقيقية واحدة قد تكون أبلغ أثراً من رسالة : حدث فى القرن الرابع الميلادى أن اجتاح القسطنطينية طاعون كان يودى بأرواح عدد كبير من الناس يومياً ، ووجد أحد أطباء العاصمة أن نسبة الوفيات كانت عالية بين أصحاب الأيدى العاملة الذين يعيشون فى بيوت

تحت الأرض ، وأعلن للملأ أن ذلك ناجم عن قلة الهواء النقى فى تلك الغرف الأرضية ، فروّعت القسطنطينية لذلك ، وصاح الناس : « يا للكفر ! إن الله هو الذى يتوفى الأنفس ، أما مسألة الهواء فإن القول بها لغو وسفاهة » ، وظل الطبيب يزور المرضى من الفقراء المدقعين حتى تسللت إليه العدوى فى النهاية فقضى نحبه ، و بذلك انتصر الدين ، واعتقد الناس أن موته إنما كان عقابا له على زندقته .

والحق أن البيزنطى تحوّل بالسليقة إلى القديس بعد أن عاين عجز الطبيب . و بعد أن كان الناس ينامون فى الهياكل الوثنية ليبرأوا من أدوائهم ، أخذ المسيحى حينئذ يتردد إلى الكنيسة أو إلى مقام أحد الشهداء . وتولى الملاك ميكائيل مهمة شفاء الناس التى كان يتولاها الإله القديم الذى كان يشفى عباده إذا ناموا فى هيكل السوسثينيوم *Sosthenium* على مقربة من القسطنطينية (ولا نعرف مكانه بالضبط) . وقد اضطر الطبيبان المسيحيان الأخوان كوزماس *Cosmas* وداميان *Damian* أن يوحيا فى المنام إلى يونانى كان يبحث عمن يطبب داءه أنهما لم يكونا الأخوين الوثنيين كاستور و پوليديوكيس ولكنهما عبدان

من عباد الحق سبحانه(١) . وحينما تنصر هذا اليونانى نال الشفاء بفضل تدخل القديسين . ولم يكن فى مقدور كيرلس(٢) الاسكندرى

---

(١) كاستور وبوليديوكيس أو بولوكس *Pollux* : ولدا زيوس وهما من أبطال الأساطير اليونانية المشهورين . ويسميان فى بعض الأحيان الديوسقوريان *Dioscuri* . وكان الناس يعتقدون أن لهما قوة سحرية ولذلك كانا يسميان التوأمين الإلهيين ، وكان النـاس يضرعون إليهما فى حالات المرض رجاء الشفاء .

انظر: RENDEL HARRIS, *The Cult of the Heavenly Twins*

أما كوزماس وأخوه داميان فـكانا من العارفين بشئون الطب فى العصـور البيزنطية الأولى ، وقد نسب الناس إليهما من معجزات الشفاء ما جعلهما فى سلك القديسين .

انظر : RUNCIMAN, *op. cit. p. 132.*

وظاهر من هذه الإشارة أن اليونانى المريض كان وثنياً . وحينما طببه الأخوان المسيحيان اعتقد أن الذى شفاه إنما هما كاستور وبوليديوكيس . فلما شفياه ، احتالا عليه حتى أفهماه أنهما مسيحيان وأنهما شفياه بفضل من الله ، فـكان ذلك من أسباب تنصره .

(٢) كيرلس الاسكندرى (٤١٢ — ٤٤٤ م) : هو أكبر بطارقة الـكنيسة المصرية على الإطلاق . وهو ثالث ثلاثة يعتبرون بحق أبطال العصر المسيحى المصرى ، والاثنان الآخران هما ثيوفيلوس *Theophilus* (٣٨٥ — ٤١٢) وديوسقوروس (٤٤٤ — ٤٥١) . وكان كيرلس شخصية قوية استطاعت أن تسيطر على مصائر المسيحية خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادى . وقد تزعم كنائس مصر والشام فى نزاعها مع كنيسة القسطنطينية التى كان يمثلها نسطوريوس ، صاحب المذهب المسيحى المنسوب إليه . وقد اشتد الخلاف بين كيرلس وأتباعه ونسطوريوس وأتباعه ، واستطاعت الـكنيسة المصرية أن تحرز انتصاراً عظيما فى مجمع إفيسوس الأول بفضل جيش عظيم من رهبان مصر ، استصحبه إلى إفيسوس ، فتمكن من =

أن يُبطل عبادة الشيطان *Menuthis* إلا بعد أن حول رفات الشهيدين سيروس ويوحنا إلى قرية كان يعبد فيها ذلك الإله[١] المزيف . ولعل المتشككين يتساءلون فيما بينهم : ألم يخلق البطريق القادر من ذينك الميتين الطاهرين ذريعة لتحقيق أغراضه ؟ ولكن الأمر ، كما عبّر عنه مريد كيرلس المدافع دونه ، هو أنه ليس فى التاريخ حقاً ما يؤيد وجود الشهيدين (سيروس ويوحنا) قبل ذلك ، ولكن كلمة من البطريق كفيلة بإثبات وجودهما . وإن ذلك ليقنع كل باحث عاقل يجرى وراء الحقيقة . ومما لا ريب فيه أن سيروس ويوحنا — مثل منوتس من قبل — كانا يشفيان

= استصدار أمر بعزل نسطوريوس ، ومع أن الحكومة البيزنطية عزلت كيرلس بعد ذلك ، فإنه لم يعترف بعزلها وعاد إلى مصر وجعل يمارس سلطات وظيفته كأن شيئاً لم يحدث ، وتمكن مع الزمن من أن يستميل بلاط القسطنطينية ويستصدر منه قراراً بتثبيته . ومنذ ذلك الحين كان كيرلس أكبر شخصيات الدولة البيزنطية على الإطلاق حتى وفاته سنة ٤٤٤ .

cf : DUCHESNE, *Histoire de l'Eglise, III, pp. 480 sqq.*

وهذه القصة التى يوجزها المؤلف تدل على ذكاء كيرلس وعظيم ثقة الناس فيه ، فقد أراد أن يمحو من القرية المذكورة عبادة الإله المصرى القديم مينوتس ، فنقل إليها بقايا قديسين قديمين ، هما يوحنا وسيروس ، لكى يصرف الناس بهما عن الإله القديم . وقد زعم أعداؤه أنه لم يوجد قبل ذلك قديسان بهذين الاسمين ، وأن كيرلس ابتكرهما ابتكاراً . أما أنصاره فلم يكلفوا أنفسهم عناء مناقشة خصومهم لأن قول البطريق بوجودهما كان كافياً فى نظرهم لإثبات هذا الوجود .

المرضى أثناء النوم . ولكن أطرف تصوير لشفاء الأمراض بواسطة القديسين هو ما كان معروفا فى القرن السابع من كرامات القديس ارتيميوس *Artemius* (الذى استشهد فى القرن الرابع) وكان قديسا اختصاصه شفاء جميع أمراض الأعضاء التناسلية . وقد كانت حشمته تأبى عليه أن يعالج المرضى من الإناث مباشرة ، بل كان يعالجهن على يدى مساعدته القديسة فبرونيا *Febronia* — وهى سيدة كانت قد فارقت الحياة مثله قبل عدة قرون(١) .

ولا شك أننا لا نكاد نستطيع أن نعيد على هذه الصفحة الروايات التى كانت شائعة عندئذ ، مع أنها حافلة بالطرائف الخفية . فقد كانت جماهير المرضى تُهرع من جميع أنحاء الإمبراطورية قاصدة القسطنطينية ، وكانت الطريقة المتبعة للفوز بالقوى الخفية لهذا القديس هى أن يجىء المريض مساء أحد أيام السبت إلى كنيسة يوحنا المعمِّد ، حيث كان ضريح القديس ارتيميوس . وهناك يفرش حصيرته على الأرض ويقربها حتى تكاد تمس الضريح . فإذا شاء القديس أن يَشْفِى المريض فعل ذلك فى نومه

---

(١) المقصود بذلك هو أن الناس كانوا يلجأون إلى مقام هذا القديس المتوفى ليشفيهم من أمراض أعضائهم التناسلية بوساطة عدد من الرهبان كانوا يتوسطون بين روح القديس والمرضى . وكان هؤلاء الرهبان يحيلون المريضات إلى ضريح القديسة فبرونيا التى تشفيهن ببركاتها .

متمثلا للنائم فى رؤياه . ولكن أرتيميوس لم يكن مقيّداً بالاعتبارات المكانية ، فكثيراً ما كان يعالج العباد ولو كانوا فوق أمواج البحر .

وبمثل هذه الطريقة أخذ القديس المسيحى يحل محل الإله الوثنى الذى كان يدرأ الأذى عن المدينة . ذلك كان مركز القديس ديمتريوس فى سالونيكا ، بينما كانت العاصمة تتمتع بحماية العذراء ، أم المسيح . وكما ظهر القديس ديمتريوس على رأس الكتائب الرومانية الشرقية دفاعا عن مدينته ، كذلك رأى خاقان الآفار وهو يُحاصر القسطنطينية صورة فخمة لأنثى تذرع الأسوار وتقود الرومان وهم يغادرون بوابة المدينة . وصورة ديمتريوس ، فارس الرب ، كما تصور لنا فى كرامات القديس ديمتريوس ، تعود بنا إلى الوراء لتذكرنا بتدخل ديوسقوروس عند بحيرة رجلس *Regillus* ، وتنقلنا قدما إلى ميادين فرنسا سنة ١٩١٤ حين ظهر القديس جورج — كما يقال — على رأس الجيوش الإنجليزية ، فكتب على أعدائهم الهزيمة .

هذا الشعور المستمر بوجود القوى الخفية ، هو الإطار الذى كان يعيش فيه الإنسان البيزنطى . ذلك أن ميله إلى اللاهوت كان يظهر فى كبار الأمور وصغارها ؛ وكان العالم المحجوب عن

الأبصار يدور معه فى الآجلة والعاجلة . لقد ثار الجيش مرة يطلب إلى الإمبراطور قنسطنطين الرابع أن يشرك فى الحكم أخويه : هرقل ، وطيباريوس . ولما سألهم الإمبراطور لم يريدون ذلك أجابوه قائلين : « لأننا نؤمن بالثالوث ، فلنتوج أباطرة ثلاثة » . حتى عند ما وثب كلب كبير على الأسقف بارثينيوس اللامبزاكي ، قال كاتب سيرته : « إننى أعتقد أنه لم يخرج من أحد البيوت ، ولكنه جاء من ذلك الكلب المحجب — أى من الشيطان » وكان من حسن حظ الأسقف أنه كان حاضر الذهن حينما وثب عليه الكلب ، فبادر إلى الإيماء بإشارة الصليب . وهكذا نجا دون أن يلحق به أذى . هذه حادثة تافهة ولا ريب ، ولكنها تُعيننا على تصوير وجهة النظر عند الرومانى الشرقى .

ولم يكن ساكن العاصمة يعيش فى جو دينى فحسب ، ولكنه كان يعيش فى جو خطر . ولا شك أن أعصابه كانت فى بعض القرون تحيا فى توتر مستمر لأن مدينته كانت تقاسى حصاراً بعد حصار ؛ وفى هذا التوتر المستمر نستطيع أن نجد تعليلا لبعض السمات التى قد لا تنال إعجابنا فى الشخصية البيزنطية . ويكاد يكون مما لا جدال فيه أن الإمبراطورية الرومانية فى الغرب سقطت لأن أعداءها فاقوها عدداً . ولو أن عقلا مخترعا استحضر

يومئذ البارود والمدفع لباءت تلك الهجمات بالفشل . إذ يكون ذلك السلاح كافيا ليسد العجز العددى عند الرومان . وقد كانت أسوار القسطنطينية تمثل للشرق — بمعنى من المعانى — المدفع والبارود اللذين حُرمتْهما الإمبراطورية الغربية ، فآل أمرها إلى الزوال . ولكن لا بد للأسوار من رجال . وإذا كان المدافعون عنها فئة قليلة جداً ، فلا بد من أن تلعب الخدعة والحنكة والخيانة الصراح — إذا احتيج إليها — دوْرها بالنيابة عنهم . وهكذا مال الخلق البيزنطى إلى ألوان من الدهاء لا تعرف المبادئ ولا حدود الأخلاق . تلك الخصال التى نستطيع أن نلمسها حتى فى شخصيات يونانية ورومانيــة زمن بركليس وديموستين . وإننا لنقرر من غير حَرَج ؛ أن النفْعية الذاتية التى انغرست فى النفوس — دون شك — كانت شائعة بين الرومانيين الشرقيين رفيعهم ووضيعهم .

ذلك أن التوتر الدائم له ردُّ فعل ، هو الإفراطُ فى التراخى . ومن العبث أن ننكر أن العنف والوحشية والجوْر فى السجايا البيزنطية كانت تلعب دورا كبيرا . نعم ، لقد غالى المغالون فى تصوير تلك الناحية . ولكن لا يمكن تجاهلها بتاتا . فقد أصبح جمهور العاصمة ينظر باستخفاف إلى قيم الحياة الإنسانية نتيجة

لسُخْطه على السّاسة الذين أبغضهم بُغضا مريرا ، ونتيجة للسهولة التى كان التحريق والقتل يُقْترفان بها أمام أعينهم كلما وقع هياج . وزادت الحكومة الأمر سوءا ، فضربت للناس أسوأ المثل فى هذه الناحية ، بما كانت تجرى عليه من معاقبة المجرمين بتوقيع عقوبات تقوم على قطع الجوارح : كقطع الأيدى ، وجدع الأنوف ، وسمل الأعين .

وقد رأى بعضهم أن هذه القسوة كانت تزداد سوءا لأن شعوبا همجية متوحّشة كانت تندمج من حين إلى حين فى كيان الدولة السياسى ، وتَبقى على ما هى عليه من ضراوة الروح و إن ستَرتْ ذلك بغلالة رقيقة من الحضارة الهلينية . ولكن ، ألا يمكننا أن نردّ بعض أسباب الإسراف فى هذا الاتجاه فى التفكير ، إلى الخطر الماثل ، الذى كانت القسطنطينية معرضة له دائما ؟ إن كاتب هذه السطور ليس عالما نفسانيا ، ولكنه يرى أن ذلك التوتر العصبى الذى كانت القسطنطينية ترسف فى قيوده قد شلّ فيها القدرةَ على أن تكبح جماحها . ولو أنك فكرت فى مغامرة خارج أسوار العاصمة ، تُروّى فيها ظمأك إلى الصَّيْد — وهو لهو كان محبّبا إلى البيزنطيين — لما عرفت إن كان يقدر لك أن تعود . إذ يخبرنا التاريخ أنه لم يكن يقيم داخل الأسوار فى مطلع القرن الثامن

إلا من كانت لديه مؤونة سنوات ثلاث . فإلى هذا الحد كان الخطر عظيما . إننا لا نستطيع أن نتخيّل دائما الثمن الذى كان يدفعه سكان القسطنطينية لدفاعهم عن أوروبة .

وعلى الرغم من الخطر ، كان الرومانى الشرقى يتطلب لنفسه تسلية ومراحا . وكانت مراكز الحياة الثلاثة فى القسطنطينية هى القصر وميدان السباق والكاتدرائيّة . وقد قال رامبو *Rambaud* : « إن كانت أياصوفيا لله ، وكان القصر للامبراطور ، فإن الهيپدروم كان ملكاً للشعب » . فإذا أُغلقت الحمامات ، وأقفلت أبواب الهيپدروم ، فقدت الحياة عند البيزنطى بهجتَها ، وأصبحت تافهة ضحلة لا غناء فيها .

وقد بُنى هذا الهيپدروم على يد سپتيميوس سِفيروس *Septimius Severus* (١٩٣ — ٢١١) ب . م . أى أنه وجد قبل أن تخلق القسطنطينية ، ولا يزال باقيا إلى اليوم ، مع أن قصر الإمبراطور قد زال . وكان اللاعبون ، الذين كانوا ينقسمون إلى طائفتى الزرق والخضر ، منظمين ومعتبرين كأنهم حرس المدينة . ويمكننا اعتبار نقاباتهم التى تمثل فى الواقع عامةَ أهل بيزنطة ، بقيّةً من النظم المدنيّة اليونانية القديمة ، أقرتها الحكومة البيزنطية المستبدة . فقد خمدت المعارك السياسية التى استعرت

نيرانها خلال القرون السابقة ، وتحولت العواطف الجامحة التى كانت تبعثها الميول الحزبيّة إلى مجال آخر . وقد كان وقوف الزرق والخضر قبالة بعضهم البعض على جانبى الملعب ، وتقاذفهم بالنقائض التى تقطر سما ، صورةً جديدة لعصبيّة هؤلاء الناس لأحزابهم القديمة وتضامنهم فى سبيلها . وكثيراً ما أثير هذا السؤال : وهو لم كان أباطرة القسطنطينية يسمحون بقيام ذلك الصخب والعجيج بين فرق الملعب ؟ والجواب الواضح على ذلك هو أن سلطة الحاكم المستبد نفسه قد تحدها حدودٌ لا يدَ له فى قيامها . ومن المؤكد أيضا أن الحاكم قد يرى فى تلك العداوات المتبادلة بين الزرق والخضر صِمام أمن تتسرّب عن طريقه بعض العواطف الشريرة التى لولا ذلك لـكانت خطراً يهدد عرشه .

تمثّلْ فى فكرك لحظة ما كان يعنيه هذا الملعب الرّحب فى العالم البيزنطى ؛ وقدّرْ قبل كل شىء ذلك الحشد اللجب من الناس الذين كانوا يرتزقون من أعمال خاصة بالملعب ، كالحراس والمدربين وسواس الخيل ، وسائقى المركبات . فكّرْ فى ذلك الحشد من الممثلين رجالاً ونساءً . إذ فى الفترة التى تتخلل سباق العربات الصّباحىّ والمسائى ، كانت تُعرض مشاهد يقوم بها المهرجون والبهلوانات . وكان منهم من يمشون على الحبل ،

يلبسون ملابسهم وينزعونها وهم على ذلك الحبل المشدود . ومنهم من كان يوقف عموداً على جبهته فيتسلقه الأطفال ، ويجلسون على قمته . وفى أيام القسطنطينية الأولى كانت هناك مصارعات مع الحيوانات المتوحشة فى الملعب . فكان يلزم لذلك هيئة من الحراس . وقد كان أكاسيوس *Acacius* ، والد الإمبراطورة ثيودورا حارس دب ، وكانت ابنتُه ممثلة مهرجة . وكان سائقو العربات لا يزالون يعيشون فى عالم تسوده الخرافات الوثنية ، حتى لقد كانوا يحاولون بالتّعاويذ السحرية والتمائم أن يُقيدوا منافسيهم برُقْية ويفوزوا دونهم . وكان السائقون يفتّشون قبل بدء السباق حتى لا تكون معهم الخرزة السحرية التى تكفل لهم الفوز دون استحقاق . وكثيراً ما كانت تُكْتب اللعناتُ المنصّبة على رؤوس المنافسين المقوتين فى ألواح صغيرة من الرصاص ، لا يزال لدينا منها عدد كبير . ويحمل ذلك كله آثاراً غَنوسْطيةً[1] مُنْحلّة ،

(١) الغنوسطيون *Gnostics* وهم إحدى الجماعات التى كانت الكنيسة تناضلها فى القرن الثانى الميلادى . وترجع تسميتهم بهذا الاسم إلى الكلمة اليونانية *Gnosis* أى « المعرفة » التى كانت تعين الشخص على تحرير العنصر المقدس فيه أى الروح ، من ربقة الجسد . وأصل هذه الجماعة هو أن الناس فى العالم اليونانى كانوا يفكرون فى طبيعة الكون وكيف جاء الإنسان إليه ، وما هو مصيره ، فلما جذبتهم المسيحية إلى حظيرتها مزجوا بين أفكارهم هذه وبين تعاليم المسيحية . وكان بعض معلمى الكنيسة =

وتضرعات إلى الآلهة المصرية — أوزيريس وست وتيفون[١] وابتهالات إلى الملائكة الأطهار ورؤساء الملائكة ، وإلى قوى العالم الأدنى وإلى كائن خفى السر يسمى يولامون *Eulamon* المقدس . ومن هذه الألواح ، نستطيع أن نتعرّف أسماء الخيول ، وهى غالبا لفحول مثـــل فيبوس *Phoebus* ، وأخيل *Achilles* وبابلونيوس *Babylonius* ، وأوداكس *Audax* . وهى تعيننا على تعرف بعض الاصطلاحات الرياضية الكثيرة التى كانت متداولة فى القرنين الرابع والخامس . صحيح أن روما ابتكرت هذه الألواح لكن العاصمة الجديدة اقتبست نظامها عن القديمة . ويمكننا أن نستنتج ، مُطمئنين ، أن أحوال الحياة الرياضية فى الشرق[٢]

═ الذين مزجوا بين تعاليم المسيحية وهذه الأفكار التى أخذوها خارج نطاق الجماعة المسيحية يطلقون على أنفسهم كلمة « Gnostics » فأطلق خصومهم عليهم وعلى تلاميذهم وعلى كل من اعتنق أفكارا من هذا النوع كلمة « غنوسطيين » *Gnostics* .

انظر EDWYN BEVAN, *Christianity* pp. 64—67. and STEVEN RUNCIMAN, *Byzantine Civilisation* p. 19.

(١) تيفون *Typhon* أو *Typhoeus* : شخصية أسطورية شريرة كثيرة التوارد فى أساطير الإغريق وهى تصور عادة فى هيئة إعصار مخرب أو عملاق ينفث النار من فمه ، أو مسخ له مائة رأس وعينان رهيبتان . وتصوره الأساطير دائما ساعيا فى السيطرة على البشر ، حتى تغلب عليه زيوس *Zeus* . ويبدو من كلام المؤلف هنا أن أصل تيفون مصرى قديم .

(٢) يقصـــد بالشرق هنا الدولة الرومانية الشرقية ، وبالغرب الدولة الرومانية الغربية .

كانت أقرب ما تكون شبها بأختها فى الغرب . ويستطيع كل قارئ أن يتصور المشهد بنفسه ، فيرى : صفوف الزرق والخضر المتراصة آلافاً ، والأعيان والشيوخ يرفلون فى أثواب مزركشة من الحرير ، مرصّعة بالأحجار الكريمة المتلألئة ؛ وقد جلسوا فى الشرفة المخصوصة بهم . أما مقاصير الإمبراطور والإمبراطورة فكانت متصلة بالقصر ، منفصلةً عن الملعب ، مشرفةً عليه من عل . وبعد انتظار طويل يعقبه وصول الحرس الإمبراطورى تبدأ الحركة ، فيدخل الإمبراطور إلى مقصورته ، ويرفع طيلسانه ويرسم علامة الصليب ، وتبدأ الأجواق الغناء . ومن الغريب أنه كانت ترسل المدائح فى المسيح والعذراء ، ممتزجة بالضراعة الضارعة ، لعل النصر يكون من نصيب هذا المتسابق *charioteer* أو ذاك . ثم تنطلق العربات من عقالها : فإما النصر أو الخذلان . فإذا هبط الليل ، وساد الظلام التمع سكّين مرهف ، وأبرق فى ظلام إحدى الحارات الضيقة ، ثم يهوى إلى الأرض جسد ؛ ويعقبُ ذلك تناثرُ أمواه البحر ، ويجرف التيار شيئا ما — لقد أخذ أحد الخضر ثأره من الأزرق المنتصر .

غير أن الملعب ليس مضماراً للسباق وحسب ، بل هو مجمع

يقوم مقام الـكوميتيا[١] المندرسة ، التي كانت آخر ملاذ لحريات الجمهور الروماني . فثمة كان الشعب ينسى منافسات الألوان ، ويدعو الإمبراطور ليحاسبه عن عمل أحد الحكام البغيضين إليهم ، أو ليطلب إليه طرد وزير بغيض . فهناك ظهر الإمبراطور أناستاسيوس حينما اتهم بالهرطقة حاسر الرأس ليقرر أمام رعيته أنه على استعداد للتنازل عن العرش ؛ وهناك أيضا أخمد بلزاريوس ثورة « النيقا » *Nika* في بركة من الدماء .

لقد أجمل الكاتب الإنجليزي الكبير بيكون *Bacon* صاحب المقالات الفذة في إيجاز بارع أسباب الفتن ودوافعها فيما يلي : الابتداع في الدين ، والاستحداث في الضرائب ، وتغيير القوانين والعادات ، ونقض الامتيازات ، والظلم العام ، وتقديم من لا يستحقون التقديم ، والأجانب ، والمجاعات ، والجنود المسرحة ، والأحزاب المستيئسة . وينضاف إلى ذلك كل ما من شأنه أن يسيء إلى الشعب . وتتعاون جميعها وتتضافر في قضيّة واحدة[٢] . وتاريخ الملعب في القسطنطينية إنما هو حاشية تفسّر هذا النص المجمل .

---

(١) الـكوميتيا *Comitium* : ساحة في روما كانت تستخدم أول الأمر لاجتماعات الجمعية العامة ، ولانعقاد المحاكم ثم أدمجت فيما بعد بالفورم .

(٢) انظر فرانسيس بيكون : مقالات ، ط . لندن ١٩٤٦ « عن الفتن والاضطرابات » .

وكان ميدان السباق مكانا تعرض فيه الانتصارات الإمبراطورية ، حيث كان الأباطرة يضعون الحذاء الأرجوانى — رمز السيادة — على رؤوس المنافسين المقهورين أو الأعداء المغلوبين . كما كان أيضا محكمة جنايات ، يتخذ فيها القضاة مجالسهم بانتظام . حتى إن الإمبراطور إذا اقتنع بارتكاب أحد الحكام جريمة من الجرائم قضى على المجرم أن يحرق حيا على مرأى من الرعيّة كما فعل ثيوفيلوس ذات مرة . وشد ما كان الشعب يحب هذا الإمبراطور (ثيوفيلوس) لذلك . وكذلك كان الملعب مسرحا لتلك المواكب التى اعتاد الناس أن يروا فيها رجلا من رجال البلاط أو رجال الدين المغضوب عليهم ، يُسار به بين صفوف الشعب الساخر ، وربما أُركب حماراً وجُعل وجهه إلى ذيله . كذلك كان الملعب متحفاً فيه روائع فن النحت القديم حيث كان رجال الكهنوت فى الكنيسة المسيحية ، وقد رضوا عما يجرى فى الملعب بعد أن كانوا يهاجمونه فى عنف ، يتأمّلون الآلهة الوثنية التى حلّت الوثنية محلها . لقد كان الملعب مرآة للعالم البيزنطى .

وكان للرجل من أهل الامبراطورية الرومانية الشرقية بطلان هما الفائز فى سباق العربات والقديس المتقشّف . فأما الأول فكان

ينصبُ الصور والتماثيل إجلالاً له فى كل مكان ، وكان سائق عجلة السباق يمنح امتيازات خاصة : فكان فى نجوة من كل عقاب بدنى ، وإليه كان رجال الأدب يرفعون أحسن مقطوعاتهم . أما المتقشف الزاهد فكان الحجاج يأتون إليه من كل صوب ، يحدوهم شوق لاهف ليروا القديسَ على عموده وينالوا بركته ، وليحملوا معهم تمثالا صغيراً من تماثيل ذلك الرجل الطاهر ، التى كانت تصنع لتباع بالجملة لكل من يطلبها من الأتقياء . وهذا التمثال مع القنديل المعلق به ، كان يحمى دكان المتبرك وبيته من كل أذى ، ويعطيه ثقة جديدة وشعورا جديدا بالاطمئنان وسط أخطار الحياة .

ولو قدر لنا أن نتْبع المُتبرّك إلى بيته لوجدنا هناك شعوراً عظيما بوحدة الأسرة وتقديراً لشعور الإخلاص المتبادل . فالمرأة ربة البيت ، ولها نفوذها الملموس فى مجال عملها على زوجها وأطفالها . ونستطيع أن ندرك مدى قوة ذلك النفوذ من ذلك الرسم الذى خلفه بسلّوس *Psellus* للأم التى كان يجلها (انظر كتاب ديل : صور بيزنطية ، الحلقة الأولى ، الفصل الحادى عشر) .

وكانت البنت تتزوج فى سن مبكرة . وكان اختيار الزوج

(٣)

مما تُعنى به الأسرة . وقلما كانت البنت ترى زوجها قبل الزواج على أن المرأة البيزنطية لم تكن سجينة بيتها على أية حال ، على الرغم من أن الحرائر المحصنات لم يكن يرتَدْن دور التمثيل . وما قيل عن حجاب المرأة على الغالب مبالغ فيه . وكانت نظرية الرومان الشرقيين عن السيادة لا ترى غضاضة فى زواج الأمير بامرأة لا يجرى فى عروقها دمُ الملوك . بل كثيراً ما كان النسل الإمبراطورى يتقوّى باختيار عروس من الطبقات المتوسطة . حتى كان الإمبراطور أحيانا ينتخب شريكة حياته من بين سرب العذارى الجميلات ، اللواتى انتُقين من الولايات لتلك الغاية .

ويستطيع مؤرخ الحياة الاجتماعية للإمبراطورية المتأخرة أن يستقى مادته من عدة مصادر : يأخذ فكرة عن روح الدعابة المستهترة التى اتصف بها أهلها ، من صورة خاقان الخزر على شكل يقطنية ، هذه الدعابة التى كلفت سكان تِفْليس حياتهم ؛ ويُكوّن لنفسه فكرة عن صمودهم من دفاعهم عن مدن الحدود ضد فارس ؛ ويتمثل تقوى أهلها من حياة القديسين العموديين ، بينما يفيض التاريخ الدينى بطرائف أولئك « المجاذيب فى سبيل المسيح » ، فيضفى ذلك على هذا التاريخ حيوية وروحا .

وسيُعينه قانون الفلاح وسجلات الأديرة على تصوير حياة

القرية ، ولو على وجه الإجمال . وسيزيد كتاب « محافظ المدينة » في حيوية الصورة التي يرسمها عن الحياة التجارية في العاصمة ، وعن صيادي السمك وهم يرفعون إلى أصحاب الشأن في المدينة تقارير عما اصطادوه ، وعن بائعي البضائع الكتانية المتجولين ، وعن الفلاحين الذين يسوقون خنازيرهم إلى السوق . وستهيئ له حياة ثيودور السيكيوتي *Theodore the Syceote* فرصة طيبة لتصور التلميذ الريفي . وكذلك ستعينه حياة يوحنا المحسن على رسم صورة لمدينة الإسكندرية في القرن السابع ، اقرب إلى الحقيقة في نفسه . وستصور له كراماتُ القديس ديمتريوس حقيقةَ الحال في سالونيكا في القرن السابع ، كما تصور له كرامات القديس ارتيميوس قسطنطينيةَ القرن المذكور . وسيُصوِّر من ملحمة ديجينيس أكريتاس *Digenis Akritas* الغزوات على الثغور التي كانت تقوم بين النبيل المسيحي والأمير العربي . وسيلخص له كيكومينوس *Kekaumenos* في شيخوخته الناضجة الحكمة الدنيوية في روما الشرقية إبان القرن الحادي عشر كأنه بولونيوس[1] *Polonius* آخر .

---

(١) بولونيوس *Polonius* : وهو إحدى شخصيات رواية هاملت لشيكسبير .

وليتصفح القارئ أثناء ذلك سفر ملالاس[1] ، ذلك السجل الحافل بخليط غريب من الأحداث العامة ، كما رآها واحد من اهل انطاكية ، فهو لابد مقتبس فكرةً عن الأمور التي كانت تهم المواطنين الصالحين في الإمبراطورية الشرقيّة . ويستطيع الإنسان ، بشيء قليل من الخيال ، أن يضيف العناوين الناقصة ، ويبدو له النص بعد ذلك وكأنه صحيفة يوم الأحد يقرأ فيها الأحداث على نحو يُخيَّل إليه معه أنها مختلقة اختلاقاً ظاهراً

(١) يوحنا ملالاس : مؤلف بيزنطي من القرن السادس خلف لنا مدونة روى فيها أحداث التاريخ منذ أقدم الأزمنة إلى نهاية عصر جستنيان ويظن أن النسخة التي وصلتنا من هذه المدونة تنقصها أجزاء كانت تتناول العصور التي أتت بعد ذلك . والكتاب مختلط اختلاطا شديداً تمتزج فيه الأساطير بالحقائق . وترد الحوادث الهامة الخطيرة وسط حشد من الملاحظات والأخبار التي لا قيمة لها . ولم يكتب ملالاس كتابه هذا للطائفة المختارة من أهل المجمع البيزنطي كما كانت عادة المؤلفين في ذلك الحين وإنما كتبها للجمهور من رجال الكنيسة وغيرهم . ويقول كرومباخر : « إن هذا الكتاب إنما هو كراسة تاريخية شعبية بمعنى الكلمة » . وأسلوب المؤلف يستلفت النظر لأن كتابه هو أول نص كتب باليونانية الدارجة ، وهي لهجة نشأت من امتزاج عناصر لغوية اغريقية بعناصر لاتينية شرقية . ولهذا السبب كان لكتاب ملالاس تأثير عظيم جدا في اذهان الجماهير ، وفي تاريخ التأريخ البيزنطي والشرقي والصقلبي .

انظر

VASILIEV : *Hist. de l'Empire Byzantin, I, pp. 240-241.*
KRUMBACHER : *Gesch. der byzantinischen Litteratur, p. 326.*
J. B. BURY : *Later Roman Empire, II, 435.*

لمطابقتها للواقع . و إلى جانب أخبار الحرب — التى تعطى بطبيعة الحال أخباراً مفصلة جداً عن الوقائع فى الجبهة البيزنطية الشرقية — يرى الإنسان أخباراً مثل :

١ — افتتاح الاكتتاب لصندوق افتداء الأسرى : الاستجابة للدعوة بسخاء . ملالاس صفحة ٤٦١ .

٢ — عرض عجيب للشهب الثواقب . بم تنذر ؟ (ص ٤٧٧)

٣ — تمثيل عجيب يقوم به كلب لرجل إيطالى . (ص ٤٥٣)

٤ — فضيحة مُروّعة فى الكنيسة . اتهامات مثيرة للأنفس توجه إلى أساقفة معروفين . (ص ٤٣٦)

٥ — مقابلة لملك حبشى ، آداب السلوك السحرية فى بلاط شرقى . (ص ٤٥٧)

٦ — تجارة الرقيق الأبيض فى القسطنطينية . جلالته يتدخل (ص ٤٤٠)

٧ — صلاة فى يوم الأحد . إقرار قانون جديد (ص ٣٧١)

٨ — تسويفات القانون . توقيع عقوبة بمحامين فاسدين تجعلهم عبرة لمن اعتبر (ص ٣٨٤)

٩ — النار فى مسرح . الشموع المضيئة سبب فى الحريق . إطفاء النيران بسرعة فائقة (ص ٤٦٧)

١٠ — افتتاح حمامات جديدة . طريقة مبتكرة للتدفئة . (ص ٣٥٩)

١١ — طرد راقصي الباليه . حُظوة خاصة تنالها هيئة راقصى الاسكندرية . (ص ٤١٧)

١٢ — زلازل فى انطاكية . دمار مريع وخسارة فى الأنفس (يرد هذا الخبر كثيرا) ، المذابح اليهودية . ملحوظة لبقة للامبراطور (ص ٣٨٩)

ومن الممكن أن تطول هذه القائمة إلى غير نهاية .

وفى إمكاننا أن نتعرف سير عظماء الدولة البيزنطيّة وتفاصيل الفخامة والأبهة فى بلاطها من اىّ تاريخ للإمبراطورية . ولهذا نترك ذلك وننصرف إلى ما نحن أحوج إليه من تصوير حياة الطبقات المتوسطة ، ونظرة المواطن العادى . وقد حاول كتاب الماضى أن يصوروهما فلجأوا إلى مواعظ كريسوستوم ، وهو رجل أخلاق صور آثام عصره ؛ كما أنهم لجأوا أيضا إلى تاريخ پروكو بيوس السرّى ، وهو مؤلَّف كُتب فى ساعة من الشعور بالنكد واليأس . وباعتمادهم على مثل هذه المصادر ، صوّروا لنا مجتمعاً فاسداً رذيلا مُتْرَفاً منحطاً ، ومسرحاً قد هجره أهله إلى البذاءة ، وتعلقوا بالبهلوانيات والاستعراضات ، وعالَماً كان يحيا

فيه الرهبان والراهبات حياة من الطهر المشكوك فيه ، وتثير فيه العاهراتُ الشهواتِ الدنيئة ، بلبسهن غلائل العذارى ، زاعمات أنهن وهبن أنفسهن لله . ولكن قصص القوادين والمومسات تاريخ ناقص لأية حضارة عظيمة(١) . وتاريخ روما الشرقية أغنى من ذلك وأخصب . ومن المشكوك فيه أن تحيا إمبراطورية بالرذيلة وحدها . ومن المؤكد أن الإمبراطورية البيزنطية لم تحاول أن تفعل ذلك .

---

(١) يريد المؤلف بهذه العبارة الأخيرة أن يقول إن الاكتفاء فى تصوير المجتمع البيزنطى بذكر مساوئه التى أشار إليها إنما يكون ناحية فقط من نواحى الحياة الاجتماعية البيزنطية ، وأن صورة هذا المجتمع لا تكتمل إلا إذا ذكرنا إلى جانب ذلك المحاسن والنواحى الإيجابية . ويذهب *Baynes* أيضا إلى أن هذا ينطبق على كلامنا على أية حضارة .

الفصل الثالث

ثبت بأسماء الأباطرة البيزنطيين

« ماذا ! أيظل هذا النسل متلاحقا حتى ينفخ فى الصور ؟ »
ماكبث — الفصل الرابع ، المشهد الأول .

كثير من الطلاب حين يُلقون أول نظرة على قيد بأسماء حكام روما الشرقية ، يشاركون ماكبث فى ما استولى عليه من جزع . وهذا الكتيب لا يستطيع أن يحمل تواريخ الإمبراطوريّة البيزنطية . على أنه قد يكون من المفيد فى البدء أن نُذكّر القارئ بتعاقب الحكام الذين تَخِذوا القسطنطينية عاصمة لهم . فليس هذا الفصل إلا جدولاً تاريخياً أُضيفت إليه تعليقات يسيرة .

الفترة الأولى

٣٣٧ — ٥١٨ م

أسرة قسطنطين ، ٣٢٤ — ٣٦٣ م .

قسطنطين الأول وتوفى ٣٣٧ : الجيش لا يقبل الخضوع

إلا لأبناء الإمبراطور العظيم ، وقُتل كثير من أقربائه ، وأُبقى على يوليان لشبابه . فانقسمت الإمبراطورية بين ،

قنسطنطيوس الثانى ٣٣٧ — ٣٦١ وبين أخويه ،

قنسطنطين ٣٣٧ — ٣٤٠ ، وقُنسطانز الأول ، ٣٣٧ — ٣٥٠ ، وقد حكم قنسطنطيوس بمفرده فى ٣٥٠ . لكنه لم يتغلب على ماجننتيوس *Magnentius* الغاصب إلا فى ٣٥١ فى معركة مورسا *Mursa* الكبيرة بين الدراف والدانوب حيث قتل ٥٤٠٠٠ جندى رومانى على ما يقال . ثم نودى بيوليان (ابن عم قنسطنطيوس) الذى كان قائد الجيش فى غالة إمبراطوراً سنة ٣٦٠ فخلف قنسطنطيوس المتوفى سنة ٣٦١ .

يوليان المرتد *Julian the Apostate* ، ٣٦١ — ٣٦٣ ،

قتل أثناء انسحابه من فارس ، فانتخَبَ الجيشُ فى الحال ،

يوڤيان *Jovian* ٣٦٣ — ٣٦٤ . وعند موته تدبر الأمر أصحاب النفوذ العسكرى والمدنى فانتخبوا لهم امبراطوراً ، الجندىَّ ڤالينتينيان *Valentinian* الأول (فبراير ٣٦٤ — ٣٧٥) الذى أشرك معه أخاه ڤالنس *Valens* فى الحكم فى مارس وجعله حاكما على الشرق .

فالنس ، ٣٦٤—٣٧٨ ، سقط وهو يقاتل القوط فى معركة أدرنة ٣٧٨ ، فجعل جراتيانُ *Gratian* (بن فالينتينيان) الذى كان حاكما على الغرب القائد الإسبانى ثيودوسيوسَ شريكا له فى الحكم ، وولاه أمر الشرق .

الأسرة الثيودوسية ، ٣٧٩ — ٤٥٧ م :

ثيودوسيوس الأول الكبير ، ٣٧٩ — ٣٩٥ (امبراطور الشرق والغرب منذ ٣٩٢) ، وعند وفاته تولى ابنه هونوريوس (٣٩٥ — ٤٢٣) أمر الغرب وتولى أمر الشرق ابنه ،

اركاديوس ، ٣٩٥—٤٠٨ الذى خلفه وعمره ٧ سنوات ابنه ،

ثيودوسيوس الثانى ، ٤٠٨—٤٥٠ . وكان الحكم الفعلى من ٤٠٨ — ٤١٤ فى يد انثيميوس *Anthemius* رئيس الحرس . وفى ٤١٤ أصبح زمام الأمور فى يد پولكيريا *Pulcheria* أخت الإمبراطور . ثم استطاعت إيدوخيا *Eudocia* زوج ثيودوسيوس الثانى الأثينية أن تثبت نفوذها مدة من الزمن (٤٣١—٤٤١) . ومنذ سنة ٤٤١ حتى قبيل وفاة ثيودوسيوس الثانى ببضعة أشهر أصبح خريسافيوس *Chrysaphius* الخصىّ سيداً فى القسطنطينية . و بعد وفاة الإمبراطور تزوجت پولكيريا الجندىّ

المحنكَ مارقيان التراقى ، فأنعمت عليه بالعرش .

مارقيان *Marcian* ، ٤٥٠ — ٤٥٧ . لم يعيّن عند وفاته خليفة له . ولكن السيد المطاع المتسلط على الجند ، آلان أسپار *Alan Aspar* ، الذى كان نفسه اريوسيا ، ولهذا محروماً من العرش ، انتخب ليو ، القائد العسكرى الداشى (من إقليم داشيا) ، امبراطوراً .

اسرة ليو ، ٤٥٧ — ٥١٨ م

ليو الأول ، ٤٥٧ — ٤٧٤ م . مال نحو الإيسوريين ليتخلص من أسپار وكتائبه القوطية ، فزوج ابنته أريادْنة من تاراسيكوديسا *Tarasicodissa* الذى كان يسمى زينون(٤٦٨) ثم قُتل أسپار (٤٧١) فخلف ليو حفيدُه من ابنته أريادنة

ليو الثانى ، ٤٧٤ م ، الذى جعل أباه زينون شريكا له . وبوفاته تفرّد أبوه ،

زينون ، ٤٧٤ — ٤٩١ م . حين توفى سنة ٤٩١ م ، لم يكن قد تَعَيَّن من يخلفه اقتداءً بما سُنّ من قبل فى ٤٥٠ ؛ وقع اختيار أريادنة على اناستاسيوس من دراخيوم . وكان هذا أحد حرّاس القصر . وقبيل تعيينه امبراطوراً كان مرشّحا لأسقفية أنطاكية .

أناستاسيوس *Anastasius* ٤٩١ — ٥١٨ . لم يُعقّب .

الفترة الأولى

٣٣٧ — ٥١٨

يُعد حكم ثيودوسيوس مركز الدائرة فى تاريخ هذه الفترة ؛ فهو الذى أسس الحكومة التى كانت ديانتها الرسمية المسيحيّة الأرثوذكسية . وأبطل فكرة التسامح مع الوثنيين ، بينما توصل فى سياسته الخارجية إلى عقد صلح مع فارس ، وضع به حداً لتلك الحروب المستديمة على الحد الشرقى ، لمدة تزيد على قرن . وقد أقام القرنُ الرابع الدليلَ القاطع على عدم كفاية القوات الدفاعية الصغيرة ، التى كانت ترابط على حدود الدولة . حتى لقد اضطر قنسطنطيوس أن يستدعى كتائبه من غالة لتحمى الولايات الاسيوية . وعلى الرغم من انتصار يوليان المرتد فى المعركة العظيمة عند استراسبورج (٣٥٧ م) ، وعلى الرغم من جهود البطولة التى بذلها ڤالنتينيان ، امبراطورُ الحدود ، أصبح من الجلى أن حداً كالراين لا يستطيع الوقوف فى وجه الغزو الجرمانى دائماً . و إذا كان القرن الرابع قد شهد فى الغرب صبْغ القبائل البربريّة بالصبغة الرومانية ، فقد شهد أيضاً انصباغ الثقافة الرومانية

بالصبغة البربريّة . وقد كان كسر القوط للجيوش الامبراطوريّة ، تلك الكسرة المنكرة في معركة أدرنة ، يحمل في ثناياه النبوءة بنصر مشابه للقوط في الشرق . لقد أزاحت بطولة ثيودوسيوس الكبير وحنكته السياسية شبح ذلك الخطر مدة من الزمن . وكانت أرمينية ، طيلة القرن الرابع ، اللقمة التي تتنازعها فارس وروما ، كما كانت روسيا وانجلترا تتنازعان أفغانستان في القرن التاسع عشر : وكانت عواطف النبلاء الارمن تتجه صوب فارس . وتحقق ثيودوسيوسُ ، الذي كان أعقل من نقاده المحدثين ، أن بقاء ارمينية ولاية مستقلة ، كان يقتضي ثمناً غالياً من حرب لا يخمد أُوارها على الحدود . لذلك وافق على إمضاء معاهدة نقسم بها تلك الولاية بين الإمبراطوريتين . ولما كان أسپار حين وفاة مارقيان مع كتائبه من قوط وآلان يوشك أن يلعب الدور الذي مثله ريكيمير في الغرب ، فقد أشرك ليو الأول الايسوريين في الحكم واستطاع أن يضرب ، وأن يحكم الضربة ، حين لم يكن ثمة خطر من فارس يعرقل سعيه . وقد حمى الايسوريون الشرق من السيطرة البربرية . ولما أدوا واجبهم أبعدهم اناستاسيوس من العاصمة . لقد تنصّرت « روما الجديدة » ملكة المدن ، و بقيت رومانية رغم ذلك .

ومع أن السلام بين الامبراطورية البيزنطيــة وفارس قد استتب ، إلا أن موقفها ظلّ دفاعيا لأن الهون (الفنيون الاجريون *Finno-Ugrian*) كانوا يعيثون فساداً فى أراضى الدانوب . وأتم كورش ، محافظ القسطنطينية ، أيام ثيودوسيوس الثانى ، بناء ذلك الحاجز الضخم من التحصينات الداخلية . هنالك بُنى « سور حقا وصدقا » كما عبرت عن ذلك الـكتابة التى نقشت لتُخلّد ذلك العمل العظيم . وقد تم ذلك العمل على خير ما يرام حتى إن سادة روما الشرقية لم يروا مدينتهم تسقط فى أيدى العدو إلا بعد أربع حملات مقدسة .

أما فى الميدان الدينى فـكانت إعادة يوليان المرتد للوثنية ، تلك العودة القصــيرة الأجل ، برهانا على أن ذلك المذهب المندرس لم يعد منافسا ترهب المسيحية جانبه . بل كان الخوف أن تنقسم الـكنيسة ، التى أمدّت الإمبراطورية بحياة جديدة ، إلى شطرين بسبب الاختلافات اللاهوتية .

كان انتصار الارثوذكسية التى وفق اثَناسيوس *Athanasius* آخر الأمر لتحقيق نصرها فى الواقع ، أمراً لا مرية فيه . ولـكن اثناسيوس كان بطريقا فى الإسكندرية . ومنذ ٣٨١ — ٤٥١ كانت القسطنطينية والإسكندرية تتنازعان السيادة الدينية منازعة

مريرة متزايدة . وفى مجمع خلقيدونية ٤٥١ م انتهى الكفاح بانتصار القسطنطينية . ولكن التعريفات التى حاول الآباء وضعها للارثوذكسية كانت سببا فى تجدد النزاع .

ولما انتصرت المسيحية فى سوريا ، أنعشت أدبا سوريا وشيئا قريبا من الشعور القومى ، بينما كان المصريون دائما شعبا ذا قومية . وفى عصر دينى كهذا لم تجد القومية وسيلة للتعبير عن نفسها إلا بالمروق عن العقيدة المقررة . فقال رجال الإسكندرية بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، وناوأوا بذلك القول بالطبيعتين الذى أقره مجمع خلقيدونية . كيف كانت الكنيسة الشرقية تستطيع أن تجمع بين القومية السورية والمصرية وتبقى مع ذلك على وفاق مع روما ؟ تلك كانت هى المشكلة التى عكرت عهد زينون واناستاسيوس ، حتى استسلم هذان أخيراً لمشيئة الشرق ، فانفصمت العُرى التى كانت تربطهما بالغرب (انظر الفصل الخامس) .

الفترة الثانية

٥١٨ — ٦١٠ ب . م

أسرة جستنيان ٥١٨ —٦٠٢ م :

جستين *Justin* الأول : ٥١٨ — ٥٢٧ م . لما أعطى الخصيُّ أمانتيوسُ الذهب لذلك الإلّيرى الأُمىّ — جستين قائد حرس القصر ، ليستخدمه فى تأمين العرش لابن أخى أمانتيوس ، استغلّه جوستين ليستميل إلى نفسه قلوب الجند ، و بذلك نودى به امبراطوراً . وكانت الحكومة فعلا فى يدى ابن أخيه .

جستنيان الأول : ٥٢٧ — ٥٦٥ م الذى خلفه ابن أخيه ،

جستين الثانى : ٥٦٥ — ٥٧٨ . وهذا لم يلبث أن أصابته لوثة ؛ فرقّى جستين الثانى فى فترة من فترات الصفاء الذهنى طيباريوسَ ، رئيس حرس القصر ، إلى رتبة القيصر (ديسمبر ٥٧٤) وتوّجَه قبل وفاته امبراطوراً .

طيباريوس الثانى ، ٥٧٨ — ٥٨٢ م . وفى سنة ٥٨٢ عقد طيباريوس الثانى للقائد موريس على ابنته ، وقبل وفاته بيوم واحد توّجَ موريس امبراطورا .

موريس ، ٥٨٢ — ٦٠٢ م نحّاه ثم اغتاله فوقاسُ المتبربر الجلف الذى تزعم ثورة نشبت بين الجيش المرابط على الدانوب .

فوقاس ، ٦٠٢ — ٦١٠ م .

الفترة الثانية

٥١٨ — ٦١٠ ب . م

المظهر البارز فى هذه الفترة هو محاولة جوستنيان أن يستعيد لروما ما انتزعه البرابرة من أراضيها ، وأن يجعل إرادة الحاكم المطلق هى القانون الأوحد فى الإمبراطورية المستعادة . فانتُزعت إفريقية من أيدى الوندال ، وإيطاليا من القوط . وأُقيمت فى اسبانيا ولاية رومانية عاصمتها قرطبة كانت تعلن تحقق أحلام جستنيان . وحطمت فى العاصمة قوة حزبى الملعب المتنافسين . واعترفت الكنيسة بصاحب القسطنطينية ملكا — كاهنا ، وأُعيدت الروابط بينها و بين روما . ونشأت كنيسة جديدة للحكمة المقدّسة ، فكانت إشارة ورمزاً من رموز الأبهة التى بذت أبهةَ سليمان نفسه .

ومع ذلك فإن نجاح جستنيان كان نذيرا بالويل لأنه قام على متناقضات غير مؤتلفة — كان الإمبراطور يتلهف رغبة إلى

إصلاح نظام الحكم وإلى تخفيف الأعباء والحيف عن سكان الولايات ؛ وكان معنى ذلك إنقاص الضرائب ، وهذا يؤدى إلى تدهور خزينة الدولة وعدم توفر المال الضرورى يومئذ لاستعادة البلاد التى انتُزعت من الإمبراطوريّة ، والدفاع عن الحدود المهدّدة ، وللقيام بمشاريعه العمرانية العظيمة ، فى حين أنه كان لا بد للدولة يومئذ من الأموال الجزيلة . وهكذا اضطر جستنيان أن يتغاضى عن الاغتصاب العلنى الذى كان يقوم به وزير ماليته البغيض ، يوحنا الكابادوكى . ثم لم يكن هناك مندوحة للكنيسة الشرقيّة عن التصافى مع كنيسة روما لنجاح الفتوحات الجديدة فى إيطاليا . غير أن الاعتراف بمبادئ مجمع خلقيدونية كان معناه مجابهة سوريا ومصر بالعداء ، لأنهما كانتا تقولان بالطبيعة الواحدة . ومعنى هذا أنه لم يكن هناك مفر للإمبراطور من تضييع ولاء الشرق له إذا أصرّ على كسب الغرب . أضف إلى ذلك أن الإمبراطور الذى ترعرع فى ولاية تتكلم اللاتينية ، كان يرى فى نفسه رسولاً يبشر بالفكرة الرومانية القديمة عن الإمبراطور الذى يجمع للناس الشريعة الرومانية ويصوغها فى قالب قانون متناسق ، ويناصر استعمال اللغة اللاتينية . هذا بينما كان الغرب والشرق قد أخذا يعجزان تدريجاً عن التفاهم فيما

بينهما . وأخذ الشرق يغدو فى الفكر والعاطفة إغريقياً . وقد كان من الممكن لولايات الدانوب أن تكون حلقة الوصل بين ذينك العالمين لولا أن قبائل الصقالبة والبلغار كانت قد اجتاحتها ، بل لعل الطبيعة نفسها قاومت جستنيان : فقد كان فى حاجة إلى مدد دائم من الجند لجيوشه . لكن طاعوناً اكتسح الإمبراطوريّة فى سنة ٥٤٢ م وما تلاها من السنين ، فجرف معه أولئك الذين لو قُدّر لهم أن يعيشوا لحاربوا فى سبيل الإمبراطوريّة . و بذلك حدّ النقص فى الرجال من نشاط جستنيان العسكرى .

وقصارى القول ، إن موارد الامبراطوريّة ناءت بأعباء المهمة التى ألقاها جستنيان على عاتقها . وحاول جستين الثانى أن يقتفى خطوات عمه ، فرزح عقله تحت ذلك العبء الفادح . وهجر طيباريوس سياسة جستنيان ، إذ كانت الامبراطوريّة عاجزة عن خوض لجة الكفاح فى جبهتين — كانت عاجزة عن أن تصد تيار الصقالبة والآفار المتدفق على الولايات الأورو بية ، وأن ترفع رأسها فى الوقت عينه مُتَحَدِّية التحرش الفارسى الجديد . لقد كان قلب الإمبراطورية فى آسيا ، فكان لا بد من سلامة آسيا بأى ثمن . وكانت نتيجة ذلك أن وقعت إيطاليا غنيمة باردة فى أيدى اللومبارد ، واحتل البرابرة أراضى الدانوب . ولما أسعف الحظ

الباسم موريس إلى أن يعقد معاهدة صلح مع فارس (٥٩٠) وجه همه مرة ثانية إلى الدفاع عن التخوم الشمالية . ولكن الجيش رفض أن يتحمل مضانك الحملة ، ففقد موريس بذلك عرشه وعمره . وتلت ذلك فترة من الغزوات الفارسية والتخريب البربرى والحرب الأهلية جعلت إقليم رومانيا *Roumania* أيام فوقاس على شفا الخراب . ولم تنج الإمبراطورية مما كان يهددها إلا بقيام ثورة فى إحدى الولايات .

الفترة الثالثة

٦١٠ — ٧١٧ ب . م

أسرة هرقل :

أنزلت فوقاسَ عن عرشه حملةٌ من ولاية إفريقية يقودها ، هرقل ، ٦١٠ — ٦٤١ م . أنجب من زواجه الأول ابناً اسمه قنسطنطين (الثالث) . وأنجب من زواجه الثانى من ابنة عمه مارتينه ، ابناً يدعى هِرَقليوناس *Heracleonas* (وتوّج عام ٦٣٨ م) وأبناء آخرين وهكذا خلفه ،

قنسطنطين الثالث ٦٤١م } شريكين فى الحكم ، ولكن
وهرقليوناس ٦٤١ م } الجيش أبى أن يخضع لحكم

مارتينه . فلما توفى قنسطنطين الثالث بذات الصـدر ، اضطر هرقليوناسُ أن يتوّج ابن أخيه قنسطانز ، حفيد هرقل الأول ، امبراطوراً فى سبتمبر من هذه السنة . وأُقصِى هو وأمه عن العرش فى أواخر سبتمبر من نفس السنة . وأصبح

قنسطانز الثانى ، ٦٤١—٦٦٨ م امبراطوراً متفرداً بالسلطة . وقُتل قنسطانز فى صقلية فخلفه ابنه ،

قنسطنطين الرابع ، ٦٦٨— ٦٨٥ م الذى خلفه ابنه ،

جستنيان الثانى ، ٦٨٥ — ٦٩٥ وعمره ست عشرة سنة . كرهه الشعب لاستبداده وظلمه ، فعزله سـنة ٦٩٥ م قائده فى الشرق لِيونتْيوس ، ونُفِى إلى خرسون .

جستنيان فى المنفى :

ليونتيوس ، ٦٩٥ — ٦٩٨ م أُسقِط عن العرش حين ثار بحارةُ الأسطول فى كريت ، ونصّبوا نائبَ أميرال البحر أبسيمار *Apsimar* ، فأصبح هذا امبراطوراً باسم

طيباريوس الثـالث ٦٩٨ — ٧٠٥ م ، غير أن جستنيان استطاع فى سنة ٧٠٥ م أن يعود بمساعدة الزعيم البلغارى تِرْبل *Terbel* .

جستنيان الثانى ٧٠٥ — ٧١١ م . ثارت خرسون خوفاً من طغيان جستنيان بقيادة ضابط أرمنى اسمه فيليپكوس باردانس *Philippicus Bardanes* ، وانضم إليها الخزر فى ثورتها ، ثم أرسل إلى خرسون أسطول انحاز إلى جانب الثائرين . وتخلى رجال الجيش عن جستنيان الثانى ثم قتلوه .

تدهور القوة الامبراطورية :

باردانس ، ٧١١ — ٧١٣ م . أدى عدم نجاحه إلى تنصيب وزير الدولة المدنى ،

أناستاسيوس الثانى ، ٧١٣ — ٧١٦ م . ولكن محاولته فى سبيل إعادة النظام فى الجيش أغْرَتْ فرق الولاية الثغرية ، (انظر الفصل الثامن) — ولاية أوپسكيون *Opsikion* — أن تنادى بموظف مغمور من موظفى الولايات امبراطوراً وذلك هو

ثيودوسيوس الثالث ٧١٦ — ٧١٧ . ولكن الخلاص جاء بتولى ولاية الأناضول الثغرية المدعو ليو الإيسَورى (أو الإيزورى *Leo the Isaurian* كما يسمى عادة) .

الفترة الثالثة

٦١٠ — ٧١٧ م

أبحر هرقل من إفريقية ، حيث كان العنصر اللاتينى أقوى من غيره ، لكى يخلص الإمبراطورية الرومانية . وقد كانت السَّفْرة فى نظره عملا دينيا ، ولا عجب فقد كانت للدين طيلة حكمه المنزلة الأولى . وكانت الكنيسة تعضده بحرارة فى حربه لعبَّاد النار ، تلك الحرب التى توغل فيها إلى قلب فارس . و بعد ست سنوات من الحملات المتتالية أحرز نصرا مُؤَزّراً كاملا . ولكن صحته كانت قد تداعت ، وكان الجدب فى تلك الأثناء قد أخذ يسوق القبائل العربية التى وحّدتها لأول مرة فى حياتها ، عقيدة مشتركة ، و يبعثها من الجزيرة نحو الأراضى الخصبة . وانتزعت جيوش المسلمين فلسطين وسوريا من جسم الإمبراطورية ، و بعد سنوات قليلة فقدت الإمبراطورية مصر أيضاً . تلك كانت لحظة مهمة فى التاريخ البيزنطى ، فإن الجزء الذى بقيت روما تحتفظ به كان موئلَ الأرثوذكسية ، بينما كانت البلاد التى فقدتها مثابة المونوفيزية ، ولم تعد الكنيسة الشرقية فى حاجة إلى أن تسترضى أهل المذاهب المخالفة . و بهذا أصبحت الدولة أرثوذكسية كنيسة

ودولة ، وارتبطت الدولة والكنيسة من الآن فصاعدا ، وأصبحتا وحدة لا تتجزأ .

وبهذا غلبت على شرق البحر الأبيض المتوسط حوالى منتصف القرن السابع تلك الخصائص التى ستغلب على سير التاريخ البيزنطى . فقد اعترف الصقالبة ، بعد أن تحرروا من أسيادهم الآفار ، بسيادة الإمبراطورية ، واكتسحوا ولايات الدانوب متوغلين فى يونان ، شاقين طريقهم إلى جزر إيجه . ووقع أكثر إيطاليا فى أيدى اللومبارد ، وأصبح البابا فى العاصمة القديمة قادراً على أن يحل محل الأباطرة الذين لم يعد لهم هناك وجود . ومع أن قنسطانز حاول أن يجعل من جنوبى إيطاليا وصقلية حصنا قويا لصد تقدم العرب فى الغرب ، إلا أن خلفاءه لم ينهجوا نهجه فى هذا السبيل . لقد أصبح قلب الإمبراطورية فى آسيا — فى بلاد تتكلم اليونانية . وقد زالت العداوة بين فارس والقسطنطينية ، تلك العداوة التى ورثتها القسطنطينية من روما القديمة ، لتحل محلها عداوة الإسلام التى بقيت ما بقيت الإمبراطورية . ومن هنا يبدأ التاريخ البيزنطى متميزاً مستقلا .

ويرجع ما أحرزته أسرة هرقل من مجد إلى أنها تلقت أوّل ضربات الغزو العربى ، وأوقفته جنوب سلسلة طوروس . فلما

توجه العدو بهمته إلى البحر صدّت العاصمة كل هجماته . ولم تمض سنة فى الفترة بين ٦٧٣ — ٦٧٧ م دون أن يبحر معاوية من قاعدته البحرية فى قيزيقوس *Cyzicus* [(١)]، وكان يعود فى كل سنة مغلوباً على أمره حتى اضطر إلى عقد صلح سنة ٦٧٨ م . وقد سقطت ولاية إفريقية فى أيدى المسلمين سنة ٦٩٧ ، وأسس إِسْبِرِخْ *Isperich* مملكة بلغارية بين الدانوب والبلقان ؛ ولكن القسطنطينية ظلت صامدة تحمى أوروبا ، وتحفظ المدينة وراء أسوارها . وفى تلك الفوضى التى تلت سقوط الأسرة الهرقلية بدا كأن الحصن المنيع يكاد ينهار ، ولكن التخاذل طرح جانباً — مرة أخرى — وتولت دفة الدولة المهددة يد قوية .

الفترة الرابعة

٧١٧ — ٨٦٧ ب . م

الأسرة الإيسورية (الإلايقونيون) ٧١٧ — ٨٠٢ م

ليو الثالث ، ٧١٧ — ٧٤١ ، خلفه ابنه ،

قنسطنطين الخامس ، ٧٤١ — ٧٧٥ م . خلفه على العرش ابنه

(١) تقول المصادر العربية إن الأسطول العربى احتل جزيرة تسمى أرواد قرب القسطنطينية سنة ٥٤ هـ بقيادة جنادة بن أبي أمية . وهذا ينطبق على ماتسميه المصادر الأجنبية جزيرة قزيقوس الواقعة على بحر مرمرة شمال آسيا الصغرى .

ليو الرابع ، ٧٧٥ — ٧٨٠ م . تولت أرملته إيريني *Irene* أمر الحكومة بعد وفاته وصيّة على ابنها الصغير ،

قنسطنطين السادس ، ٧٨٠ — ٧٩٧ م . ومع أن الجنود أجبروها أن تتنازل عن الحكم سنة ٧٩٠ م ، إلا أن قنسطنطين أعادها إلى الحكم سنة ٧٩١ م . وفى سنة ٧٩٧ م خلعت ابنها وسَمَلتْ عينيه ، وأصبحت إمبراطورة بلا شريك فى الحكم .

إيريني ٧٩٧ — ٨٠٢ م . خلعت عن العرش بمؤامرة دبرها ضدّها الموظفون الكبار سنة ٨٠٢ وخلفها صاحب خزينة الامبراطوريّة نقفور .

نهاية الأسرة الايسورية :

نقفور *Nicephorus* ، ٨٠٢ — ٨١١ م . سقط وهو يقاتل البلغار . أما ابنه ،

ستوراكيوس *Stauracius* ، ٨١١ م ، فقد نجا من المعركة بجرح بليغ . وعيَّنَ امبراطوراً حماه ،

ميخائيل الأول ، ٨١١ — ٨١٣ م . كان انكساره أمام جموع البلغار على الأرجح بسبب خيانة القائد الأرمنى الذى خلعه واعتلى العرش باسم ،

ليو الخامس ، ٨١٣ — ٨٢٠ م . قتيل ليو عند المذبح

سنة ٨٢٠ م . فولى الأمر رجل جاف من أبناء الولايات أصله من عَمُّورِيَة فى فريجيا العليا . وكان حينئذ قائدا للحرس .

الأسرة الفريجية ٨٢٠ — ٨٦٧ م :

ميخائيل الثـانى ، ٨٢٠ — ٨٢٩ م . خلفه ابنه المثقف ،

ثيوفيلوس ، ٨٢٩ — ٨٤٢ . تسلمت أرملته ثيودورا الحـكم بعد وفاته وصية على ابنها الصغير ،

ميخائيل الثالث ٨٤٢ — ٨٦٧ م . كان من المقربين إليه باسيل المقـدونى . وقد قضى هذا برغبة من الامبراطور على قيصر بَرْداس *Cæsar Bardas* أخى ثيودورا ، ذى الحول والطول سنة ٨٦٦ م ، وأصبح قيصرا فى تلك السنة ثم تـكفل بقتل الإمبراطور .

الفترة الرابعة

٧١٧ — ٨٦٧م

فى السنة الأولى من حكم ليو بدأ العرب هجومهم الشديد على القسطنطينية وعسكر مسلمة (بن عبد الملك) أمام المدينة بجيشه البرى فى أغسطس ٧١٧ م . وظهر الأسطول بقيادة سليمان فى سبتمبر . وقد ظل الحصار مستمرا على الرغم من قسوة ذلك الشتاء قسوة شاذة حتى اضطر المهاجمون المغلوبون على أمرهم أن يفكوا الحصار فى أغسطس ٧١٨ م . ولم تقع أوربا مرة أخرى

فى خطر ساحق كهذا من جراء هجمات العرب . ذلك أن الأزمة العصيبة وجدت لها الرجل القادر على الصمود لها .

ولا ينسى مؤرخو الكنيسة مع ذلك أن ليو كان أول محطمى الصور (انظر الفصل الخامس) كما أن أصحاب « المُدَوَّنات » من الرهبان لم يصفحوا عنه أو عن خلفائه . ولكنهم — مع ذلك — لا يستطيعون أن يتجاهلوا أن كثيرين من محطمى الصور كسبوا حب رعاياهم فضلا عن احترامهم . وقد بقى النزاع أكثر من مائة سنة ، فأعادت إيرينى الصور المقدسة مؤقتاً . ويرجع الفضل فى إحراز النصر النهائى لعبّاد الصور ٨٤٣ م لامبراطورة أخرى هى ثيودورا ، التى كانت وصية على ميخائيل الثالث . وهكذا تعلق النصر فى هذه الخصومة بلواء الرهبان والنساء . ولكن التاريخ اليوم قادر على أن يحكم على أهداف محطمى الصور وعلى جهودهم حكما أقل ميلا إلى الهوى عن ذى قبل . فنحن نرى اليوم أنهم خدموا روما جهد طاقتهم . فحمى ليو أوروبا ، وتغلب قنسطنطين الخامس على البلغار ، وأصلح نقفور مالية الدولة ، وحاول ثيوفيلوس أن يشيع العدالة بين الناس . وربما استطعنا أن نعتبر الفن المعمارى الذى نشأ على أيدى محطمى الصور أساساً قام عليه جاه الأباطرة الذاهبين ؛ وربما وجدنا فى تصاويرهم تصويراً للذائذ الإنسانية

والأبهة الدنيوية . ولـكن ينبغى علينا أن نحتاط فلا نفسر عداءهم للصور المقدسة بأنه كان ناشئاً عن كراهية للفن نفسه . و بالاختصار ، لقد أولى محطمو الصور الإمبراطورية تنظيما مدنياً وعسكرياً (انظر الفصل السابع) وجعلوا القانون الرومانى يسد حاجات عصرهم حين نزلوا على حكم العادة والعرف (انظر الفصل الحادى عشر) و بذلوا كل ما فى وسعهم ليكبحوا من جماح الخرافات ، وليخلِّصوا السلطة المدنية من سلطان الرهبان ذوى الأفق الضيّق ، على الرغم من إخلاصهم وتفانيهم (انظر الفصل الخامس) و ينبغى أن يرفض التاريخ ما زعمه الرهبان فى مدوَّناتهم بهذا الصدد .

الفترة الخامسة

٨٦٧ — ١٠٥٧ م

الأسرة المقدونية :

باسيل الأول ، ٨٦٧ — ٨٨٦ م خلفه إبناه

ليو السادس ، ٨٨٦ — ٩١٢ } مع أن أبوّته لليو السادس
والاسكندر ، ٨٨٦ — ٩١٣ } مشكوك فيها . ولم يحكم

الاسكندر — شريكه الإسمى — فعلاً لأنه وهب نفسه للذائذ .

ولـكنه أصبح وصياً على ابن ليو مدة سنة واحدة بعد وفاة الأخير .

قنسطنطين السابع(پورفيرو جينيتوس *Porphyrogenitus*) ٩١٢ — ٩٥٩ . وقد نصَّبَ زوج أمـــه رومانُسَ الأول (ليكاپينوس *Lecapenus*) إمبراطورا معه .

رومانُس الأول ، ٩١٩ — ٩٤٤ . ولـكن أبناء رومانس ساعدوا على عزل أبيهم سنة ٩٤٤ م فخلف قنسطنطين السابع ابنه ،

رومانس الثانى ، ٩٥٩ — ٩٦٣ الذى حكمت بعده أرملته ثيوفانو وصيّة على طفليه :

باسيل الثانى ، ٩٦٣ — ١٠٢٥ م .

قنسطنطين الثـامن ، ٩٦٣ — ١٠٢٥ م والمتفرد بالعرش من ١٠٢٥ — ١٠٢٧ م . وفى سنة ٩٦٣ م تزوّجت ثيوفانو من نقفور فوقاس الذى حكم باسم ،

نقفور الثانى ، ٩٦٣ — ٩٦٩ م حتى تآمر عليه الضباط وعزلوه عن الحـكم فخلفه ،

يوحنا الأول تسيمسكيس *John I Tzimiskes* ٩٦٩ـ٩٧٦م الذى حبس ثيوفانو فى دير . ولما مات قنسطنطين الثامن ١٠٢٨م لم يعقب ذكوراً بل ترك ثلاث بنات هن : ايدوكسيا *Eudoxia*

الراهبة ، وثيودورا التي لم يكن لها رغبة في الزواج ، وزُوِي Zoe ، وطلّق رومانس ، عضو مجلس الشيوخ ، عملاً بشروط وصيّة قنسطنطين الثامن ، امرأته ، وتزوج من زُوى ، وأصبح امبراطوراً باسم

رومانس الثالث ، ١٠٢٨ — ١٠٣٤ م . وبعد وفاته تزوجت زُوى من عشيقها البَفْلاجوني — ميخائيل — الذى ارتقى إلى العرش باسم

ميخائيل الرابع ، ١٠٣٤ — ١٠٤١ م . وأصبح ابنُ أخته ميخائيل قيصراً . وحين توفى ميخائيل الرابع جعلته زُوى امبراطوراً باسم

ميخائيل الخامس ، ١٠٤١ — ١٠٤٢ . ولما سجن التي أولته جميلا ، ثار عليه أهل القسطنطينية ونادوا بالأميرتين الباسيليتين زُوى وثيودورا سنة ١٠٤١ ، حاكمتين . وقبل أن يمضى على ذلك شهران تزوجت زُوى — وكانت قد بلغت من العمر اثنتين وستين — مرة أخرى ، ومَنَحت التاج بيدها لقريبها

قنسطنطين التاسع مُنوماخوس ، ١٠٤٢ — ١٠٥٤ ، وتوفيت هى سنة ١٠٥٠ . ولما توفى قنسطنطين تفردت بالحكم ثيودور

آخر الأميرات اللائى « وُلدن فى الأرجوان »

ثيودورا ١٠٥٤ — ١٠٥٦ . رشحت قبل وفاتها القائد ، عضو مجلس الشيوخ ،

ميخائيل ستراتيوتيكوس *Michael Stratiotikos* امبراطوراً ١٠٥٦ — ١٠٥٧ م .

الفترة الخامسة

٨٦٧ — ١٠٥٧ م

فى سنة ٨٠٠ م توج البابا شرلمان فى روما . ومنذ ذلك التاريخ أصبح هناك امبراطوريتان مسيحيتان . ومع أن امبراطور الغرب كان يرغب على الأرجح أن يعيش فى وئام مع أخيه امبراطور روما الشرقية ، إلا أن عاملا جديداً بالغ الأهمية كان قد أُدخل فى السياسة الأوربية — كان للغرب رئيس دنيوى ، ورئيس دينى ، وهما البابا والامبراطور ؛ فاتحدا ضد الامبراطور والبطريق ، وأخذ يزداد شعور الشرق والغرب بأنهما عالمان منفصلان ؛ واستطاع فوتيوس *Photius* بطريق القسطنطينية أن يجعل من نفسه أعظم شخصيّة خلال عصر محطمى الصور وعصر الأسرة المقدونية . وكان شخصيّة قديرة ، لم يقف أثرها عند

إيقاع الانشقاق بين روما القديمة والجديدة ، ولكنه وضع أسس الاختلاف التي كانت سببا في الانقسام النهائي ١٥٠٤ م[١] . وكانت أوروبا في هذه القرون جاهدة دائبة . ويستطيع الناظر أن يرى أن شقة الخلاف بين الشرق والغرب كانت تزداد اتساعا خلال ذلك العصر بالرغم من كل شيء . وخاض صقالبة الغرب في ذلك الكفاح الذي قام به الصقالبة المتنصرون ليحتفظوا لأنفسهم بمراسيم دينهم القويم معركة خاسرة . فقد انتصرت الكنيسة الرومانية بطقوسها اللاتينية ، بينما انحازت بلغاريا النصرانية — بعد تردد قصير — إلى الجانب الشرقي (انظر الفصل الرابع عشر) . ولم يعد الشرق والغرب يتصلان إلا بطريق السفراء -- وقلما حدث ذلك . فانقطعت روابط الحياة المشتركة بينهما . وأصبح البلاط البيزنطي يجعل للعالم الصقلبي المكان الأول من الأهمّيّة . أما ما يقع خلف مملكة البلغار من ناحية الغرب ، فقد كانت بلادا لا يصل إليها مدى بصره . وكان قنسطنطين الذي ولد في المهد الأرجواني يسمى أمراء باقاريا

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى حادث انفصال الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية عن الكنيسة الغربية الكاثوليكية انفصالا تاما على يد كيرولاريوس *Cerularius* بطريق القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ، حين أعلن أن الكنيسة البيزنطية لا ترتبط بشيء من علاقات التبعية والخضوع للبابوية في روما .

وسكسونيا حكاما على ما يسمى بلاد النيمتز *Nemitz* — وهو الاسم الذى كان يطلقه الصقالبة والمجر على الجرمان .

ويعتبر النصف الثانى من القرن التاسع فترة عودة إلى القديم . فقد كان محطمو الصور مجدّدين مبتدعين فى حين عملت هذه الأسرة على جمع ما يمكن حفظه من تراث روما . واكتسبت من ذلك التراث قوة جديدة . كما أُعيد قانون جستنيان . فالمعرفة قوة . ولذلك جمع قسطنطين السابع — الإمبراطور الموسوعى — القوانين التى قامت عليها عظمة روما ورتبها . وكان جهاد الأبطال الذى واجه به حكام أرمينية البغريون *Bagratid* قوى الإسلام ، قد مهد الطريق (أمام حكام القسطنطينية) . فلما تولى الحكم حكام عسكريون بالطبع من أمثال نقفور فوقاس ويوحنا تسيمسكيس ، حدث أكبر تقدم ملموس . إذ انتزعت سوريا والجزيرة العراقية من أيدى المسلمين ، حتى لقد استرجعت انطاكية نفسها ، ووصلت الإمبراطوريّة البيزنطية إلى أبعد حدودها . ثم إن باسيل الثانى ، الذى قاتل البلغار فى حرب طويلة الأمد هدم أركان المملكة التى بناها التزار صمويل العظيم من قبل . وفى سنة ١٠١٤ م سملت أعين خمسة عشر ألف بلغارى إلا مائة وخمسين ، أبقى على عين واحدة لكل منهم ليعودوا بجماعتهم إلى

وطنهم . وعُمّد ڤلاديمير أمير كييف ، و بدأ تنصير روسيا .

فلما توفى باسيل أخذت عظمة روما تتقهقر ، وأخذت الدولة تحارب قوة المقاطعات الأرستقراطية ، وتحارب كنيسة كانت دائبة على اقتطاع الأرض لأديرتها ، والحصول على إعفاء تام لهذه الأرض من دفع الضرائب . ولكن جهود الدولة ذهبت دون جدوى . وأخذت البطانة فى البلاط تجاهد المحافظة على قوتها ضد نبلاء آسيا العسكريين بالتقليل من قوة الجيش ، مما أدى إلى إضعاف قوة روما[1] الدفاعيّة . ولذلك يصطبغ التاريخ الداخلى للإمبراطوريّة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بصبغة الكفاح بين العاصمة وأشراف الولايات .

الفترة السادسة

١٠٥٧ — ١٢٠٤ ب . م .

إن العواطف التى كانت تؤيد البيت المقدونى ماتت بموت ثيودورا ، وقد أسقط النبلاء العسكريون مرشحها ودعوا لِ :

اسحاق كومنينوس ، ١٠٥٧ — ١٠٥٩ م . تنازل عن العرش حين أنهكته المهمة الشاقة ورشح للإمبراطوريّة مدير المالية ،

(١) نلاحظ هنا أن المؤلف يسمى القسطنطينية روما فى بعض الأحيان

قنسطنطين العاشر دوكاس ، ١٠٥٩ — ١٠٦٧ م . و بعد وفاته تزوجت أرملته إيدوكيا *Eudokia* من القائد ،

رومانس الرابع ديوجينيس ، ١٠٦٧ — ١٠٧١ م ، الذى أنزله عن عرشه بعد انكساره أمام السلاجقة الأتراك فى معركة منزيكرت (ملاذكرد) سنة ١٠٧١ م ابن ايدوكيا بالتبنى ،

ميخائيل السابع دوكاس ، ١٠٧١ — ١٠٧٨ . فقد قام الشعب بثورة عليه فأنزله عن العرش وخلفه ،

نقفور الثالث بوتانتياتيس *Nicephorus III Botantiates* ، ١٠٧٨ — ١٠٨١ م . أنزله عن عرشه جماعات الجنود الثائرة ، ونصّبت على العرش الكسيوس كومنينوس *Alexius Comnenus*.

أسرة كومنينوس

ألكسيوس كومنينوس (ابن أخ إسحاق الأول) ١٠٨١ — ١١١٨ م . افتتح عهدا من التنظيم والإصلاح . وخلفه ابنه ،

يوحنا الثانى ، ١١١٨ — ١١٤٣ م فخلفه بعد وفاته ابنه ،

مانويل ، ١١٤٣ — ١١٨٠ م الذى خلفه طفله ،

أليكسيوس الثانى ، ١١٨٠ — ١١٨٣م ، فقامت الإمبراطورة مارية وأليكسيوس (ابن عم الإمبراطور) بالحكم . وفى سنة ١١٨٣ م جُعل أندرو نيكوس كومنينوس (ابن أخ يوحنا الثانى) شريكا لأليكسيوس الثانى . فخنق ألكسيوس فى السنة التالية .

أندرونيكوس ، ١١٨٣ — ١١٨٥ م . عزله عن العرش

اسحاق الثانى ، ١١٨٥ — ١١٩٥ م . رأس أسرة إنجيلى النبيلة . أنزله عن عرشه أخوه

ألكسيوس الثالث ، ١١٩٥ — ١٢٠٣ . ولكن الصليبيين أرجعوا

إسحاق الثانى } ١٢٠٣ — ١٢٠٤ ، وبقيا حتى عزلا
وألكسيوس الرابع } عندما احتُلت القسطنطينية ١٢٠٤ .

الفترة السادسة

١٠٥٧ — ١٢٠٤ م

ليس فى طوق كاتب هذه السطور أن يجمل تاريخ هذه الفترة فى فقرة واحدة . إذ لا معدى لنا عن ذكر بعض المشاكل

فيها . كان العامل الجديد فى الوضع الخارجي هو ظهور السلاجقة الأتراك المتبربرين . فهم الذين هزموا روما الشرقية فى منزيكرت (ملاذكرد) ١٠٧١ م هزيمة منكرة لم تستجمع الإمبراطورية قواها بعدها . وأصبح من الصعوبة بمكان أن تستبقى الإمبراطورية قواها بينما مواردها تتناقص ، واستولى العدو على كثير من مناطقها ، أو نهبتها جماعاته . وعندئذ أخذت الامبراطورية تعتمد فى حماية نفسها بحراً على أسطول البندقيّة . وقد اشترت مساعدة البندقية بامتيازات تجاريّة ضارة (انظر فصل ١٣) . و بينما كانت الأحزاب المدنية والعسكرية تتنازع السيادة داخل الإمبراطوريّة ، كانت قوى الغرب فى الحملات الصليبية تجذبها أبهة الأباطرة البيزنطيين ، وتستفزها سياستهم . وقد كان من الممكن أن يحاول البلاط الشرقى شراء المساعدة المسلحة من الغرب ببذله وعوداً خلابة عن الاتحاد الدينى مع البابويّة ، لولا أن الشعب حميت فى نفسه العداوة للمهاجرين الطليان وللسيادة الغربية . وربما كان أمر شيء على إمبراطوريّة قوية أن تكون فى حاجة إلى الحماية ، ثم أن تكون القوى الوحيدة التى تستطيع حمايتها أبغض شيء إليها . أما رجال الغرب الذين لم يجدوا فى أرض الميعاد سوى

القليل من اللبن والعسل ، ولقى الـكثيرون منهم الموت فى رمال الصحراء ، ورأوا روما الشرقيّة تفوز لنفسها بالأسلاب والغنائم التى كسبتها أيديهم ، فقد أذكى كل هذا فى نفوسهم الشعور بخيبة الرجاء ، وأجّج ذلك فى قلوبهم نيران الـكراهية ، ومن الـكراهية المريرة نشأت مأساة سقوط الإمبراطوريّة . وكل حضارة رفيعة تجتذب نحو نفسها الحضارات التى هى أدنى منها فى المرتبة بطبيعة الحال . ومن هنا يقول عالم محدث : إن الحروب الصليبية كانت فى واقع الأمر صراعاً فى سبيل القسطنطينية . فهل هذا صحيح ؟

الفترة السابعة

١٠٢٤ — ١٤٥٣ م

بعد سقوط المدينة ، أقيمت فى العاصمة إمبراطورية لاتينية . ومع أن أسرة الأشاكرة حكمت فى نيقية من ١٠٢٦ إلى ١٢٦١ فإن الإمبراطوريّة الرومانية لم تَسْتَعد عهدها فى القسطنطينية إلا تحت حكم آل باليولوجوس . ولا نرى من الضرورى أن نذكر سلسلة الأباطرة الذين حكموا من ١٢٦١ — ١٤٥٣ م فى هذا الـكتاب . فإن مملـكتهم اقتصرت على العاصمة والمنطقة المحيطة بها ، بعد أن أحدقت بها المملـكة الصربيّة من الغرب والأتراك

من الشرق ، إلى أن احتلت العاصمة نفسها أخيراً وزالت الإمبراطورية الشرقية من الوجود[١] .

---

(١) إلى هنا وقف المؤلف فى إيجاز التاريخ السياسى للدولة البيزنطية . ولا زال أمام الدولة فيما بين سنتى ١٢٠٤ ، ١٤٥٣ نيف ومائتا سنة مليئة بالحوادث . ولما كان دارس تاريخ الدولة البيزنطية وحضارتها لا يستغنى عن الوقوف على تطورات تاريخ الدولة البيزنطية خلال هذه الفترة الباقية فقد رأينا أن نكمل هذا العرض من الفصل الأول من كتاب شارل ديل : « بيزنطة ، عظمتها واضمحلالها » :

CH. DIEHL : *Byzance*; *Grandeur et Décadence* (Paris, 1919). pp. 1-22

وعنوان هذا الفصل : تطور تاريخ بيزنطة .

Evolution de l'histoire de Byzance

وقد استحسنا أن نوجزه كله حتى يستقيم سياق الكلام . فليراجعه القارئ فى ختام ترجمتنا هذه .

الفصل الرابع

السيادة البيزنطية

الإمبراطورية والبرابرة

« فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان، والبيت الذى بناه ، وطعام مائدته ، ومجلس عبيده ، وموقف خدامه وملابسهم ، وسقاته ومحرقاته التى كان يصعدها فى بيت الرب لم يبق فيها روح بعد ، فقالت للملك : صحيحا كان الخبر الذى سمعته فى أرضى عن أمورك وعن حكمتك . ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناى . فهو ذا النصف لم أخبر به . زدت حكمة وصلاحا على الخبر الذى سمعته . طوبى لرجالك ، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائما ، السامعين حكمتك . ليكن مباركا الرب إلهك ، الذى سر بك وجعلك على كرسى إسرائيل . لأن الرب أحب إسرائيل إلى الأبد ، جعلك ملكا لتجرى حكما وبراً » .

الملوك الأول ، الاصحاح العاشر ٤ — ٩ .

وقد كان هذا الشعور نفسه [الذى ملأ نفس ملكة سبأ] يختلج فى نفوس الأمراء المعاصرين نحو جستنيان ، وكثير غيره من أباطرة روما الشرقية . وقد قدم لنا المؤرخ اليهودى القديم أروع تعليق بين أيدينا على السيادة البيزنطية .

فها هو جورج البيزيدى George of Pisidia [١] يعبر عن عقائد رعايا هرقل بقوله « ما أروعَ الملـكيّة كنظام للحكم حينما يؤيّدها الله » ؛ ومع هذا فالإمبراطور الذى تركزت فى يده جميع السلطات هو خليفة الحاكم الرومانى ، ووريث أكتافيوس المواطن الأول فى الجمهوريّة ، بعد أن أصلح أمرها .

فقد توزعت حقوق الملوك عند ما سقطت الملـكية فى الأيام القديمة من تاريخ روما بين حكام عديدين ، كان لـكل منهم فى أكثر الحالات شريك يقاسمه نفوذه ، وجُعل زمن توليه السلطة قصيرا [٢] . فلما كانت أيام الإمبراطوريّة أُلغِى سلطان (Imperium) كثير من هؤلاء الموظفين الكبار ووضعت سلطاتهم جميعاً فى يد مواطن فرد . وانتهى الأمر ، بعد فترة لم يستقر الناس فيها على رأى ، إلى منح هـذا الحشد من السلطات [إلى فرد واحد] مدى الحياة . فأخذ [هذا الواحد الذى كان يسمى] الأمير (Princeps) على عاتقه قيادة الجيش والإشراف

---

(١) بيزيديا Pisidia : مقاطعة فى داخل آسـيا الصغرى وتقع فى الجنوب .

(٢) يشير المؤلف بهذا إلى نظم الحـكم فى الجمهورية الرومانية التى وزعت السلطان الذى كان بيد الملوك بين رجال يختارهم الشعب . والمعروف أن كل وظيفة من الوظائف الـكبرى فى أنظمة الحـكم الرومانية كان يتولاها اثنان .

على الولايات التى كانت فى حاجة لحماية عسكرية . وفيما عدا ذلك احتفظ حكام الجمهورية بحقوقهم القديمة . و إذا كان أوغسطس قد سعى إلى جعل السناتو شريكا عاملا فى أداة الحكم ، فقد رفض هذا أن يقوم بدوره واضطر الإمبراطور ، على غير رغبة منه ، أن يقوم بوظائف جديدة ؛ و بهذه الطريقة كثرت أعباء الإمبراطور .

وحين اعتزل طيباريوس عمله المنهك ولزم جزيرة كاپرى[1] ، وضح أن العناصر العاملة فى الجمهورية القديمة لم تعد تقوى على مواجهة الضغط المتزايد . وسرعان ما انتشرت الفوضى حين رفض الإمبراطور القيام بهذا العبء الثقيل .

فتكونت فى زمن كلوديوس هيئة إدارية قوامها معتقو الإمبراطور ، فأخذوا يعملون جنباً إلى جنب مع حكام روما القدماء مع أنهم مستقلون عنهم . وأخذ خدم قيصر من رجال حاشيته مكان الهيئة التنفيذية القديمة ؛ ولم يسع الحكومة إلا أن تذعن لهذه الهيئة الإدارية . وحل معتقو الإمبراطور ، فى زمن هدريان ، محل بعض المواطنين من الطبقات المتوسطة (الفرسان) . وهكذا تحولت الجماعة التى كانت تقوم بشئون القيصر البيتية إلى فروع من الخدمة المدنية لروما كلها . وانتهى الأمر

(١) جزيرة كاپرى *Capri* : وتقع غير بعيد من ساحل إقليم كامبانيا فى إيطاليا عند مدخل خليج نُبتيولى .

بالسناتو ، الذى كان قد صار تدريجاً وكأنه شريك نائم منذ نشأ حكم الفرد ، إلى أن يكون فى مكان شريك محدود السلطان . إذ لم تعد له أية سيطرة فعلية على سياسة الدولة . وحينما حاول استعادة امتيازاته مُنى بالفشل . فأبعد جاليانوس أعضاء مجلس الشيوخ عن الجيش ، وأقصاهم دقليديانوس عن إدارة الولايات ، وانتصرت الطبقات المتوسطة على الارستقراطية . وحينما استعاد دقليديانوس السلطة الإمبراطورية ، واستطاع بيت قنسطنطين أن يفتح باب الحكم لكل من كانت فيه كفاءة من أهل الامبراطورية ، فقد مجلس الشيوخ ما يجعله فى مركز المنافس للإمبراطور ، وأصبح فى استطاعة الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ على السواء أن يدخلوا فى خدمة السيد الفرد الذى يقبض على زمام السلطة جميعها .

وقد مر بنا فى الفصل الأول كيف كانت الإدارة المدنية مفصولة عن العسكرية فصلا تاما . ولكن الإمبراطور جمع فى شخصه شِقَّى السلطان . ولم تعد جمعيات الشعب التشريعية القديمة تعقد اجتماعاتها . فحينما اختار الناس امبراطورا ، كان معنى ذلك أنهم تنازلوا له عن حقوق سيادتهم الموروثة ، لأن ذلك الإمبراطور الذى انتخبوه أصبح مصدر التشريع ، وأصبحت أوامره هى التفسيرات الوحيدة لتشريعاته .

ولما كانت جميع الأمور، المقدس منها وغير المقدس ، فى أيام الجمهورية تخضع لسيطرة الحكام — لأن القسيس لم يكن إلا مستشارا فى المسائل الدينية فقط — فقد بُعثت هذه النظرية إلى الحياة فى روما الجديدة : فما دام الإمبراطور الرئيس الدينى الأول فهو رئيس الكنيسة وحامى حمى الدين .

وعلى الرغم من أن مخاوف جراتيان *Gratian* حالت دون قبوله لقب « بونتيفيكس ما كسيموس » *Pontifex Maximus* أى [الرئيس الدينى الأعلى] لأنه لقب وثنى ، وقنع بأن يكون إمبراطوراً مسيحيا ، إلا أن الشعب أصر على أن يحمل الإمبرطور المسيحى عبء العناية بروحه وجسده معاً : ولم تقتصر العناية فى هذه الظروف الجديدة على المواطن فحسب ، بل ظلت جزءًا من سياسة الدولة (انظر الفصل الخامس) . فالامبراطور من البداية أكثر من إنسان مجرد — فلم يكن اختيار أكتافيوس لقب أوغسطس إلا لارتباط هذا اللفظ بالألوهية . نعم ، إنه لم يكن فى حياته إلٰها على الرغم من أن أهل بعض الولايات الشرقية أصروا على اعتباره إلٰها ، فقد اعتادوا الخضوع لملوك مؤلهين . ولكنه إذا مات زالت عنه كل عناصر البشرية . وتقرر فى المنشور الذى كان

يصدره السناتو بهذه المناسبة أن إلهًا أولمبيا آخر قد أخذ مكانه في صفوف الخالدين .

فأخذ الإمبراطور المسيحى بدوره ، كما يظهر ، مكانة مشابهة فى جنة الدين الجديد عند موته ؛ وجلس يشارك ابن الإله الحكم فى أماكن سماوية — وإذا كان شبيها للإله فى الحياة فقد أصبح « مقدس الذكرى » فى الآخرة . وعلى الرغم من مثل هذه الآثار من بقايا الفكرة القديمة التى ترد فى خطاب القديس أمبروزيوس *Ambrose* الذى ألقاه على قبر فالينتينيان ، وفى النص المنقوش على قبر ثيودوسيوس الثانى ، فنى استطاعتنا أن نقول إن التقديس حل محل التأليه بصورة عامة

وأضيفت مميزات شرقية جديدة إلى هذه العناصر الموروثة . فقد انتشرت فى القرن الثالث مؤثرات شرقية فى العالم الرومانى وامتزج تصور الفارسى للملكية ، على أنها هبة من الله ، بنظرية الرومانى حول سلطان *Imperium* الحاكم : فخلقت من الإمبراطور إنسانا لا يُدنى منه ، إنساناً مقدساً يسجد الناس له لأنه خليفة إله السماوات على الأرض ، ويتوج رأسه بالتاج الملكى ، ويخلع الناس على كل ما له مساس بشخصه صفة قدسية .

غير أنه من الضرورى أن ندرك أنه حتى هذا التطور يرجع

فى أصوله إلى ماض بعيد ؛ فهو ليس إلا انتصارا لتلك الفكرة التى مال الشرق الهيلينستى من البداية إلى الأخذ بها عن مكانة الإمبراطور ، وهى ذات الفكرة التى لم تناصرها نظرة الأول من قياصرة الرومان . إلا أن دقلديانوس ادعى لنفسه بصراحة تلك الامتيازات التى لم تكن لتمنح سابقاً إلا لمثل كاليجولا أو دُوميتيان *Domitian* . ومن الممكن أن نقول إن ترك الماضى قد ظهر بصورة مبالغ فيها فى التحول الذى طرأ على الإمبراطورية على يدى دقلديانوس وقنسطنطين .

كان ما أوردناه ضروريا على سبيل التقدمة ؛ وما دمنا قد رأينا أن الحكومة الشرقية كانت أوتوقراطية ، فأمامنا سؤالان يواجهاننا فى وقت واحد : ما هو مصدر قوة الحاكم الأوتوقراطى ؟ وما هى القُوى التى جعلت ممارستها أمراً ممكناً ؟

لقد ظل حق الإمبراطور فى العرش يخضع للانتخاب طيلة تاريخ الإمبراطورية . وكان السناتو والجيش ينتخبان الحاكم ، فقد كان الجيش يمارس حقوقه الوراثية فى تنصيب الملوك ؛ وكان الشعب يؤيد ذلك . فكان فى استطاعة مجلس الشيوخ أو الجيش (وكان جزء منه بالفعل يمثل مجموع قوى روما العسكرية) أن يتقدم أحدهما فيعين مرشحاً ، ثم يزكيه الطرف الآخر : أى

أن انتخاب الإمبراطور كان يمر بالأدوار التالية : (١) ينادى مجلس الشيوخ أو الجيش بوضع المرشح « فى وضع دستورى يجعله فى مكان الإمبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعدئذ تثبيت ذلك أو إلغاؤه» . (٢) أن يوافق الطرف الآخر على ذلك ، لأنه يملك الحق ذاته فى الترشيح . (٣) التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى الذى يجتمع عادة فى الهبـدومون *Hebdomon* [١] . (٤) تتويجه بالتاج على يد البطريق الأعلى قائماً بتمثيل المنتخبين لا الـكنيسة . وقد جرت العادة بذلك و إن لم يكن شرطاً أساسياً .

تلك هى الإجراءات التى كان ينص عليها التقليد الدستورى فى منح السلطان لأحد من الناس . لـكنها لا تكفل له سوى لقب بشرى . بيد أن عرش الإمبراطور كان يقوم على أسس أكثر رسوخا ؛ فالإمبراطور صفى الإله ، وقد وقع عليه الاختيار منـذ ولادته لتحقيق إرادة السماء . و إذا فالمرشح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التى

(١) كان تتويج الأباطرة منـذ القرن السابع يجرى فى كنيسة أياصوفيا ، ويحضره أعضاء مجلس الشيوخ (السناتو) وممثلون عن الجيش والشعب الذى كان يهتف للامبراطور داخل الـكنيسة وخارجها . وكان التتويج قبل القرن السابع يجرى فى الهبدومون *Hebdomon* خارج المدينة .
انظر ، RUNCIMAN, *Byzantine Civilization* p. 66 .

اكتسب بها هذا النصر ؛ فنجاحه هو المبرر الوحيد ؛ فتنطمس صفحة ماضيه . وهذا النجاح هو الأساس الذى يلزم الناس بطاعته .

وإذاً فمن الجلى أن الأوتوقراطية كهانة[1] ملكية ، وما الإمبراطور إلا أحد رجال الدين ، حتى إذا قدم ما تلزمه العادة بتقديمه ، استطاع أن يدخل المعبد المقدس ، ويقترب من المذبح حيث لا يسمح لأحد من العلمانيين بالمرور . وفى مُكنته أن يُقبل ستار المذبح ، وأن يتناول بيده الخبز المقدس . وعهدت له العناية الإلهية — كما عهدت لبطرس من قبل فى رعاية أتباع المسيح . ولكى يظهر هذا الجانب من كهانة الإمبراطور فى وضوح أكثر ، أضيف منذ القرن التاسع — على ما يظن — عمل آخر رمزى فى حفل التتويج — ألا وهو أن يقوم البطريق بمسح الإمبراطور بالزيت المقدس ؛ ولم يكن يُعبّر بذلك عن إرادة الدولة بل عن المشيئة الإلهية .

غير أن هذه النظرية [الإلهية] فى أصل الملكية كانت تحمل فى طياتها نتيجة أبعد مدى : فمن يا ترى ذلك الإنسان الذى يحقق مشيئة الإله ؟ لقد اصطفى إله الحرب داود من حظيرة

(١) يصف المؤلف هنا كيف تحول الحاكم الرومانى من حاكم مدنى صرف إلى حاكم مدنى يعتمد على الدين فى تأييد نفوذه . والمعروف أن أباطرة بيزنطة جميعهم كانوا يزعمون لأنفسهم قداسة رجال الدين .

الغنم ، من السير وراء القطيع ليحكم شعبه إسرائيل : وكان الرومانى الشرقى ، وقارئ الأناشيد العبرى ، يدركان أن مصدر الرفعة لا يكون من الشرق ولا من الغرب ولا من الجنوب ، بل إن الحكم لله ، يرفع من يشاء و يذلّ من يشاء — و إذاً فالعرش الإمبراطورى مباح للجميع ، فلاحهم ونبيلهم ، جاهلهم وعالمهم على السّواء . غير أنه اشتُرط فى الإمبراطور أن يكون مسيحياً — وأضيف بعد ذلك أن يكون مسيحياً أرثوذ كسياً . وفيما عدا ذلك يمكن لأحد الناس أن يقع عليه اختيار الله عظيما كان أم حقيراً ، غنياً أم فقيراً .

بيد أنه لم يكن هناك من سبيل دستورى لإسقاط الإمبراطور بعد انتخابه سوى ثورة ناجحة . وهنا أيضا لا يحول اختيار العناية الإلهية له دون أن يعتبر مجرد غاصب فى حالة فشله ؛ فقِدْما تحول يهوفا[١] عن شاؤل ، وخص داود بحبه — أى أنه كف عن مناصرته للحاكم . و إذاً فالثورة تصبح مشروعة ، بل وجزءا من الدستور المعمول به ، فيقول مُمْسن *Mommsen*[٢] :

---

(١) يهوفا *Jehova* : هو الاسم العبرى لإله اليهود .

(٢) مومسن *Mommsen* (١٨١٧ — ١٩٠٣) مؤرخ نقادة ، ومن أعظم من أنجبتهم ألمانيا فى الدراسات التاريخية الكلاسيكية . وهو مؤلف كتاب « تاريخ روما » .

« كانت الحكومة الرومانية أوتوقراطية يخفف من حدتها حق الثورة المشروع » .

بيد أن اختيار الحكام بطريق الانتخاب وحده لم يكن ليضمن للناس سير الأمور سيراً حسناً ما دام اغتصاب العرش مباحاً فى هذه الدولة ولا يعتبره الناس خيانة إلا فى حالة الفشل ، ثم إننا لا ينبغى أن ننسى أن هذا الاغتصاب كان يدعم القوة الإمبراطورية فى بعض الأحيان . ومن ثم عدلت النظرية الرومانية القديمة [فيما يتصل بطريقة اختيار الحاكم الأعلى للدولة] كما يلى : إن تفويض أمور الحكم للإمبراطور يخوله حق تتويج خلف له أثناء حياته . ويظل مستبداً وحده بالسلطان طالما بقى فى قيد الحياة رغم وجود خليفة إلى جواره ، فإذا توفى انتقل السلطان إلى خليفته من تلقاء نفسه ؛ وهكذا فقد المنتخبون حق الانتخاب . ولم يبق أمامهم إلا أن يحيوا الحاكم الجديد [قائلين] « مات الملك ، يحيا الملك ! »

وتتجلى فى الواقع قوة الشعور بالولاء للبيت المالك فى فترات منتظمة من التاريخ البيزنطى ، فهى جلية فيما يكتبه المداحون فى بيت قنسطنطين ؛ وتعود للظهور فى القرن السابع فتبدو فى الولاء لبيت هرقل ، و تتجدد مرة أخرى فى مناصرة سلائل باسيل ،

وفى التأييد الذى لقيه آل كومنين . وقد أتاح هذا الشعور بالولاء للنساء أن يتربعن على العرش الإمبراطورى ، لأن قوانين الدولة البيزنطية لم تكن تنص على ذكورة الحاكم كما هو الحال فى القانون السالى (١) *Salic law* .

ومما تهمنا ملاحظته حقاً أن شعور الناس هذا بالولاء ، لم يمنعهم من أن يتخذوا من الاحتياطات ما هو كفيل بصيانة سلامة الدولة . فحينما ارتقى قنسطنطين السابع إلى العرش ، وكان إمبراطوراً عالماً فى عصر الملوك الباسيليين ، عُيِّن جندى شريكا له ليخوض معارك الإمبراطورية . فقد ظلت روما الجديدة دولة عسكرية ، ولم يكن أباطرتها العظام إلا جنوداً عظاماً .

وكان اللقب اليونانى الأوتوكراتور *Autocrator* (الحاكم المطلق) ، فى نهاية القرن الرابع ، كما قال سينيسيوس *Synesius* (٢)

---

(١) القانون السالى : هو قانون الفرنجة الساليين — *the Salians* وهم فرع الفرنجة الذى أقام الدولتين الميروفنجية والكارولنجية وقد جمع هـذا القانون الملك كلوفس (٤٨١ — ٥١١) وكان ينص فيه على ألا يتولى العرش غير الرجال .

(٢) سينيسيوس *Synesius* : فيلسوف يونانى عاش فى القرن الرابع وأوائل الخامس الميلاديين ، وأصبح أسقفا لمدينة بتوليميس *Ptolemais* وتوفى سنة ٤٣٠ م . وله رسائل ومقالات وأدعية ترجمها فيتزجيرالد للانجليزية .

يمثل اللقب اللاتينى *imperator* ، قائد الجيوش[1] الإمبراطورية . وكان مكان الإمبراطور الحقيقى لا يزال بين جنده . و بالرغم من إصرار الهيئة الحاكمة على أن من واجب الإمبراطور البقاء فى عاصمته لا أن يعرض نفسه للخطر فى ميدان الحرب الدائرة ، فإن الإمبراطور القوى كان يهمل هذا التحذير دائماً ، و يتقدم جيوشه إلى ساحة القتال . ولئن أصغى موريس فى القرن السادس لناصحيه ، فقد استجاب الجيش الرومانى لهرقل ، ووجد الأخير فيه قوة تبعته بمحض إرادتها إلى قلب فارس . ولم يكن نصيب الإمبراطور حين سمح لرئيس دير أن يُملى عليه سياسته العسكرية ، إلا أن أسقطه ليو الأرمنى . فلا مُشاحة فى أن ما يميز حكام الإمبراطورية الشرقية العسكريين هو كفاءتهم كقواد للجيوش .

رأينا إذاً أن الحكومة كانت أوتوقراطية — أى أن جميع السلطة النافذة داخل حدود الإمبراطورية الرومانية جُمعت فى شخص الإمبراطور ، وهو مصدرها الأوحد — إلا أن هذه العبارة لا تعبر تعبيراً كاملا عن رأى الرومانى فى الإمبراطور : فلم يكن الإمبراطور — الملك ، الباسيليوس *Basileus* كما كان

(١) وقد اكتسبت مؤخرا معنى خاصا ، فتستعمل للدلالة على سعة نفوذ سيد على مساعديه الأقل منه مركزا .

يسمّى رسمياً بعد سقوط الإمبراطوريّة الفارسية ، التى كان حاكمها المنازع الوحيد له على هذا اللقب — مجردَ حاكم للولايات الخاضعة لروما . فكما قال المسيح انه وارث هذا العالم ، فعلى نائبه أن يدّعى إدخال العالم فى دائرة ملكه . أليس هو الآخر مخلصاً للعالم ! أليست قوته هى المدبرة له ! إذا ، فهو الحاكم الأعلى ، وله الحق فى السيادة على العالم جميعه . وإذا جاز أن يحكم هذه الأراضى أمير ألمانى أو أن يخضع تلك كافر ، فالألمانى ليس إلا ممثلا لروما . وليس احتلال الكافر لها إلا إلى زمن ، وستعود فى النهاية لمالكها الحقيقى .

ولم يكن الأمر يقف عند هذا الحد ، فإنه لما كانت مملكة الأرض مصاغة على مثال مملكة السماء ، إذا فهى ليست عالمية فحسب ، بل خالدة أيضاً ؛ وليس فى استطاعة بشر أن يقوض دعائمها . أما الأباطرة الفاسدون فليسوا إلا عقاباً إلهياً للناس ، حتى إذا انتهت مدة عقاب البشر ، وتاب أهل البلاد عن خطاياهم ، أشرقت شمس رحمة الله مرة أخرى . وهكذا تصبح الديانة المسيحية مصدراً دائماً لبعث جديد. ذلك ما وعد به جوپتر[1] الرومان

---

(١) جوپتر *Jupiter* : وهو رب الأرباب فى الميثولوجيا الرومانية . وكان له معبد على تل الكابيتول فى روما . وهو يقابل زيوس *Zeus* فى الميثولوجيا اليونانية .

إنى لا أضع لهؤلاء زمنا ولا مخاوف
لقد أعطيتهم الحكم إلى ما لا نهاية .

ولقد أيّد ذلك مَنْ هو أعظم من جوبتر ؛ وما كان فى أول الأمر طموحاً سياسياً فحسب ، استحال الآن إلى عقيدة دينية .

وإذا كان الأمر كذلك ، فما هى القيود العملية والنظرية التى تحد من ادعاء الأباطرة السيطرة على الكون ؟

لنبدأ بالحقيقه التالية : بالرغم من أن الإمبراطور هو المشرع الأعلى ، وبالرغم من أنه لا يسأل عما يفعل ، فقد كان عليه لهذا السبب ذاته أن يُلزم نفسه بمراعاة القوانين ، وذلك ما نصح به أجابيتوسُ الشماس لجستنيان ؛ وقبل باسيل الأول هذا الإلزام . ولا ننسى أولئك الذين كانوا يحيطون بالإمبراطور ، فهم رجال فقهوا التقاليد المحافظة — تقاليد هيئة الحكم الشديدة التعقيد : وقد أصبح السناتو — إذا استثنينا ممارسته لسلطته القديمة فى تنصيب الملوك — مجلسَ حكام يفضلون السبل المطروقة . وحينما وُفق بروكلوس *Proclus* إلى صرف الإمبراطور أناستاسيوس عن تبنى ابن الملك الفارسى بدأ نصحه قائلا : « لم يسبق لى أن تعلمت كيف أروض نفسى على قبول البدع ، بل أخافها أكثر مما أخاف أى شىء آخر ، فإنى على يقين تام من أن السلامة لا تتحقق إذا أقر الناس المبتدعات الجديدة » . ومن المؤكد أن

التاريخ البيزنطى لم يعدم كثيرين مثل پروكلوس ، وجد الأباطرة من الحكمة أن يأخذوا بنصحهم .

وقد كان سكان العاصمة أيضا إلى جانب حرس المدينة الرسمى ، حتى القرن السابع على الأقل ، يكونون قوة فعّالة . وكانوا على استعداد للاخلال بالأمن إذا ما فقدوا سيطرتهم على أنفسهم ، وعلى استعداد لتقديم مرشح آخر ينافس صاحب العرش ، ونشر الفوضى عن طريق الحرق والقتل . والظاهر أنه حين خمدت المقاومة الشعبية المنظمة لإدارة الإمبراطور زمن بيت هرقل ، أقام الرهبان أنفسهم نُواباً *(tribunes)* للشعب وحملوا لواء المقاومة ضد الأباطرة ، واستطاعوا أن يعتمدوا على مؤازرة الأتقياء ، وأثبتوا أنهم خصوم أشد خطورة على الإمبراطور من البطريق الذى كان بإمكان الأول أن يعزله . واستطاع الجيش أيضا أن يوقف بعنف أية إجراءات لا يرى تنفيذها اعتماداً منه على قوته : وذلك ما حدث لموريس فى القرن السادس ، إذ كلفه نظامه العسكرى القاسى عرشه وحياته .

إلا أن هناك قيداً آخر أعمق مما ذكرناه ؛ ذلك هو تأثير خفى لتقليد يفترض فى الحكام « حب الإنسانية » *Philanthropia* وهو تعبير عسير الترجمة ، ولكنه يعبر عن فكرة الناس طيلة

قرن من الزمن عما كان يتحتم على الإمبراطور من إسداء خدمات إنسانية جلى لشعبه — وهى فكرة لم تزل تحمل رأى الرومانى فى معنى الوظيفة ، فهو يفرض على صاحبها حقوقاً أدبية للشعب ، ولا ينظر إليها كما لو كانت مركزاً يمنح صاحبه امتيازاً شخصياً . وإذا اقتصرنا على ذكر ثيمستيوس (القرن الرابع) وأجابيتوس (القرن السادس) وجورج البيزيدى (القرن السابع) نلحظ هناك تشدداً فيما كان يجب على الإمبراطور من إبداء الحب الإنسانى لشعبه . ولقد كان هذا المثل الأعلى ، فى الواقع ، قوة تكبح جماح الإمبراطور .

وأخيراً ، كان المُنتخِبون ، قبل أن يوافقوا على منح أحد السلطة الإمبراطورية ، يستخلصون منه وعداً صريحاً بمراعاة ذلك . فقد طالب مجلس الشيوخ أناستاسيوس الأول أن يقسم على أن يستوحى أحكامه فى الإمبراطورية من ضميره ، وألا يقتص من أحد سبق له أن خاصمه ، وأن يوقع قسما كتابياً — إذا طلب إليه البطريق ذلك فى حالة الاشتباه بأرثوذكسيته — يعد فيه ألا يدخل بدعة جديدة فى الكنيسة . ومع مضى الزمن ، ولا ندرى التاريخ الحقيقى ، أخذ الإمبراطور عند تتويجه يقسم قسماً رسمياً ، يبدأ بالاعتراف بالعقيدة الأرثوذكسية ، ويتضمن

توكيداً منه لمنشورات بطارقة العالم السبعة ومجالس محلية أخرى ، وحقوق الكنيسة وامتيازاتها ، ثم يتقدم الإمبراطور ، و يعد بأن يظل خادماً مخلصاً للكنيسة المقدسة ، وابناً باراً بها وحامياً لها . و يأخذ عهداً على نفسه بأن يظل إنسانياً فى حكمه لشعبه ، عادلا بينهم . وأن يتجنب توقيع عقوبات التنكيل بالناس أو الحكم بالإعدام ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وصيغة القسم من الأهمية بحيث توقفنا على ما كان يتطلبه البيزنطيون من حاكمهم .

بيد أن الإمبراطور كان محاطاً بهيئة بلاط ضخمة ، وكانت أعماله داخل قصره تخضع فى توجيهها لطقوس البلاط الصارمة . و بما أن لائحة هذه الطقوس كانت جزءًا من سياسة الحكومة البيزنطية ، فلنختم هذا الفصل ببحث مختصر فى الديبلوماسية البيزنطية .

ليس فى أيدينا بحث بيزنطى نموذجى يضارع مقال المراسم *"De Cermoniis"* الذى بسط فيه قنسطنطين پورفيروجينتوس لولده أسرار قواعد اللياقة فى البلاط الرومانى الشرقى . و إننا لنجد فيه وصفاً دقيقاً مفصلا للأدوار التى تقوم بها كل طبقة من الهيئة الحاكمة الإمبراطورية فى سلسلة الاستقبالات والاحتفالات التى كانت تكون « السنة المسيحية » البيزنطية . فيها ذكر مفصل

للملابس والحركات ومواضعها وأوقاتها ، والكلمات الرسمية التى جعلتها العادة مع مرور الزمن مقدسة . وتقرأ فيها كيف كانوا يلعبون (الألعاب القوطية) فى عيد الميلاد ، فيروحون و يغدون فى رقصهم العجيب وهم مقنعون ، يحملون التروس والرماح وسط جماعات من رجال أحزاب الملعب مقبلين من كل ناحية ، و يتفوهون بكلمات غامضة لا تزال تحير علماء اللغة .

وفى استطاعتنا أن نتتبع هذه المشاهد المرحة المتواصلة فى أيام الإمبراطور فى عيد بروماليا — وهو من بقايا الزمن الوثنى — حيث كان يحتفل بالعيد فى أيام متتالية ، لكل حرف من أحرف الهجاء فيها يوم ، و ينتخب الضيوف بحسب الحروف الأولى من أسمائهم ، وتوزع عليهم هدايا الإمبراطور الجميلة ؛ وكذلك فى حفلات الزواج والميلاد والتعميد والتتويج والنصر والدفن وحداد البلاط ، وفى إقامة طقوس الكنيسة والمواكب العامة .

ولنتصور زعيما بربريا من أحد السهول أو الصحارى وصل إلى البلاط البيزنطى ، ونزل فى ضيافة القصر ، وشاهد عجائب العاصمه فى رعاية موظفى الإمبراطور ؛ كان عليه أن يمثل بين يدى الإمبراطور : تراه يمر فى متاهة من الدهاليز الرخامية ، وغرف

غنية بالفسيفساء والأردية الذهبية ، و بين صفوف حرس القصر الذين يرتدون زياً أبيض واحداً ، يحف به النبلاء والأساقفة والقادة وأعضاء مجلس الشيوخ بينما يعزف أرغن الكنيسة ، تصاحبه فرق المغنين بالكنيسة والخصيان ؛ ثم أخيراً يسجد مأخوذاً بهذه الفخامة التي لا تنتهي . في حضرة الصامت الوقور ، سيد روما الجديدة ، ووريث قنسطنطين ، وهو متربع على عرش القياصرة : وقبل أن يُسمح له بالنهوض ، يرى الإمبراطور والعرش وقد تغيرت حلته التي رآها حين نظر إليه آخر مرة ؛ يراه وهو ينظر إليه كما ينظر الإله إلى أحد البشر . تُرى من ذا الذي يسمع زئير الأسود الذهبية حول العرش ، وتغريد الأطيار ، ثم يستطيع بعد ذلك أن يرفض أوامر الإمبراطور ؟ ! إنه لن يمكث طويلا حتى يشرد ذهنه مفكراً فيما يبعث الزئير من أفواه هذه الأسود الذهبية وفيما يجعل الطيور تغرد ؛ فإذا شرد ذهنه لم يكد يستطيع الإجابة على أسئلة رئيس الديوان المتكلم بالنيابة عن الإمبراطور . إذاً فقدر بجه الإمبراطور إلى جانبه ، وسوف يحارب من أجل المسيح الرومانى وامبراطوريته . وسوف تغدق عليه الامتيازات والهبات والهدايا من أجل وعده بالدفاع عن الحدود ، وربما منح مركزاً رسمياً فى الحكومة فيصبح نبيلا أو قائداً فى

الجيش ، وربما حالفه الحظ فتكون مساعدته ذات قيمة كبيرة للامبراطورية ، فيوعد عندئذ بتزويجه من أميرة بيزنطية ، كما فعل هرقل مع زعيم الخزر ، فيعتنق المسيحية . وسيقوم الإمبراطور نفسه بدور الإشبين عند الحوض المقدس ؛ ومن ثم ينتدب أحد الأساقفة من أتباع بطريق القسطنطينية للاشراف على مصالح الرومان فى بلاده . وفى حالة قيام شعبه و إسقاطهم له ، يسمح له بالالتجاء للإمبراطورية ، ومن ثم قد يعاد إلى مركزه بحراب الرومان . وفى هذه الحالة لا يبقى عند رجال الدولة ريب فى إخلاصه .

ومع أنه لم يكن للإمبراطورية ممثلون دائمون لدى الحكومات الأجنبية ، إلا أن بعثاتها كانت تتوالى فتحفظ تقاريرها فى ديوان الرسائل الإمبراطورية . وهكذا كانت التقارير الواردة مباشرة عن الموارد والأحوال الداخلية للممالك البربرية المجاورة توجه السياسة الرومانية الشرقية ؛ فكل منها توقف الأخرى عند حدها ؛ فترى الخزر يحاربون معارك هرقل ضد الفرس ؛ وفى السنين التالية تراهم يوقفون البشناق عند حدهم ، بينما تواصل الإمبراطورية إمداد الخزر عن طريق مدينة خرسون ، بل يبلغ بها الأمر أن تبتنى لهم ثغر « ساركل » الحربى على بحر آزوف .

وإذا تمرد الخزر فإن قبائل الآلان المقيمة فى القوقاز على استعداد لمهاجمة أرضهم حين يأمر الإمبراطور . وقد قهر اللومبارد والآفار فى القرن السادس الجبيديس ، كما دُعى الروس والبشناق بعد ذلك لمهاجمة البلغار ، ووفقوا فى ذلك توفيقا بعيدا . وهكذا حفظت روما التوازنَ فى القوى بين هذه الشعوب المتاخمة لها من كل جانب .

حقا لقد سقطت روما الشرقية ، غير أن شعائرها ما زالت حيّة : لقد أخذ القسيس مكان الحاكم المدنى : وبينما ينحنى الراهب اليونانى صاغرا أمام بطريق القسطنطينية كما كان يفعل الرجال مع الإمبراطور ، ورث بابا روما هذا المشهد الذى كان يحيط بالحاكم المطلق « الشبيه بالرسل » .

الفصل الخامس

الكنيسة الأرثوذكسية

إن أيدينا عاجزة عن تغيير الحدود التى رسمها آباؤنا : إنما نحن نحافظ على تقاليدنا الموروثة .

ومن أجل هذا ، نسأل عباد الله المؤمنين أن يحافظوا على التقاليد الروحية . فإن فقداننا ما أعطيناه بالتدريج من شأنه أن يقوض الدعائم الأساسية ، وهو آت على البناء بأكمله فى وقت ليس بالقصير .

القديس يوحنا الدمشقى : « عن الصور المقدسة »

لم تكتب الحياة لطقوس روما الشرقية فحسب ، بل احتفظت الكنيسة حتى يومنا هذا بطبيعتها التى اكتسبتها زمن الأباطرة المسيحيين : فآراء هذه الكنيسة فى اللاهوت ، وشعائرها ، وصيغها التى كانت تُلقى أثناء المراسم الدينية ، ولون حياة الرهبنة والتقشف ، وقديسوها وأعيادها ، ذلك كله تراث من أيام البيزنطيين ، لا زالت تبقى على سلامته روح المحافظة التى لا تلين .

ونحن نرى فى هذا المقام ، بصورة واضحة جدا ، أن دراسة المسيحية فى عهودها الأولى أكبر معوان لنا على تفهم أحوال عصرنا الدينية .

رأينا أن الكنيسة التى انتصرت فى عصر قنسطنطين هى الكنيسة التى كانت تقيم طقوسها الدينية قبل ذلك فى الخرائب وبقايا الأبنية القديمة *Catacombs* . ورأينا كذلك أن عاصمة العالم الرومانى ، إذ ذاك ، أصبحت مدينة مسيحية . إلا أن القسطنطينية ظلت فيما يختص بحق التشريع الكنسى تخضع لأسقف[1] هراقلية ، ونجد أن التاريخ الداخلى للكنيسة بعد أن اعترف بها مجلس الشيوخ يكاد يكون سردا لجهاد أسقف القسطنطينية فى سبيل الظفر باستقلاله عن مطران هراقلية من جهة ، وفى سبيل سيطرته على منافسه فى الاسكندرية من جهة أخرى . ولقد خرج بطريق روما الجديدة منتصرا ، وشاركه الإمبراطور هذا النصر : فقد رأس جستنيان الكنيسة كملك كاهن ، وأصبحت عاصمته مركز حياة الكنيسة وتنظيمها ، ومن الضرورى أن نجمل هذا التطور .

تركز فى القسطنطينية ، التى قامت على طراز روما القديمة

(١) إن تأسيس العاصمة الجديدة على يد قنسطنطين أحدث انقلابا فى الإدارة الكنسية لا يقل عن الانقلاب الذى أحدثه فى الإدارة المدنية : فقد كانت بيزنطة حتى ذلك الحين اسقفية صغرى تخضع فيما يتعلق بالتشريع الكنسى لمطران هراقلية ؛ ومن الواضح أن مكانة بيزنطة هذه ، لا تليق بعاصمة العالم المسيحية الجديدة [القسطنطينية] .

انظر RUNCIMAN, *Byzantine Civilization*, p. 109

وأخذت عنها مجلس الشيوخ ، ومحافظ المدينة (منذ ٣٥٩) ، حكم الإمبراطورية المدنى . ووضع نظام الكنيسة فى الولايات الشرقية على غرار نظم الحكم المدنى فيها . واختار القديس بولس ، بعين القائد الماهر ، عواصم فى الولايات لتكون مراكز استراتيجية لغزو العالم باسم المسيح . وكانت هذه هى القلاع التى يجب غزوها بأى ثمن : وهنا التقت الكنيسة على وجه الخصوص وجها لوجه مع مذهب عبادة الإمبراطور ، الذى كان موضع سخط الكنيسة ومقتها . فهنا كان عرش الشيطان . وهكذا كان من الطبيعى أن تنظر جماعات أهل المدن إلى أسقف المدينة كرئيس لها حينما انتشرت الديانة الجديدة . وعند ما غير دقليديانوس[1] تنظيم الولايات المدنى ، عدل النظام الكنسى أيضاً بما يوافق التغيير الجديد . وبذلك توحدت نظم الحكم فى الكنيسة والحكومة فى الشرق .

---

(١) كانت الكنائس الكبرى فى العالم المسيحى قبل أن غير دقليديانوس تنظيم الولايات المدنى هى كنائس عواصم البلاد الواقعة على البحر الأبيض المتوسط الثلاث : وهى روما والاسكندرية وانطاكية ؛ وكان للمدن الأخرى أساقفة ورجال دين تتوقف مكانتهم على أهمية بلدانهم من الناحية المدنية . وحين غير دقليديانوس النظام المدنى ، سارت الكنيسة على النهج الجديد فى نظامها .

و إذا رغبت إحدى الأسقفيات فى تقديم نفسها على غيرها من مثيلاتها نظر الناس فيما إذا كانت قد أُسِّست على يد أحد الرسل . وكان هذا هو المقياس المعترف به فى تقديم الكنائس بعضها على بعض . أما الشرق فقد حاول أن يجد تبريراً لهذا النظام الذى نشأ عن تطور تاريخى طويل ، وانتهى إلى النظرية القائلة بأن أسبقية المدينة فى الميدان الكنسى لا بد أن تقوم على أسبقيتها فى الميدان المدنى : وسعتْ بيزنطة بعد ذلك إلى الانتصار على روما بحجة أخذتها من منطقها (أى منطق روما) الذى يقول بالأسبقية : فإذا كانت روما تقول بأن القديس بطرس هو مؤسسها ، فقد اكتشفت روما الجديدة أن فى مكنتها باعتمادها على تزوير وقتى ، أن تدعى أن القديس أندرياس *Andrew* هو مؤسسها ، وأندرياس هو الذى أحضر بطرس إلى المسيح لأول مرة . غير أن قساوسة المجمع الدينى[1] العالمى الثانى ، الذى عقد فى

(١) المجمع الدينى العالمى *Œcumenical Council* مجمع يرأسه الامبراطور ويدعو الأساقفة من جميع أنحاء العالم التى توجد بها جماعات مسيحية ، أو من ينوب عنهم من رجال الدين ، للاجتماع . وكانت قراراته نافذة فى العالم المسيحى . وقد عقدت سبعة مجامع دينية عالمية : عقد الأول بدعوة من الامبراطور قنسطنطين فى نيقية سنة ٣٢٥ م ، والثانى هو مجمع القسطنطينية ٣٨١ م ، والثالث مجمع افيسوس سنة ٤٣١ م ، والرابع مجمع خلقيدونية ٤٥١ م . والخامس مجمع القسطنطينية الثانى سنة ٥٥٣ ، والسادس =

القسطنطينية ٣٨١ م ، اعترفوا بالنظرية القديمة اعترافاً صريحاً ، وحكموا لأسقفية العاصمة بالمكان الأول فى الكنيسة الشرقية بعد السدة الرسولية فى روما ، « لأن القسطنطينية هى روما الجديدة » وربما تأخر اعتراف روما بادعاء السدة الرسولية[1] الجديدة (بيزنطة) حتى أيام أنسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) ، إلا أن ذلك الاعتراف قرر الأمر إلى الأبد ، وتحررت مدينة الأباطرة من سيطرة هراقلية . وقد طُبق نفس المبدأ فى القرن التاسع ، وتقررت مسألة ولاء بلغاريا للبابا أو البطريق ، (انظر الفصل الرابع عشر)

وقد نشأت الخصومات التالية داخل الكنيسة نتيجة لتصميم أساقفة الإسكندرية على أن يستخدموا تأثيرهم وسيطرتهم فى مقاومة قوة القسطنطينية الناشئة .

وكانت مصر منذ أيام يوليوس قيصر تحتل مكانة شاذة فى الإمبراطورية ، ولم يسبق لها أن كانت عضوا عاملا فى إدارة

= مجمع القسطنطينية الثالث سنة ٦٨٠ ، والسابع مجمع نيقية سنة ٧٨٧ م .
انظر RUNCIMAN, *Greek Civilization*, pp. 114 — 115.
EDWYN BEVAN, *Christianity*, pp. 82 sqq.

(١) لم تقر روما ادعاء القسطنطينية هذا لأنها كانت لا تأمن نتائجه . وقد اعترفت بذلك أثناء احتلال اللاتين للقسطنطينية لأن كنيسة القسطنطينية أصبحت تحت سيطرتها .

الولايات . وكانت الإسكندرية مركزها التجارى والثقافى الوحيد . وكان مطرانها لا ينازعه أحد ، أما معاونو الأساقفة ورجال الدين فقد كانوا لا يتمتعون باستقلال حقيقى . وكانت مصر لا تزال أمة ؛ أما مَلكيتها القديمة فقد أصابها تغير فقط ، وهو أن البطريق ، وهو فرعون روحى ، أصبح وكأنه ملك العاصمة . فهو ممثل الشعب ، ولكلمته فيهم قوة القانون تراه يدعو جيوشه من الشعب والمتنسكين والرهبان فيهرعون من الصحراء العامرة بالنساك حاملين عصيهم ، فهم على استعداد لتلبية أوامره . وكانت الإسكندرية تحارب معركة فى جبهتين . كانت تحاول أن تتحرر من سلطان روما القديمة على التيبر ، وروما الجديدة على البسفور ، مع العلم بأن السياسة كانت تلزمها أحياناً بمحالفة أحد الخصمين . ولو إلى زمن ، لتكفل لنفسها النصر على الآخر . ولا مندوحة لنا من تصوير هذا النزاع تصويراً موجزاً .

قام جاه الإسكندرية فى القرن الرابع على دفاعها عن العقيدة الحقة ضد الاريوسيين الهراطقة . ولما كانت الغاية تبرر الواسطة ، فقد كان المعاصرون على استعداد لأن يغفروا لأثناسيوس ، إذا دعت الحاجة ، كل شىء فى نظير تصديه للدفاع عن العقيدة الأساسية (الأرثوذكسية *Orthodoxy*) . فعند ما خول المجمع فى ٣٨١

لبطريق القسطنطينية حق السيادة ، لم تتوان الإسكندرية فى تحدى ذلك القرار .

لكن القسطنطينية عملت على فوز مصر إلى زمن ؛ ومع أن يوترو بيوس *Eutropius* — حاجب اركاديوس الخصى — حمل على بطريق الإسكندرية بالرغم من انتخاب كريسوستوم *Chrysostom* أسقفاً لروما الجديدة سنة ٣٩٧ ، فإن نقد هذا الرجل الأخلاقى العظيم الصريح أساء إلى الإمبراطورة إيدوكسيا والبلاط ؛ ونجح ثيوفيلوس (ناوفيلوس) بطريق مصر فى نفى منافسه . وذهبت احتجاجات الغرب سدى .

وحينما نشبت المعركة الثانية أصبح كيرلس المنتصر أسقفاً للاسكندرية ، بينما صار نسطوريوس الخبير بأساليب مدرسة انطاكية فى التاريخ والنقد ، بطريقا للقسطنطينية (انتخب ٤٢٨) . واتهم نسطوريوس بتقسيم شخصية المسيح إلى الكلمة المقدسة والمسيح الإنسان . فنجح كيرلس ، مندوب البابا ، فى إدانته وخلعه فى المجمع الدينى الثالث فى افيسوس سنة ٤٣١ . وخضع الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى ، بعد تردد ، لشخصيّة أسقف الإسكندرية الآمرة ، فكان هذا نصراً ثانياً للاسكندرية[١] .

---

(١) لقد حاولت الاسكندرية خلال القرن الخامس أن تحافظ على =

غير أن هذا أزعج روما ، وطلب ليو الأول من خليفة كيرلس وهو ديوسقوروس *Dioscorus* ، أن يخضع لسلطة خليفة بطرس : وكان فى هذا الادعاء تحديد لسياسة البطريق الذى سعى فى عصر لاهوتى ، متذرعاً بالنصر فى أهم حقل — فى مملكة العقيدة — إلى أن يفوز باستقلال كنسى ، وسيادة سياسية فى وقت واحد .

وكان الراهب يوتيخيوس *Eutyches* فى مهاجمته نسطوريوس يقول بأن المسيح لم يكن ذا شخصيّة واحدة فقط ، بل طبيعة واحدة أيضاً ، ولهذا اتهم بالهرطقة . ونجح ديوسقوروس فى مجمع افيسوس سنة ٤٤٩ م ، المسمى بمجمع اللصوص ، فى إدانة فلاڤيان بطريق القسطنطينية ، حامل لواء الاتهام ضد يوتيخيوس وذلك أمام الملأ . وخلف اناتاليوسُ ، أحدُ مشايعى ديوسقوروس

= ذلك النصر الذى أحرزته ، وذلك بفرض لاهوتها الخاص على العالم المسيحى . وقد واتتها الفرصة حين قسم نسطوريوس بطريق القسطنطينية المسيح إلى قسمين : مقدس وبشرى . وكانت هذه خطوة غير مستحبة ، إذ يترتب عليها منطقيا أن تهاجم حامية القسطنطينية المحبوبة ، مريم العذراء من جهة ، وتنطوى من جهة أخرى على تهديد بضياع لقبها « أم الإله » . وعلى هذا فقد اتحدت الإسكندرية وروما مع الشعب البيزنطى ضده ، فأدانه المجمع الدينى العالمى الثالث ، وهو مجمع إفيسوس ٤٣١ م . فكان هذا نصرا ثانيا للاسكندرية على يد بطريقها القوى كيرلس .

انظر BAYNES and MOSS, *Byzantium*, pp. 59 sqq.
RUNCIMAN, *Op. Cit.* pp. 115 — 116.

فلافيان . وعبثا احتج البابا والإمبراطورية الغربية لثيودوسيوس . وإذاً فقد انتصرت الإسكندرية ، وأصبح بطريقها الأقوى .

وإذاً ، ما هى العوامل التى أدت بعد ذلك بسنين فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ م إلى إدانة مذهب يوتيخيوس ، وإلى نفى ديوسقوروس ، والحد من نفوذ الاسكندرية ؟ لا مرية فى أنه بالرغم من أن أهل العاصمة المصرية ظلوا على ولائهم لبطريقهم ، فقد سئم من والوه من رجال الدين ذلك الاستبدادَ الذى لقوه على يديه ، فى الوقت الذى رفضت فيه الكنائس الأخرى الاعتراف بسيادته .

فكان موت ثيودوسيوس الثانى (٤٥٠ ب . م) [عاملا] أهم من ذلك [فى إضعاف كنيسة الإسكندرية] فلم يعد فى مكنة خليفته الذى انتخب بتأثير بولكيريا أن يدافع عن ادعاءات الإسكندرية . إذ صمم هو وامرأته العذراء على تدعيم سلطة العرش ، وسعَيا سعْيا جديا فى سبيل التوفيق الدينى بين كنائس الشرق . وكان مارقيان *(Marcianus)* ، كما يظهر ، على استعداد للاتفاق مع ديوسقوروس ، إلا أنه أصر على أن يذعن الأخير ، فرفض البطريق ذلك : فإما أن تفوز الإسكندرية بنصر مطلق ، وإما أن يعتزل النزاع ويكسب تاج الشهيد .

وعرض باسيل ، أسقف سلوقية ، القضية على مجمع خلقيدونية بوضوح فقال : « يفضل ديوسقوروس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه . ويدعى هذا القديس بأنه ينافح عن العقيدة الأساسية ، غير أنه يعتبر شخصه فوق الله ، وفوق رسل روما والقسطنطينية وانطاكية ، وجميع الأساقفة الآخرين . فإذا هزمت الإسكندرية ، وقضى ديوسقوروس نحبه ، فلن يظل العالم بلا أسقف » . لقد صمم البابا والإمبراطور على تحطيم كبرياء مصر : لكن البطريق لن يذعن ، ولذا فقد جلب على نفسه خلعه ونفيه ، وكان هدف مجمع خلقيدونية انتصار القسطنطينية ، والانحياز الكلى للكنيسة الشرقية .

وأجاز المجمع الصيغة الغربية التى نقحها ليو الكبير وأوردها فى رسالته العقيدية المسماة *(Tomos)* حيث قال : هناك طبيعتان يجب تمييزهما فى المسيح حتى بعد تجسده ، وهما الإلهية والإنسانية . وقد ظل الاختلاف بينهما باقياً بالرغم من وحدة الشخصية . وكانت وجهة النظر اللاهوتية عند الإسكندريين تتجه دائماً إلى الصوفية والرمز ، وتؤكد طبيعة المسيح المقدسة ، حتى إنها لتهمل طبيعته البشرية : وهكذا ابتلعت الناحية المقدسة الجانب البشرى ، وبذلك وصلت الكنيسة المصرية إلى اعتقادها بطبيعة مقدسة

واحـدة تسمى المونوفيزية . وهكذا وقفت الفئة التى أسست الـكنيسة القائلة بالطبيعة الواحدة صفاً واحداً فى مقاومة التعريف الذى انتهى إليه مجمع ٤٥١ م وفى نبذ عقيدة ليو الـكبير . وعلى هذا فقد انتهى بالناس إلى الحرب لا إلى الصلح . وقد سبق أن واجهت أباطرة الرومان المشكلة السياسية التالية : كيف يتسنى لهم إخمادُ مقـاومة سوريا ومصر اللتين انحازتا بحماس للهرطقة ، والاتحادُ مع الغرب الأرثوذكسى فى الوقت ذاته ! ؟

لقـد وحد منشور زينون المسمى بالهينوتيكون *Zeno's Henoticon* بين الـكنائس الشرقية سنة ٤٨٢ م إلا أن ثمن ذلك كان الانشقاق عن روما سنة ٤٨٤ م . ولم يعمل أناستاسيوس (وهو مونوفيزى فى قلبه) على إزالة سبب هذا الشقاق . واستأنف جوستين اتحاده مع الغرب ، لـكن يعقوب البردى *Jacobus Baradaeos* أسس الـكنيسة اليعقوبية المستقلة فى حكم جستنيان . وسعى بيت هرقل مرة أخرى لإيجاد اتحاد مع المونوفيزيين ، غير أن عقيدة القوة الناشئة عن طبيعة واحدة أو إرادة واحدة فى فى المسيح المتجسد لم يكن فى استطاعتها الصمود طويلا ؛ ولم تكُفّ هذه المعضلة عن إزعاج سياسيّى الإمبراطورية إلا حين استولى المسلمون على سوريا ومصر ، موئل الهراطقة ، واستطاعت

الإمبراطورية الآن أن تكون ارثوذكسية ؛ وهكذا استطاع جستنيان الثانى أن يعقد الصلح مع روما .

وعند ما أصبحت البطريركيات الرومانية الشرقية اسقفيات فى بلاد الكفار بقى بطريق القسطنطينية بلا منازع . وأصبح تشريعه يسرى على الإمبراطورية . إلا أن بطريق العاصمة عاش فى ظل القصر الامبراطورى ، وكان قنسطنطين الامبراطور المسيحى الأول ، ومعيد سيادة الدولة الرومانية . وكان فشل أساقفة الغرب عندما جاء إلى القسطنطينية ، قد علمه كيف يحل المعضلة الدوناتية[١] ذلك أنه لم يعد يستطيع أن يترك للسلطات الكنسية حكومة الكنيسة الغير المنظمة . فقد أبان الإمبراطور ، الذى دعا مجمع نيقية ووجهه لخلفائه ، الطريق بحيث لم يعد فى مقدور أى بطريق لروما الجديدة أن يقاوم الإرادة الإمبراطورية أو أن يجتنب أوامرها . وهكذا كان انتصار الأرثوذكسية الخلقيدونية ، وانتصار فكرة توحيد الكنيسة ختاما للنزاع الذى قام من أجل السيادة فى داخل الكنيسة الشرقية .

---

(١) الدوناتية : فرقة نصرانية ظهرت فى افريقية فى العصر البيزنطى وهي منسوبة إلى أسقف يسمى دوناتوس عارض أسقف قرطاجنة والتف حوله طائفة من القساوسة ، وتكونت منهم فرقة دينية ظلت تناوئ كنيسة قرطاجنة حتى أيام جستنيان .

انظر : E. F. GAUTIER, *Le Passé de l'Afrique du nord,* pp. 260 sqq.

وشهد القرن السادس آخر هجوم شُن على الوثنية الباقية فى الإمبراطورية . وتوالت التشريعات فى محاربة الهراطقة من جهة والوثنيين من جهة أخرى خلال أكثر من مائتى سنة . واستعمل قنسطنطين العنف فى القضاء على الدوناتيين الافريقيين بحجة أنهم مهدِّدون للأمن أكثر منهم مارقين على العقيدة . وحاول قنسطنطيوس وڤالنس فرض الأريوسية بالقوة . وتُرك لثيودوسيوس الأول أمر اتخاذ إجراءات حاسمة فى ذلك الموضوع ، فمنحته الكنيسة المتحمسة من أجل ذلك لقب « العظيم » . وحيل بين الهراطقة و بين الاشتراك فى وظائف الكنيسة ، ونفوا من القسطنطينية ، وحُرِّم على اليونوميين والمانويين [أتباع مذهب مانى] حق الوراثة والتوريث . وعمم ثيودوسيوس الثانى هذا الحرمان على الجميع . فكان اليونوميون زمن ثيودوسيوس الكبير محرومين من دخول وظائف البلاط والجيش ، بينما جرد ثيودوسيوس الأصغر الهراطقة من حق دخول الخدمة العسكرية بمنشور علنى . وكان جستنيان أكثر قسوة منه ، ويمكن تلخيص آرائه عن الحكومة فى العبارة الموجزة : حكومة واحدة ، وقانون واحد ، وكنيسة واحدة . وبالرغم من أن الهراطقة كانوا يؤدون ما يقع على المواطنين من أعباء ، فقد حُرّم عليهم التمتع

بامتيازاتهم . وحرّمت عليهم قوانينه الاشتغال بالمهن الحرة ، بل تقرر هدم كنائسهم وأغلقت دونهم الاجتماعات العامة ، وأصبحت شهاداتهم القانونية ضد الأرثوذكسيين غير مقبولة ، وأضحت وصاياهم لاغية ، وفقدوا مايخوّلهم حق الوراثة ولو بوصيّة اختيارية ، وحق وراثة شخص توفى دون أن يوصى . فأصبح المنشق عن الكنيسة منبوذَ المجتمع ؛ وكانت سياسة جستنيان فيما يختص بالمانويين سياسة إبادة : فخصائص الروح فوق خصائص الجسد ، وإذاً يجب القضاء التام على كل ما من شأنه أن يسبب العدوى .

وقد صدرت سلسلة أخرى من القوانين ضد الوثنية . ومن الثابت أن قنسطنطين أذاع منشوراً يحرم القرابين العامة والخاصة على السواء ، وأمر بألا يعاد بناء المعابد المتهدمة ؛ وأمر قنسطنطيوس بإغلاق المعابد (مخافة أن تكون المعابد المندرسة مصدراً للخطيئة) . ومنع ثيودوسيوس الكبير أى عابد من دخول المعبد ، واعتبر مقدم القرابين والخائن على قدم المساواة سنة ٣٩٢ م ، وعلى هذا حقٌ للدولة أن تصادر أمواله . حتى لقد أذيع أن عبادة لاريس [(١)]

(١) لاريس *Lares* : وهي أرواح الأجداد الموتى ، التى تحمى الأسرة . وهناك لاريس برايستيتيس *Lares Praestites* التى تحمى المدينة جميعها .

Lares و بناتيس[1] *Penates* — وهى عبادات كانت تمارس فى البيوت — غير قانونية . وأبعد ثيودوسيوس الثانى سنة ٤١٦ م جميع الوثنيين من الخدمة المدنية والعسكرية فى الإمبراطورية . واستطاع الحاكم المطلق أن يؤكد فى أحد تصريحاته السامية بعد بضع سنين بقوله « لم تعد هناك وثنية فيما نعتقد » . ولا شك فى أن هذا التفكير كان وليد الرغبة لأن يوحنا الافيسوسى كان قد أدخل خلال القرن السادس ألوفا فى المسيحية قسراً (دون أن يعتنقوها فعلا) .

لم يمتنع سكان الرها عن الاحتفال بعيدهم الليلى بالمشاعل فى سنة ٤٩٦ إلا بعد وقوع معجزتين مفزعتين — وعلى القارىء أن يرجع إلى ما كتبه « يوشع العمودى » عن هذه الأعياد الوثنية (ترجمة رايت صفحة ١٨ — ٢١) ، ولكن الحال فى العاصمة تغير بعد ثمانين سنة ، إذ أنه عندما اتهم أناتاليوسُ الانطاكى بالاشتراك فى تقديم قربان ، خشى الناس أن ينجو من العقاب بتأثير أصدقائه ، فهاجوا وماجوا ، وأخذوا يصيحون : إن الأسقف والإمبراطور يخونان العقيدة ؛ ولم يكن هناك سبيل

---

(١) بناتيس *Penates* : وهى آلهة الأسرة الرومانية ، منها ما هو خاص بالأسرة وما هو تابع للدولة . وقد أشار أقدم المؤلفين إلى أن اينياس هو الذى جلب هذه الآلهة *Penates* من طروادة إلى ايطاليا .

لإعادة النظام سوى إلقاء المجرم فى الملعب لتمزقه الوحوش ، ثم صلبه ، و إلقائه فى النهاية طعمة للذئاب . وكان هذا العقاب المثالى نهاية الوثنية فى القسطنطينية ، بينما كان إغلاق جستنيان لجامعة أثينا بمثابة اللحن الجنائزى للفلسفة الوثنية .

ونتج عن هذا التشريع دخول كثيرين فى المسيحية . بيد أن الغالب أن هؤلاء المتنصرين الجدد كانت رهبتهم للإله المسيحى ناتجة عن خوف من الناس ، فى حين ظلت قلوبهم فى واد آخر ، وظلت على ولائها للعقيدة القديمة . وقد عرف ذلك العصر كثيرين من طراز أسقف براى الذين مكنت لهم عقيدتهم المرنة بأن يظلوا فى ضياء لطف الإمبراطور سواء أكان سيدهم مسيحياً أرثوذكسيا ، أم ملحداً متعصباً ، أم وثنيا متشدداً كيوليان المرتد . وهكذا انحطت المقاييس الأخلاقية والدينية داخل الكنيسة . وشعر الناس أن الحياة المسيحية أخذت تفقد مثلها العليا المتشددة . فأخذوا يجاهدون فى سبيل الإفلات من عالم لا يحتمل فى نظرهم . وامتلأت جنبات صحارى مصر بطالبي العزلة الذين يبغون الوصول إلى الله . غير أنهم لم ينفصلوا عن الكنيسة المنظمة انفصالا فعليا كما فعل المونتانيون أو البيوريتان الأول . لكنهم كفوا أنفسهم بأنفسهم ، وكانوا فى غنى عن حظيرة

الكنيسة . وهكذا قامت الرهبنة منفصلةً عن الكنيسة : وكانت من ناحية احتجاجا فردياً على نظام قام بأكبر نصيب فى تأييد الدولة . ولما كانت الكنيسة تسعى لتركيز سلطاتها فى حكومتها الداخلية ، فقد قررت أن تحول دون بقاء أية حركة دينية خارجة عنها . ولا مفر لأى لون من ألوان التدين من أن يؤيد قضيتها . وإذا كان لا بد من تكييف الحركة الجديدة بما يلائم أغراض الكنيسة ، فإنها — أى الكنيسة — كانت مستعدة لترتيب معونة مالية مؤقتة توصلها إلى أغراضها . فإذا خضع الميل الجديد إلى التقشف لإدارتها أصبح من اللازم عليها تحطيمه . وأصبح لزاما على الزاهد أن يتصل بأولئك الذين يشاركونه الاعتقاد بمثله العليا . إذ أن ذلك يفسح المجال أمامه لممارسة فضائل المسيحية . وذلك ما فعله يوستاثيوس السبسطى وباسيل الكبير . فقد سعى الأخير إلى إقامة الرهبنة على أساس روحى : فالراهب هو من سار طبق تعاليم الإنجيل « فأدى واجباته ووضع الكمال نصب عينيه ، وراض نفسه عن طريق الوحدة وإنكار الذات والقناعة على الوصول إلى الهدف الأسمى ، ألا وهو الاتحاد مع الله » فحياةُ الراهب فى نظر باسيل خاملة غير مجدية ، فما العمل الزراعى وممارسة الحرف فى نظره إلا جزء من حياة المتعبد ؛ وكانت قواعده

نموذجا نسج على منواله القديس بندكت حين وضع نظم الرهبنة في الغرب .

ومهما يكن من أمر ، فإن مساكنهم التي اتخذوها لتنسكهم في الكهوف المنعزلة أو جعلوها معلقة فوق صخور الجبال هو الذي أيقظ الشعور بالإجلال والرهبة والحماس العاطفي في نفوس عامة الشعب ؛ فهرع الحجاج من الشرق والغرب لإلقاء نظرة على القديس العمودي الذي قضى سنين طويلة على عموده حتى فقد القدرة على الوقوف ، وأصبح لا يعينه على الوقوف سوى الرباط الذي كان يمسكه بعموده (١) .

وسعت الكنيسة مرة أخرى لتحويل هذا التنسك المحبب الشائع لخدمة أغراضها . فاضطر باسيليكوس المغتصب أن يهجر الهرطقة حين رأى دانيال مُورّم القدمين يترنح في خطوه قادما عليه من عموده الذي لم يدفعه إلى تركه إلا ما شعر به من تهديد هذه الهرطقة للعقيدة . وما حادث الأسقف الذي انتظر في قيظ الهجير ذات يوم صائف طويل يتوسل إلى القديس العمودي أن ينزل سلمه لكي يرسّمه ، ورسّمه على رغمه وبدون أن يلمس رأسه كما

(١) إن الدافع الأصلي لهذا النوع من التقشف — على ما يرجح — هو أن يجعل الراهب عاجزاً عن القيام بأية حركة . ولا محل للظن بأن لهذا أية علاقة بأشكال التقشف الوثني القديم .



القديس سمعان (سيميون) العمودى جالساً على عموده
عن أحد مؤلفات باسيل الثانى



تقضى طقوس الترسيم ، إلا صورة لما كانت الكنيسة تدعيه من أن كل الحركات تابعة لها ، وأن فى إمكانها أن تحتضن كل شىء ذى أثر ، من شأنه أن يقوى سلطانها على حياة الإمبراطورية والفكر فيها .

وقد رأينا (ص ٣٣) أن الحاج (إلى الأماكن المقدسة) كان يعود حاملا معه تمثالا أو صورة للقديس ، وربما كانت هذه العادة من العوامل التى أعانت على تقوية عبادة الصور التى نشأ عنها نزاع اللاصورية الذى طال أمده .

وكان قلب الإمبراطورية فى القرن التاسع إنما يوجد فى آسيا وأرمينية ، حيث كان سلطان الحركة التقشفية لا يزال قويا ؛ فهنا كان موئل البولسيين *(Paulicians)*[١] ، الذين كانوا يمقتون الرهبنة ؛ وهم الذين احتجوا على خزعبلات الكنيسة وشعائرها الخرافية . ومن هنا نشأ الأباطرة اللاصوريون ، وناصرهم الجيش الذى كان يُجمع على الأغلب من آسيا الصغرى وأرمينية ،

(١) البولسيون *Paulicians* : هم إحدى الطوائف التى تقول بالثنائية وكانت تحاول فيما بين ٦٦٨ ، ٨٧٥ نشر عقيدتها بين الأرمينيين وخاصة فى منعلقق بنطس والفرات . وقد قاومهم باسيل الأول فى القرن التاسع وأسكنهم على تخوم بلغاريا .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, p. 131, 353.
RUNCIMAN : *op. cit.* p. 118.

وكثير من رجال الخدمة المدنية والأساقفة . ووقفت بلاد اليونان الأوروبية مع الأديرة تذود عن الصور .

وقد ضاعت ، لسوء الحظ ، كتابات اللاصوريين ، ونستطيع أن نبنى أسس مهاجمتهم لعبادة التماثيل مما كتبه خصومهم . ومما يتيسر لنا ملاحظته على الأقل أن محطمى الصور لم يكونوا من أنصار المذهب العقلى كما صوروهم أحيانا ، بل كانوا مصلحين دينيين ؛ فكانوا ينظرون إلى شعور الناس بالاحترام نحو الصور نظرتهم إلى عبادة الأصنام أو نوع من أنواع الانحطاط . والواقع أن شيوع تقديس الصور وتوقيرها كان حريا أن يذهب إلى مدى بعيد (لو أنه ترك دون مقاومة) ، فقد بلغ الأمر أن كان الناس يختارون صورة لتكون أبَ المعمودية لطفل . أما الحزب الامبراطورى فقد اعتبر محاولة تصوير الإلهى فى صورة بشرية ، وتصوير أسرار الروح تصويرا ماديا من قبيل الزيغ والاجتراء .

ألم يكن من المصادفات الغريبة أن تكون غزوات العرب ، أعداء الصور ، عقابا أنزلته السماء المغضبة ؟

ولم يكن عباد الصور أقل إخلاصاً لمبدئهم : فالواقع أن كثيرين منهم نظروا للنزاع على أنه جهاد للبقاء . فشعر صناع الصور المجيدون من أهل افيسوس أن الخطر يتهدد مورد رزقهم لأنهم

كانوا يعيشون من رسم الصور المقدسة . وكان الخطر يتهدد نتائج أخرى أبعد من هـذه فى نظر الآخرين . وظل بعض أنصار الصور ينافحون عن مبدئهم بحجة كان الشرق يقول بها فى وقت مبكر منذ القرن الرابع ، وأخذها الغرب فيما بعـد ، ألا وهى أن الصور المقدسة إنجيلُ الجاهل ، فالصور ما هى إلا مذكر ، وهى للنظر بمثابة الـكلمات للأذن ، مهمتها الإفهام والتقريب .

وكان أنصار عبادة الصور يدافعون عنها بحجج أعمق من القول بأنها كانت مجرد وسيلة لتعليم النـاس وبعث الحمية فى نفوسهم . فقد كانوا يقولون ان اتجاه العقل الإنسانى إلى التماس المعاونة من قوى وراء الصور المتجسدة أمر طبيعى لا يحتاج إلى مناقشة . فمحاولة القضاء على الصور المقدسة مصيرها الفشل منذ البداية ، لأن الناس حاولوا منذ بدء الخليقـة أن يصوروا تلك الأشياء غير المنظورة التى تتعلق بالله — بالصور . فلـكل شىء مغزيان : مادى وروحى . والروح تستتر وراء حجـاب الجسد . وفى استطاعتنا أن نصغى للـكلمات المـادية عن طريق الأذن الجسدية ، وعن هـذا الطريق نفهم الحقائق الروحية . والتعميد لا يتم إلا بعملية مزدوجة — مادية بالمـاء وروحية — وهكذا دخول الإنسان فى زمرة المؤمنين والصـلاة والترتيل . وكان

اللاصوريون فى الواقع يقولون إن كراهيتهم للصور ناشئة عن وجهة نظرهم إلى المـادة ، فقد كانوا يعتقدون أن المـادة شر . لـكن هذا يضم فى ثناياه ثنائيـة مانوية مستحيلة . فالمسيح باستحالته إلى لحم قدّس المادة . وإذا أنكرنا إمكان تصـوير المسيح تصويراً ماديا كان معنى ذلك أننا ننكر التجسد ، أى أننا نصوّب ضربة إلى المركز الذى تنعقد حوله آمال المسيحيين . فنحن لا نعبـد المادة ، وإنما نعبد إله المادة ، الذى أصبح مادة من أجلنا ، فاتخذها مسكنا له ، وأخذ يعمل وهو فى قيدها . لا ، إن المادة لا تُحْتقر ، فليس لنا أن نحتقر شيئاً مصـدره الله ، ولا يُحْتقر إلا ما ابتدعه الإنسان — ألا وهو الخطيئة . فالدعاء لأولئك الذين تحملهم الصورة ينفح المادة قوة مقدسة : والمادة كمادة فقط ليست بذات قيمة ، إلا أن الشخص الممثل فى الصورة إذا كان على جانب من جلال الورع ، فإن العابدين يشاركونه ورعه على قدر إيمانهم به . وكما كتب القديس باسيل يقول : « إن تكريم الصور يوصلنا إلى أصحابها » . ومجمل القول إن أنصار الصـور يؤكدون أنك إذا لم تعبد الصـورة فأنت لا تعبد ابنَ الإله ، الصورة الحية للإله غير المنظور .

وقد انتصر عبّاد الصور ، وعاشت الصور المقدسة . وقد

درجنا على القول بأن التماثيل أُبعدت من بيت الله نتيجة لهـذا النزاع : وقد نتساءل أحياناً عما إذا كان لدينا دليـل مقنع على ذيوع استعمال التماثيل فى كنائس الإمبراطورية الشرقية حتى النزاع حول اللاصورية .

غير أن معركة اللاصورية اكتسبت فى مرحلتها الثانية طابعاً سياسيا ؛ وقد رأى البعض أن الاضطهاد فى هـذه الفترة الأخيرة كان مقصوراً على القسطنطينية لأن الإمبراطور ربما سعى عن هذا السبيل لأن يكون سيد العاصمة . ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور ، فيذودون عن تقليد كنسى فحسب ، بل كانوا ثوريين على طريقتهم الخاصة . لقد كانوا ينافحون عن حرية جديدة ، ويجاهدون فى سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة ، تلك العـلاقة التى توطدت منذ زمن طويل فى العالم البيزنطى ؛ لأن امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب بل كان رئيس الكنيسة ، ووريث قنسطنطين الكبير . وكان فى مقدوره وحده أن يدعو المجمع الكنسى — برلمان الإمبراطور الدينى — حيث كانت الإجراءات صـورة عن شبيهاتها فى السناتو الدنيوى ، وحيث اتخذ الإنجيل مكان هيكل النصر الوثنى . وكان مندوبوه العلمانيون يرأسون اجتماعات المجمع ؛

وكانت قراراته التي يتخذها لا تفوز بالصبغة التنفيذية حتى يوافق الإمبراطور على جعلها سارية المفعول . وحتى هـذه المجامع بدت بعـد مدة ديموقراطية إلى درجة خطيرة . واستطاع الإمبراطور الأوتوقراطى أن يحدد عقائد الـكنيسة بمنشورات امبراطورية . وكان الإمبراطور فى الحقيقة يعين أسقف البلاط الذى كان فى مقدوره أن ينفذ إرادته فى المسائل الدينية عن طريق عزل البطارقة العاصين . ولقد نادى رعايا جستنيان به ملـكا — كاهنا ، وأوضح أسقفه النظرية القيصرية بقوله : « يجب ألا يحدث شىء فى الـكنيسة ضد رغبة الإمبراطور »

وهذه النظرية عن علاقة الـكنيسة بالدولة هى التى هاجمها ثيودور (من رجال دير ستوديوس) وأحد أنصار عُبّاد الصور المتأخرين . فقـد كان هؤلاء الأخيرون لا يمانعون فى إعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ويوضح القديس يوحنا الدمشقى وجهة نظر هؤلاء الرهبان فى قوله : « نحن نطيع الإمبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أى فى الولاء والضريبة ، وما يحق له علينا من الجبايات . أما فى الحـكومة الـكنسية فلنا القسيسون والمبشرون بالـكتاب المقدس ، وشارحو القوانين الـكنسية . فالتقدم السياسى من اختصاص الإمبراطور، أما التنظيم الـكنسى

فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ، وليس تجريدهم منه إلا من قبيل اللصوصيّة »

وهنا عجز أنصار عبادة الصور عن تحقيق هدفهم هذا . فقد ظلت النظرية القديمة سارية باختلاف واحد ، وهو أن الأباطرة كفوا عن السعى فى تغيير العقيدة المسيحية عن طريق المنشورات الإمبراطوريّة ، لأن الكنيسة حين خرجت من النزاع حول اللاصورية أصبحت كنيسة أرثوذكسية بصورة أوفى من أى يوم مضى . وتوقف تطورها اللاهوتى . نعم إنها ظلت على أصدق الولاء لعقيدة الآباء ، لكن هذا الإخلاص القلبى ذاته هو الذى جعل من الصعب عليها أن تعبد الله بكل تفكيرها . وبدا لمن ليسوا من أتباعها ، ممن كانوا يعجبون بولائها الذى لا يتطرق إليه الوهن لتراثها العظيم ، أن أعمالها تتصف بالجبن ، لأنها لم تجرؤ على السير فى الطريق الذى تعمره روح الحق لكى تفضى بنفسها إلى الحقيقة الكاملة حتى تستطيع أن تتحرر تحرراً حقيقيا[١] .

---

(١) عبارة المؤلف هنا تصور مجموعة من التطورات الهامة التى مرت بها الكنيسة الشرقية خلال النزاع حول عبادة الصور وبعده ، ولكنها موجزة إيجازاً لا يستسيغه إلا من ألم بتفاصيل تاريخ هذه الكنيسة . ونفسر هذه التطورات فى النقط التالية : =

وبقى هناك موضوع الخصومة مع روما ؛ فيجب ألا ندعه بدون تعليق مختصر . فقد اتسعت الهوة بين الشرق والغرب مع السنين .

═ ١ — إن أنصار عبادة الصور كانوا يسعون للتغلب على معارضة الأباطرة اللا ايقونيين بالقول بأنهم يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، وما داموا يوفون القيصر حقه من الولاء وأداء الضرائب ، فمن حقهم أن يطالبوا الأباطرة بتركهم يعبدون الله ويوفونه حقه كما يتراءى لهم . ومن أكبر القائلين بهذه الدعوى يوحنا الدمشقى .

٢ — ولكنهم لم يوفقوا فى إقناع الأباطرة بضرورة الانصراف عن التدخل فى شئون العقيدة ، فمضى الأباطرة اللايقونيون يقودون الحرب ضد عباد الصور ويتدخلون فى شئون الكنيسة .

٣ — ولكن تدخلهم فى هذه الفترة كان يختلف عن تدخلهم فى شئون الكنيسة البيزنطية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، فقد كان تدخل الأباطرة إذ ذاك عنيفاً شاملا لأن الدولة كان فيها أرثوذكسيون وغير أرثوذكسيين ؛ فلما انفصلت مصر والشام والعراق عن جسد الدولة لم يبق فيها إلا الولايات الأرثوذكسية . ولم يعد هناك مجال لأن يتدخل الأباطرة تدخلا مستمراً عنيفاً كما كان الحال فى أيام جوستين الأول وجستنيان مثلا .

٤ — ثم إن النزاع حول عبادة الصور نهض بالتفكير اللاهوتى فى الدولة البيزنطية نهضة كبرى ، وأوضح معانى الأرثوذكسية وحدودها إيضاحا كاملا ، وهذا هو ما يشير إليه المؤلف بقوله : إن الكنيسة الأرثوذكسية خرجت من نزاع اللايقونية أرثوذكسيةً أكثر من أى يوم مضى .

٥ — وقد صرف هذا الصراع الكنيسة ورجالها عن العبادة الحقة ، وتركز همها فى الدفاع عن الصور وعبادتها ، وتمسكت تمسكا جامداً بعقيدة الآباء الأول . ومن ثم لم يعد فى استطاعتها أن تعبد الله فى حرية وتفكير صرف .

٦ — فلما صالح الأباطرة أنصار عبادة الصور قنعوا بذلك وكفوا عن السير فى كفاحهم لتحرير العقيدة من سيطرة الأباطرة . ومن هنا رماهم أعداؤهم بالجبن والوقوف فى منتصف الطريق .

حتى لقد انقطعت أواصر الصلة بين البلاطين الغربى والشرقى فى أوائل القرن الخامس إلا أن يكون بعض ما كان يثور بينهما من نزاع سببا فى اتصال أحدهما بالآخر اتصال عداء . فكانت مشاكل الغرب والشرق فى هذا العصر اللاهوتى مختلفة : إذ أن نزعات قواد الغرب كانت عملية تدور حول علاقة الإنسان بالله — فكانت مسائلهم تختص بتخليص الإنسان أو تحريره من إرادته الإنسانية ، وتحت تأثير أوغسطين كانوا ينشئون لعقيدتهم نظاما خاصاً مقنناً . أما النزاع فى الشرق فكان ميتافيزيقياً يدور حول علاقة أفراد الثالوث المقدس بعضهم ببعض ، ودار فيما بعد حول الطبيعة المزدوجة لابن الإله المتجسد . وكانت روما هى الملجأ الأخير الذى تطلب عونه كل طائفة قليلة مغلوبة على أمرها فى الكنيسة الشرقية . وكان تدخل الغرب على ذلك فى نظر الأكثرية تدخلا تنظيميا من شأنه أن يقوم هرطقات الشرق . فلم تكن كنيسة روما على وفاق مع كنيسة القسطنطينية لمدة نصف القرون الخمسة التى تقع بين وصول قنسطنطين للعرش والمجمع الدينى العالمى السابع (٧٨٧) .

وكان اختلاف اللغة بين الكنيستين أهم من ذلك كله : فبينما كانت روما الجديدة تقوم فى وسط يتكلم اليونانية ، كانت

إيطاليا فى القرن الرابع قد كفت عن استعمال لغتين . ولم تنل هذه الحقيقة إيضاحا كافيا ، إلا أنهـا حقيقة ثابتة . فنى القرن الخامس حينما اشتد النزاع بين نسطوريوس وكيرلس الإسكندرى التجأ الطرفان إلى البابا ليفصل بينهما . وكان كيرلس حكيما حين بعث ترجمة لاتينية مع شماسه پوسيدونيوس الذى كان يعرف اللغة الغربية . وكان البابا كويلستن *Coelestin* حتى وصول هذا الشماس عاجزاً عن إجابة نسطوريوس لأنه عجز عن قراءة خطابه . ويتضح من هذا أنه لم يكن فى روما حينذاك من يعرف اليونانية . وكذلك كانت رسائل البابوات للمجامع الدينية الشرقية تقرأ أولا باللاتينية ثم تترجم إلى اليونانية لـكى يتسنى لرجال الدين الشرقيين فهمها ؛ وكثيراً ما كانت تترجم ترجمة خاطئة . وقد شكا من ذلك ليو الـكبير . وكان يمثل روما عادة فى المجامع أسقف شرقى ، وكان مندوبوها يلوذون بالصمت . حتى جريجورى الـكبير لم يستطع فهم اليونانية على الرغم من أنه كان ممثلا للبابا فى بلاط القسطنطينية سنين عديدة ؛ ولقد رفض أن يجيب سيدة لاتينية كتبت إليه باليونانية . وحدث ذات مرة أن مات أمين السر اليونانى لإكزرك رافنا فى القرن السابع فاستولى عليه اليأس . وبلغ جهل العالمين كل بلغة الآخر أقصى حده حينما وصف

إمبراطور رومانى فى ٨٦٧ اللاتينية بأنها « لغة بربرية » . وكان يقال من قبيل الرثاء : إن الشرق والغرب لم يستطيعا التفاهم لأن كلا منهما يجهل لغة الآخر . بل بلغ من اتساع الهوة بينهما أنها ظلت على حالها على رغم نشوء جالية فى روما تتكون من الهاربين من اضطهاد اللاصوريين فى الشرق ، وعلى رغم رحلات حجاج الغرب إلى الأراضى المقدسة ، وعودة جنوبى إيطاليا إلى حظيرة الدولة البيزنطية .

ولم يكن كبار البطارقة البيزنطيين فى الحقيقة على استعداد لإطاعة ما تمليه روما ؛ فانتهزوا بشوق فرصة اكتسابهم محبة الشعب ، وهاجموا مزاعم البابوية . ولما كان البطريق والبابا شخصيتين بارزتين فى الوقت نفسه ، فقد نتج عن ذلك الانشقاق الدينى : ومن أمثلة ذلك ما وقع من الانشقاق بين الاثنين نتيجة لتصادم فوتيوس ونيقولا الأول (٨٥٨—٨٦٧) . وفى سنة ١٠٥٤ اختلف البطريق كيرولاريوس المتطلع إلى السيادة مع ليو التاسع الذى كان مشبعاً بآراء المصلحين الكلونيين *Cluniac Reformers* العليا . ونتج عن ذلك أن أصبح النزاع مستمرا . وكانت روما كثيراً ما تلقن القسطنطينية درسا فى موضوع الأرثوذكسية . ولكن بيزنطة حرصت على أرثوذكسيتها الخاصة بها ، واستطاعت

أن تدافع عنها فى وجه الغرب . وكانت خصائص الطقوس التى صاغتها الكنيسة الشرقية فى قرارات مجمع سنة ٦٩٢ قد اعتبرتها الجنا كرتا لاستقلالها الكنسى : وأضاف بوثيوس إلى هذا ، الاختلاف فى العقيدة حول مسألة موكب الروح المقدس . وقاد قضيّة بيزنطة ضد روما قيادة مكنتها من الثبات إلى الأبد . وكانت إعادة الوحدة بعد سنة ١٠٥٤ هى مصدر إغراء الأباطرة للحصول على مساعدة عسكرية من الغرب . ومهما كان فهم رجل مثل أربان الثانى للوحدة ، فإنها لم تكن بالنسبة لآل كومنين سوى جزء من السياسة الإمبراطورية . وحين تمكن آل باليولوجوس من إيجاد صلح فعلى مع روما ، هاج شعور الشعب . فلم تزل الكنيسة الأرثوذكسية حتى اليوم كنيسة المجامع العالمية السبعة — كما كانت فى أيام فوتيوس .

وقد حان الوقت لنتبين مقدار القوة والضعف فى الكنيسة الأرثوذكسية . إن تدينها ينفرنا حين نقرأ أدبها اليوم . إذ أنها علقت أكبر قيمة على فضيلة البكاء مدفوعة إلى ذلك بشعور متجدد بالخوف من الخطيئة ؛ وفيض الدمع فى نظرنا نحن أهل الغرب — إنما هو نزوع خاص ينحصر بشكل رئيسى فى الترتيل العاطفى . وإن الإنسان ليشعر أن كرم رجل الكنيسة البيزنطى

إنما كان صادراً عن الأمل فى الجزاء فى العالم الآخر :

مهما تقرضك يا إلهنا
سوف يرد إلينا مضاعفا ألف مرة
ولهذا نعطيك عن طيب خاطر
يا من تهب الجميع .

وهذا تعبير رائع عن وجهة نظر الرومانى الشرق . ولنضف إلى ذلك أن الكنيسة الشرقية أخذت تشك فى الإنسانية ، وتسعى لكبتها : فقد اعتبرت الأدب الكلاسيكى القديم خطراً . وكان تلميذ افلاطون يعتبر فى عداد المراطقة ، وكان يعد فى رأى (محبى الآباء) خائنا . وكانت الكنيسة بالإضافة إلى ذلك اغريقية . وفرضت اللغة الإغريقية على عابديها . وهكذا قضى على لهجات آسيا الصغرى الوطنية . وقد انقذت الامبراطورية الرومانية ، ومالت فى آخر الأمر إلى السعى للتوفيق بين رغباتها ورغبات الدولة . ولم تكن تفرض على الداخل فى مذهبها أعباء كثيرة ؛ فكانت تبدى تسامحاً كبيراً نحوه فيما يختص بعقيدته وعبادته السابقة .

بيد أننا ينبغى أن نقرر أشياء أخرى كثيرة فى كفة حسناتها ؛ فقد كانت الكنيسة اليونانية هى التى حددت للعالم المسيحى معانى العقيدة العظيمة . و إذا كانت كنيسة تابعة للدولة إلى حد

كبير ، فقد كانت متشبعة بروح تبشيرية : فقد جاهدت فى سبيل إفهام العالم البربرى المقيم على حدود العالم الرومانى كلمة الحق وأدخلته فى رحابها ، وأقامت على ذلك فى إصرار لا يكل . ويرجع لها الفضل فى إدخال الشعوب الصقلبية فى رحاب المسيحية . وناصرت الدولة فى جهادها لحماية إخوانها فى الدين ممن تعرضوا للاضطهاد ؛ فلقد قامت بسبب مساعدتها للمسيحيين الأرمن أكثر من حرب واحدة مع الفرس . وإذا سلمنا بأنها كانت كنيسة إغريقية ، فإننا نجدها بالرغم من ذلك على استعداد حين تلتقى بأمة ما ، لأن تجيز لغتها الوطنية . وقد خلق إيحاؤها الأدبين السورى والأرمنى ؛ وهى التى قدمت إلى هذه اللغات المادة ، وغذت الحياة الجديدة التى بعثتها إلى الوجود فى كيانها : ومنحت القسطنطينيةُ الصقالبة الطقوسَ بلغتهم التى أنكرتها عليهم روما . وإذا كانت تعادى فكرة الإنسانية فإن الفنون وجدت مكانها فى كنائسها ؛ ونجد جميع الفنون البيزنطية التى كتب لها البقاء ذات طابع كنسى . وإذا كانت قد خضعت أحيانا للدولة فإن من أشياعها من عانى التشريد والعذاب والتنكيل من أجل العقيدة . وإذا غلت أحيانا فى النزول لمستوى خزعبلات عابديها الوضيعين ، فقد أهلتها هذه الحقيقة لتكون أقرب جداً

إلى أفراد الشعب الرومانى الشرقى . لقد عاشت بينهم وألهبت وطنيتهم ، وأضحت مركز الحياة القومية عندهم ؛ وكما يقول السير وليم رامسى :

« لقد حركت رجل الشعب بقوة لم تكن لتبلغ مداها أى عقيدة أخرى أكثر تساميا . وتبعا لذلك كانت الكنيسة الأرثوذكسية أوفق ما تكون لروح الامبراطورية وحياتها ، وأقدر على أن تحفظ للامبراطورية وحدتها ، وأن توجه كل تعبير عن العزة القومية ، وتعطيه شكله » .

وقد احتفظت الكنيسة — فى القرون المظلمة التى سيطر عليها الضغط التركى — بجذوة الهيلينية المومضة تحت الرماد حيّة ، ولا تزال تلك الكنيسة نفسها حتى اليوم على ولائها لأهدافها التى وضعتها منذ قرون .

الفصل السادس

ملكية الأرض والضرائب

« لا شيء فى حكم اليقين سوى الموت والضرائب »
بنيامين فرانكلين

لا يصعب علينا أهل إنجلترا فى القرن العشرين ، أن نربط بين ملكية الأرض والضرائب ؛ وليس هذا بالنسبة لمن يتوفر على دراسة الإمبراطورية البيزنطية بالميزة القليلة . فهناك كما هى الحال فى كل مكان ، يعتبر المشرعون والحكام الأرضَ مورداً رئيسياً لخزانة الدولة . فكانت حاجة الخزانة للمال تقرر التشريعات الخاصة بالزراعة . ولا يتسنى لنا أن ندرس ملكية الأرض والضرائب دراسة توفى بالغرض مالم نتناولهما معا (ويمكنك الرجوع إلى الفصل السابع للاطلاع على المالية البيزنطية بصورة عامة) .

كانت الأرض بالضرورة أسلمَ أنواع الاستثمار المالى قبل أن يتأسس نظام مالى واسع ، قومى أو دولى ، فى عصرنا الحاضر ، لأن الأرض شيء ثابت لا يتخرب . فوضع صاحب رأس المال

ماله فى الأرض ، وكذلك فعلت الدولة لأن الأرض كانت أضمن موارد دخلها . وكان الـكيان المالى ، تبعا لذلك ، يستند فى الدولة البيزنطية على دعامة رئيسية وهى ضريبة الأرض التى كانت تجبى فى كل مكان بشدة وفى غير لين .

وعندما تطور نظام الضريبة الجديد زمن دقليديانوس انحطت قيمة العملة فى الإمبراطورية ، وأصبحت قيمتها تبعاً لذلك عرضة للتقلبات حتى إن دفع المـال للحكومة بعملتها لم يكن يجر عليها سوى الإفلاس . وتحتم إذاً إيجاد حل آخر يستعاض به عن الضريبة المالية القديمة ، الثابتة القيمة ، التى كانت تجبى من الولايات .

و يبدو أنه من العسير أن يتجاهل المرء حقيقة واقعة ، وهى أن مصر كانت مصدر حلول كثيرة لساسة الإمبراطورية . غير أن مصر جرت منذ زمن بعيد على أن تقدم ما عليها للإمبراطور عيناً ؛ وتعودت الأفواه الجائعة فى روما الشبع من قمح مصر ، وهكذا كانت ضريبة الأرض التى فرضها دقليديانوس تُجمع على شكل جزء من محصول الأرض . ولـما كان من الضرورى تموين فرق الجيش الجديدة ، وتلك الأعداد الضخمة التى زيدت من الموظفين المدنيين ، وكذلك تموين أهل العاصمة الشرقية ،

ولما كان الأباطرة أيضاً لا يرغبون فى أن ينفقوا ما لديهم من العملة المعدنية الثمينة فى هـذه المؤن من اللحم والقمح والزيت ، فقد كان على الولايات أن تقدم من ضرائبها الجرايات التى لم يكن الإمبراطور على استعداد لشرائها .

ولقد كان الأباطرة قبل دقليديانوس يحمّلون الولايات أعباء غير عادية فى الظروف التى مست الحاجة فيها إلى كميات ضخمة من المواد الغذائية فى حالات الطوارئ النازلة . أما الآن ، وقد سقطت قيمة الضريبة المالية ، أصبح ما تحصله الدولة عن طريق الجبايات الشاذة هو دخلها المعتاد . لـكن هذه الضرائب العينية ظلت على طابعها الأول ، أى أنها لم تكن ثابتـة القيمة ، كالضريبة المالية ؛ وظلت كما كانت فى الظروف السابقة جباية تقررها الحاجة الطارئة ، ويحـدد قيمتها الأباطرة ومستشاروهم . فـكان يصدر مرسوم يسمى « التفويض الإلهى » تقدر فيـه نفقات الإمبراطورية ، ومقدار ما ينبغى على الفرد دفعه فى العام التالى.

ويعترضنا فى هذا المقام السؤال الآتى : كيف كان كل فرد يعرف مقدار ما كان ينبغى عليه دفعه من هذه الـكمية الضخمة المقررة ؟ يظهر لنا أن مصر مصدرُ الإجابة على هـذا السؤال . فالزراعة هناك كانت تتوقف على فيضان النيل ؛ وإذاً فالظروف

التي فرضتها الطبيعة على الزراع كما يبدو لا تتغير. وجعل هذا الثبات النسبي فى الزراعة المصرية من الممكن أن تُقَسَّم الأرض إلى طبقات ، روعى فى تقسيمها قدرة تربتها على الإنتاج : فهناك الصحراء التي لا يبللها القطر فتعجز عن الإنبات ؛ وهناك الأرض التي لو أنفقت عليها الأموال لأصبحت قابلة للحرث والزرع ؛ وهناك أصقاع كثيرة يمنحها النيل الخصب بطميه فى مواعيده المنتظمة ؛ وهناك أيضاً أراض تغمرها المياه فتحرم النمو على البذور. وتتوقف درجات الإنتاج على هذا التصنيف الواضح للأرض. وكانت الدولة تفرض حقوقها على المزارعين بعد أن تميز وتسجل هذه الاختلافات ، وتضع خطا بيانيا يحدد قدرة كل منهم. وأخذ دقلديانوس هذا النظام ليطبقه على ولايات الإمبراطورية بوجه عام. فاتُّخذت قطعة أرض معينة ذات قيمة معينة واعتبرت وحدة للضرائب (سميت *iugum* ومؤخرا *Zeugarion*) وقسمت الأرض المزروعة إلى طبقات يتميز بعضها عن بعض بشكل واضح ، وأخذت من كل من هذه الطبقات وحدات متساوية فيما تدفعه من الضريبة ، وإن اختلفت فى المساحة ؛ وعلى أساس هـذه الوحدات جرى حساب الضرائب المقررة على قطعة أرض من أى نوع . ويمكننا من الاطلاع على القانون الرومانى النافذ

فى ولاية سوريا أن نرى أن الوحدة المكونة من ٥ أفدنة من الكرم كانت تساوى ٢٠ فدانا من الأرض المحروثة ، وتساوى ٢٢٥ شجرة زيتون (أو ٤٥٠ شجرة زيتون إذا كانت الأرض تلالا) . وكانت هناك ثلاثة أنواع من الأرض المفلوحة ، جعلت الوحدة منها بين ٢٠ ، ٤٠ ، ٦٠ فدانا . وهكذا قسمت الأراضى المنتجة إلى وحدات ضرائبية تقدر على الأغلب بناء على شهادة أصحاب الأرض فى فترات منظمة . لكن هذه الضريبة كانت تجبى على الأرض المفلوحة . وربما بدا لنا أن الوحدة الضريبية التى كانت تسمى (يوجوم) أريد بها أن تكون مساوية لقطعة من الأرض تقيم أَوَدَ زارع واحد — رأس واحدة *(Caput)* . وإذاً ففى مكنتنا أن ننظر إلى هذه الوحدة من ناحيتين : فنراها من الناحية المادية تمثل قطعة من الأرض المفلوحة ، ومن الناحية البشرية تمثل الرجل الذى يفلحها . وهكذا فإن *iugatio* و *Capitatio* مظهران للضريبة نفسها(١) . ومن الواضح أن نظاما كهذا لم يكن ليستطاع تطبيقه بنجاح إلا إذا احتفظ بالتعادل بين وحدات الأراضى ووحدات العمل التى كانت

---

(١) انظر A. PIGANIOL : *L'Impot de Capitation Sous le Bas-Empire Romain. Chambéry.* 1916.

مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا وثيقاً . وكانت المحافظة على هـذا التعادل مصدر قلق للمالك والحاكم الرومانى فى عصر كان أهله فى تناقص مستمر . ونستطيع أن نقول انه كان من نتائج هذا القلق الدائم تصميم الحكومة على ربط الفلاح الحر — معمر الأرض *Colonus* — بالأرض التى يحرثها .

وبناء على ذلك ، حين يقرر « التفويض الإلهى » حاجة الإمبراطورية لإدارتها فى السنة المقبلة توزع هذه الكمية الضخمة على ألوية *(Praefecturae = Praefectures)* الإمبراطورية ، ويقوم حاكم اللواء *(Praefectus Praetorius = Praetorian Praefect)* بتوزيعها بين الولايات التى ينقسم إليها لواؤه . ثم يعهد الحاكم الولاية بتوزيع هذا الحمل بين بلديات الولاية ، ويعهد لأعضاء البلديات تقرير ما تدفعه كل من القرى الواقعة فى محيط بلدهم ؛ وأخيرا يقوم موظفو القرية بتقرير المبلغ الذى يخص كل وحدة ضريبية فى نواحيهم .

وكان هناك ميل قوى خلال القرن الرابع لاستبدال الضريبة العينية بما يعادلها من المال ؛ وانتهى الأمر بتعميم هذا الاستبدال ، وجُعل إجباريا . وأصبح « التفويض الإلهى » يقرر الضريبة المالية المعادلة لها فى نفس الوقت .

وكان الحاكم المطلق يضع نصب عينيه دائما أن يهيئ لرعاياه ، بأى ثمن ، الوسيلة لحراثة الأرض وتوفير الأيدى العاملة لها . ولهذا كان رجال الدولة الرومانية ينظرون إلى ما كان يعمد إليه الفلاحون الأحرار من بيع عملهم بالتعاقد فى الأسواق مع من يعطيهم أكبر أجر ممكن ، على أنه خطر اقتصادى ، شأنهم فى ذلك شأن رجال القانون فى انجلترا فى العصور الوسطى . وقد كان من شأن نقص السكان فى الإمبراطورية الرومانية ، كما فى انجلترا فى العصور الوسطى ، أن رفع قيمة العامل ؛ ولهذا اشتمل دستور الإمبراطورية فى القرن الرابع على قوانين تشبه قوانين العمال . وكما أن دقليديانوس حاول أن ينقذ العالم الرومانى بالإبقاء على وحدته عن طريق نظامه الاجتماعى الوراثى ، فقد سار خلفاؤه فى نفس الاتجاه ، وربطوا الفلاح بالأرض التى يشتغل عليها . وهكذا أصبحت الطريقة التى يعمر بها الناس الأرض تقوم على أساس تشريعى . ذلك أن مُعمِّر الأرض كان شخصا متميزا عن العبد ؛ وكان يُعتبر عاملا له الحق فى أن يحوز أرضا وأن يمتلكها ؛ إلا أنه أصبح مجبرا على القيام بواجبه في زراعة قطعة معينة ثابتة له من أرض الدولة أو الأرض الداخلة فى حدود أرض يمتلكها مالك كبير . ولا مجال هنا للتعرض للأسئلة الشائكة التى تختص

بنظام الأراضى المعمرة إلا بكلمات ضرورية عن التطور السابق . وقد أُلِّفت حول هذه المسألة مؤلَّفات كثيرة تقوم على أدب وعلم .

وفى هذا الموضوع أيضا نجد نقطة البدء فى مصر . فحين كان ملوك البطالسة يؤجرون الأراضى للفلاح الحر ، حرص هؤلاء الملوك على إثبات بند فى العقد يُلزم المستأجرَ أن يظل فى الأرض المؤجرة ، وأن يقوم على فلاحتها بنفسه . وكان الرأسماليون الافريقيون يقومون بمثل ذلك خلال أيام الامبراطورية الأولى ، فحرصوا على أن يدرجوا فى عقودهم مع هؤلاء المزارعين نصوصا مشابهة لنصوص البطالسة ، والمرجح أنهم نقلوها عنهم . وإذاً ، فتقوم المستعمرة هنا على أساس التعاقد . وقدذهب بعض المؤرخين إلى أن الالتزامات التى كانت تفرض على أسرى المتبربرين الذين أقرهم ماركوس أوريليوس وخلفاؤه فى الأرض كانت محددة بعقود مشابهة ، ولكن هذا الحكم يدل على قلة تعمق . وحينما وضع دقليديانوس نظامه الخاص بمنح الأرض لجنود الحدود أخذت هذه الالتزامات صورة قانون ثابت ، وبذلك خرجت عن دائرة العقود الفرضية ؛ وما شرعه دقليديانوس لجندى الحدود أصبح فى القرن الرابع قانونا عاما لفلاحى الامبراطورية كلهم .

ولم يقف الأمر عند إجبار الناس على الاستقرار فى قطع

معينة من الأرض و إلزامهم بزراعتها ، بل ألزمت الجماعة بعد ذلك بضمان هذا الالتزام . وأصبح لزاما على هيئة كبراء كل بلد — الذين كانوا يكونون مجلسها — أن يلتزموا سداد الضرائب المستحقة على البلد وما يحيط به من القرى فى حالة ما إذا هرب أحد الملاك ولم يخلفه فى القيام بالتزاماته أحد . وما دامت المدينة تحتمل هذه المسئولية الإجماعية فقد أصبح من الضرورى أن يوضع ضمان لذلك ، ضمانا لصالح الخزانة . وعلى هذا فيجب خلقه حيث لا يوجد ؛ فكُونت مجالس جديدة لتحمل هذا العبء . وترينا سجلات العصر كيف كان هذا الحمل ثقيلا . و بينما كان الغنى يستطيع أن يرشو ليحصل على الإعفاء ، كان الفقير لا يجد من يعينه حيثما وجه وجهه . وليس أمامه إلا القنوط والاستسلام أو الهرب . و إذا هجر أرضه فإن المال المقدر عليه يقع على كاهل الباقين . بينما كان كل إفلاس جديد لأحد مجالس القرية يعنى طحن الباقين بإبهاظهم . فهدد الخراب الطبقات المتوسطة . وأخذ القروى المزارع يبحث عمن يحميه من مطالب الدولة : وكان المالك الكبير على استعداد للقيام بحمايته ، وحقق بذلك هدفا فى نفسه ؛ فقد أصبح وليًّا للقرية *(Patronus)* يدين له أهلها بالولاء . وأخذت هذه العلاقة بينهم و بينه أشكالا عديدة كان أشيعها أن

يتنازل المزارع لذلك الرجل العظيم عن أرضه ، و يصبح مزارعا عنده .

وقد شهد القرن الرابع والربع الأول من القرن الخامس النزاع بين الدولة والمالك الكبير . غير أن خزانة الدولة لم تتبين بوضوح السبيل الحقيقي الذي يضمن لها مواردها . وكان لابد من الاطمئنان على مواردها . وكان أعضاء مجالس القرى قد أنهكتهم المطالب ؛ وظهر فى مناسبات كثيرة أنهم أشبه بالقصبة المشدوخة . وكان من الواضح أن المالك الكبير يستطيع أن يستعمل سلطانه — نائباً عن مزارعيه — فى مقاومة الدولة . بيد أن الدولة كانت تكسب إذا هى جعلت مالك الأرض يقوم بجمع الضرائب لها ؛ إذ أنه كان فى مركز يخوله عن طريق ماله أن يقدم للدولة الضمانات التى تريدها : وكانت الأرض كما لاحظنا آكد أنواع الضمان : ففى ٤٢٥ م فازت وجهة النظر الأخيرة ، وخضعت الدولة للپترونُس ، وهكذا أستُثْنيت أصقاع شاسعة من أراضى الريف من تلك المسؤولية الجماعية عن الضرائب التى تجمعت على كواهل أعضاء مجالس القرى ، بينما أصبحت جماعة أهل القرية فى خلال القرن الخامس مسؤولة مباشرة عن نصيبها من الضريبة *(quota)* .

وهكذا يتميز القرنان الخامس والسادس بنمو قوة الملاك الكبار ؛ وأصبح تاريخ الإمبراطورية بعد ذلك ، إذا نظرنا إليه من زاوية

معينة ، نزاعاً بين الدولة والملاك الأرستقراطيين . لأننا إذا صرفنا النظر عن الناحية المالية ، كان لابد للحكومة المركزية كما هو واضح أن تشجع المزارع الصغير وتقلل من سلطة السيد الإقطاعى الخطر . وشهد القرن السادس أفراد المواطنين يكونون عصابات مسلحة من التابعين — *Buccellarii* . وكانت هذه القوة الحربية تهديداً ماثلا للسلام فى الولايات : إذ كان الاصطياد فى الماء العكر عملا رابحا ؛ واننا لنشهد فى صفحات يوحنا النقيوسى صوراً حية للذهول الذى كانت تسببه خصومات النبلاء العظام . إذ كانوا يستطيعون بعصاباتهم المنظمة تحدى السلطات المدنية . لكن غزوات الصقالبة الرحل ، والآفار فى القرن السابع من الشمال ، وغزوات الفرس والعرب من الشرق والغرب ، استطاعت أن تكسر شوكتهم .

وحين استتب النظام ثانية فى زمن بيت هرقل كانت هناك فرصة جديدة للمالك الصغير ؛ بيد أن الملاك الأرستقراطيين فى آسيا الصغرى مكنوا لسلطانهم خلال القرن العاشر إلى درجة مكنتهم من أن يضعوا أيديهم بعنف على الحكومة المركزية خلال القرن الحادى عشر .

وقد أصبح فى استطاعتنا منذ زمن أن نتأمل حياة القرى فى الدولة البيزنطية كما يصورها لنا قانون المزارعين . وينبغى علينا قبل كل شىء أن نميز بين القرية الحرة والقرية المملوكة لواحد من كبار الملاك : كان الفلاحون فى كلتا القريتين مرتبطين بالأرض التى يزرعونها سواء بسواء . ولكن بينما كانت الأرض فى القرية المملوكة ملكا للسيد ، وهو المسئول أمام الدولة عن جميع الضرائب بالنيابة عن عبيده ممن ليس لهم الحق فى امتلاك الأرض (فهى دائماً تحت تصرف سيدهم) ، كانت الأرض فى القرية الحرة التى يسكنها المعمرون تخص جماعة القرية أو المزارعين أنفسهم . وكان هؤلاء أحراراً فى امتلاك الأرض أو التصرف بها . ولو أننا دخلنا قرية حرة فى أراضى الدولة البيزنطية لرأينا أن الأرض تشتمل على الكروم وأراضى البساتين التى كانت تزرع فيها الخضر ، وكذلك الأراضى المفلوحة والمراعى . وكانت الكروم والبساتين تحاط بخنادق وسياجات من الأوتاد الشائكة ، حيث كانت الماشية تتعرض للأذى إذا اقتحمتها . ولكن الأراضى غير المفلوحة لم تكن مُسوّرة . وكانت على الأغلب ملكا للأفراد يستطيع المزارع أن يتصرف بها كما يشاء فى حدود ملكية جماعته . ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن أراضى الرعى كانت كحقول انجلترا تحرث حيناً

وترعى حيناً آخر ، وإنما كانت أراضى المراعى هى تلك الأراضى التى لم تكن صالحة للزراعة — كالأحراش التى لم تقطع أشجارها ، والأراضى الوعرة . وكانت هذه تقع على أطراف القرية بعيدة عن مركز الحياة فيها . وكانت على الأغلب ملكا للجماعة ، ثم يمتلكها المزارعون قطعة فقطعة . ثم تنظف وتعد للزراعة ؛ ثم تقسّم وبهذا تدخل قطعة جديدة فى ملكية الأفراد . وقد تكون الأحراش ملكا للأفراد ، فإذا أراد أحد من المزارعين أن يزرع قطعة منها ، طلب إلى صاحبها أن يأذن له بزراعتها ، ويستطيع بذلك أن يستثمرها ويحتفظ لنفسه بغلتها ثلاث سنين تعود بعدها إلى صاحبها . لكنه إذا زرعها دون إذن فقد الحق فى المطالبة بمحصولها .

وكان رعاة الماشية يسوقونها فى الصباح إلى هذه الأحراش العامة لترعى ، تصحبهم كلابهم القوية الشرهة ، حتى إذا اصطبغ الأفق بحمرة الشفق عادوا بها إلى حظائرها . وكان كل خروف أو ثور يحمل جرساً حول عنقه لئلا يضل . وإذا تجرأ لص وقطع الجرس ، وتسبب عن ذلك ضلال الحيوان وضياعه ألزم بدفع تعويض مقابل الخسارة .

وكانت دعامة ثروة جماعة القرية هو ما تملك من قطعان

الماشية بأنواعها . وكان الراعى يأخذ أجره على عمله ، فيعهد إليه المالك الصغير بثوره الخاص وخروفه فيرعاها مع القطيع . فإذا شرد حيوان وأحدث ضرراً للأرض المزروعة أوالكروم لم يَضِعْ على الراعى أجرُه ، بل أُلزم بتعويض الخسارة . وكانت الحيوانات المفترسة تحوم حول القرية ، كالذئاب التى كانت تترصد الخراف والحمير لتفترسها . وإذا هاجمت هذه الوحوش القطيع ليلا ، فالويل كل الويل للص الذى يتضح أنه سرق كلب الحراسة ، إذ كان يلزم بدفع قيمة الخسارة ، فيدفع تعويضات عن القطيع جميعه ، والكلب . وكان يسمح للماشية بعد حصاد الأرض أن ترعى بقايا الزرع . إلا أنه لم يكن يسمح لرجل أن يطلق ماشيته فى أرضه إلا إذا فرغ كل جيرانه من حصادهم . ويمكننا تصوير الحياة اليومية لجماعات الفلاحين مما بين أيدينا من المصادر . ولا يسمح لنا المجال هنا إلا بإضافة بضع نقط أخرى أولها يختص بمكانة المزارع : فقد يكون صاحب حصة من الأرض ، ويستطيع فى هذه الحالة أن يتصرف فيها تصرفاً مطلقاً فى حدود دائرة جماعته . وقد يكون مستأجراً للأرض ، وهو فى هذه الحالة أحد اثنين : إما مزارع لمزرعة فى حالة جيدة ، أو مستأجر لأرض لم تكن تزرع على شريطة أن يعيدها (بعد أجل معين) :

ففي الحالة الأولى يقوم المالك بتقديم المال الرئيسي لإقامة ما يلزم من الأبنية فى المزرعة ، ولا تؤجر المزرعة فى هذه الحالة إلا لمدة قصيرة قد تكون سنة ، فيدفع المزارع للسيد أجراً باهظا يبلغ نصف المحصول السنوى ، وهو ما يقابل فى حسابنا أكبر أجر يمكن دفعه ؛ وعلى المؤجر فى الحالة الثانية أن يقدم رأس المال ، أى أنه يقوم فى واقع الأمر بإنشاء مزرعة جديدة : ويكون استئجاره الأرض على هذا إما للأبد أو لعدد كبير من السنين ، ويدفع عادة أجراً يساوى عشر المحصول . وربما كان يلزم بمقتضى شروط أخرى ، أن يؤدى لصاحب الأرض خدمات ، أو أن يؤدى إليه أجزاء من المحصول . أما المزارع المالك لأرضه فقد كان حقه فى حرية التصرف فى أرضه خاضعاً لشرط جديد .

وكانت روابط القرابة فى الجماعات القروية متينة جدا بطبيعتها . وإذا وجدنا هناك فلاحيْن مشتركين فى ملكية أرض ، فلابد أن نجد أنهما متصاهران فى نفس الوقت غالباً . فإذا أراد أحدهما بيع نصيبه كله كان لقريبه حق الشفْعة إذا دفع ثمناً مساويا لما يدفعه أى غريب عنهما ، وحتى إذا لم يكن المتجاورون أقرباء وكانوا شركاء ، تمتعوا بحق مشابه .

وبعد فترة من الزمن أصبح هذا المبدأ يستند على أساس

جدّ فيما بعد واتسع ميدان تطبيقه ؛ فجماعة القرية كما رأينا مسئولة معا أمام الدولة عن الضرائب . فإذا بقيت قطعة من الأرض المنزرعة بدون زراعة بسبب طارئ ، كهروب صاحبها مثلا ، أجبرت الدولة مالكا قادرا على أن يتولى زراعة تلك الأرض ، وألزمته بالأموال المقررة عليها ، وذلك لكي تؤمن الدخل . ولا يشترط في هذه الحالة إلا أن تكون مساحة هذه الأرض متوسطة إذا قورنت بأملاكه الأولى . وأخذ كل عضو من الجماعة تبعا لذلك يهتم بإيفاء دين الآخر . وأصبح حق الشفعة في النهاية من حق كل فرد في القرية ، بل أصبح يعتمد على مصلحة المجموع المالية لا على القرابة والمجاورة .

لكن حق المزارع الحر في التصرف لم يكن يخلو من خطر ، فقد كان المالك الكبير دائم السعي لتوسيع ملكه ، فكان من السهل عليه أن يضطر المالك الصغير الحر إلى التخلي عن أرضه لجاره القوي . فحاول التشريع الإصلاحي في القرن العاشر أن يُحرّم على المالك الكبير حيازة أرض علاوة على أملاكه الأخرى في حدود أرض القرية ، سواء أكان هذا عن طريق الهبة ، أم لاعتبار آخر هام ، وسواء أكان المالك الكبير سيدا علمانيا أم هيئة كنسية . والحقيقة أن تشريعات قوانين مورتمان التي صدرت في انجلترا خلال العصور الوسطى في القرن العاشر ، تجد

ما يماثلها فى العصر الذى نتحدث عنه بالرغم من أنها وضعت من أجل هدف آخر. لكن هذا المنع لم يكن ليعيش طويلا فى هيئته هذه ، ولهذا عدلت القوانين التى صدرت بعد ذلك ، وأُخِذَ بالقاعدة التى تقول بأن انتقال الملكية لا يصح إلا بين ناس من نفس الطبقة الاجتماعية ، الفقير ينقل للفقير ، والغنى للغنى ، أى كل لمن هو من طبقته فى كل حالة . وتداعت القاعدة القانونية لنقل الملكية نقلا مطلقا من كل قيد أمام ما كانت السياسة ملزمة به من حماية الضعيف : وهناك تطورات مشابهة يمكن ملاحظتها بسهولة فى وقتنا الحاضر (مثل قوانين تعويضات العمال وقانون النزاع التجارى) ، ذلك أن قوة الشركة المحدودة وقوة صاحب العمل الذى يستخدم العمال ، بالنسبة للعامل اليوم من حيث علو مركزه الاقتصادى ، تشبه مركز المالك الكبير القوى بالنسبة المزارع الصغير فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وكانت سلامته تعتبر كما هى الحال اليوم ، القاعدة التى يجب أن تنحنى أمامها سائر النظريات القانونية . غير أن تشريع القرن العاشر هذا لم يكن عديم الفائدة من جهة أخرى ، فقد كانت نتيجته أن تأكد تقسيم المجتمع إلى طبقات بعضها فوق بعض ، وكان ذلك دعامة بناء المجتمع فى القرن الرابع . ويمكن اعتبار هذا التأكيد نصرا نهائيا للمبدأ القائل بأن نصوص القانون فوق نصوص العقود .

الفصل السابع

الإدارة المدنيـــة

العيوب الرئيسية للسلطان أربعة : التسويف والفساد والشدة واللين .
BACON : *of Great Plase.*

١ — الهيئة الحاكمة

يجد من يرغب فى معالجة نظم الحكم فى روما الشرقية نفسه أمام أحد أمرين : إما أن يكتب كثيراً جدا أو قليلا جدا ، لأن الموضوع على جانب كبير من التعقيد . ولما كنا مقتنعين بضرورة الإيجاز المناسب لهذا المقام ، وحريصين على ما فيه نفع القارئ ، فسنسلك الطريق الثانية .

كان الأساس فى تنظيم دقليديانوس وقسطنطين الإدارى ، هو الفصل التام بين واجبات القائد العسكرى *(dux)* والحاكم المدنى *(Praeses)* . واقترن هذا بانقاص حجم الولايات بوجه عام حتى لا ينفرد القائد أو الحاكم بسلطة ربما تخلق منه منافساً خطراً للعرش . وتحتم جمع السلطة فى يد الإمبراطور . فتكونت لهذا الغرض هيئة حاكمة منظمة . وأصبح الحاكم المطلق مصدر

التشريع . وحرص هذا الحاكم على أن يهيمن على التشريع من جهة أخرى ، فجعل للناس الحق فى استئناف القضايا إليه إذا لم تعجبهم الأحكام . فكان الإمبراطور مصدر السلطة والقانون على السواء ، يفسر هذا القانون ، ويضع حدود هذه السلطة التى منحت له .

وحينما تطور نظام إدارة الإمبراطورية كما نراها مثلا زمن ثيودوسيوس الأول ، حوالى نهاية القرن الرابع ، نجدها مقسمة إلى أربعة أقسام يسمى كل منها لواء *(Praefectura)* ، وعلى رأس كل منها أمير لواء إمبراطورى *(Praefectus Praetorius = Praetorian Prefect)* ، وينقسم كل من هذه الأربعة بدوره إلى عدد من الأقسام الإدارية *dioceses* يشرف على كل منها نائب أمير لواء *(Vicarius)* ، وكل قسم إدارى من هذه الأخيرة ينقسم إلى عدد من الولايات *provinces* على كل منها وال يخضع عادة لنائب أمير اللواء ، وهذا الأخير يخضع لأمير اللواء . وكان أمير اللواء مسئولا أمام الإمبراطور . وهكذا أصبح أمير اللواء الآن جزءا من الهيئة الحاكمة المدنية ، وهذه هى نهاية الطريق الذى تطورت خلاله هــذه الوظيفة فى القرنين الثانى والثالث تطوراً متزايداً اكتسبت به طبيعتها القضائية والمدنية بالتدريج .

أما علاقته الوحيدة بالأمور العسكرية فقد نشأت فى ذلك الحين من واجبه فى الإشراف على تسجيل الأمداد للجيش ، وعلى توفير جرايات الجند . وكان من الطبيعى أيضاً أن يستشار فيما يختص بحركات الفرق العسكرية داخل لوائه . وكان الإمبراطور يوجه إليه القوانين التى يطلب منه تنفيذها فى الولايات التى يديرها ، وله الحق فى إصدار منشورات على شريطة ألا تتعارض مع القوانين ؛ فيقرر مقدار ما يجب تحصيله من الضرائب فى كل ، سنة مع العلم بأن موافقة الإمبراطور كانت ضرورية عند زيادة الضرائب أو تخفيضها . وكان يشرف على الولاة عن طريق نوابه . بيد أنه من المهم أن ندرك أن النائب فى قسمه الإدارى لم يكن مجرد وكيل لأمير اللواء ، فقد كان فى مقدوره أن يرفع تقاريره للإمبراطور مباشرة ، لأن الأخير هو الذى كان يعيّنه .

وهكذا نرى قيام نظام محكم متقن يمنع كل عنصر فيه العناصر الأخرى من الجموح : فقد كان الإمبراطور يرسل مبعوثين خصوصيين يتفقدون الإدارة المحلية ، وكان كل من الموظفين ينظر بعين الحسد إلى أعمال زميله . وكان الإمبراطور يستطيع فى الوقت نفسه أن يتصل بالنائب ، حاكم القسم الإدارى ،

عن طريق أمير اللواء الإمبراطورى حيناً ، ومباشرة حيناً آخر. ومن هنا نرى أن الحاكم لم يعد تلك القوة الوحيدة فى القسم الإدارى ، إذ كان إلى جانبه قائد عسكرى يمارس سلطة كسلطة الحاكم ، لكنه مستقل عنه فى الوقت ذاته .

وكان كبير الوزراء فى العاصمة رئيس الإدارات كلها [*Magister Officiorum*] ، فكان حرس القصر يخضعون لإشرافه ؛ وكذلك كانت تخضع له دور الصناعة . وكانت جميع المراسلات مع حكام الولايات بين يديه ، وكان يشرف على الدواوين الأربعة التى كانت تهيمن على المراسلات الإمبراطورية . ولما كان كبير الوزراء هذا يشرف على تقديم السفراء ، فقد كان فى مقدوره أن يحدث أثراً كبيراً فى السياسة الخارجية ؛ فكان أيضاً يراقب نظام البريد الذى كان يجعل البلاط على اتصال دائم بالحكام . وإذاً فقد كان سلطان وظيفته يزداد باستمرار على حساب أمير اللواء . وكان وزيرا المالية الكبيران هما الكوند *Count*[1] المشرف على الهبات المقدسة ، والكوند المشرف على الأملاك الإمبراطورية [*Comes Rerum Privatarum*]

(١) قد سمى *Comes Sacrarum Largitionum* نسبة إلى الهبات *largitiones* التى كان الإمبراطور يوزعها بين الجند فى مختلف المناسبات .

ولم يكن الأول ، كما يمكن أن يوحى اسمه ، مجرد موزع أعلى لصدقات الإمبراطور ، فقد أصبحت مالية الإمبراطور الآن خزانة الدولة ، وأضحى رئيس الهبات المقدسة مسئولا عن مالية الإمبراطورية بوجه عام . وأما رئيس الأملاك الامبراطورية فقد كان يدير أملاك الإمبراطور الشاسعة التى تضخمت على حساب الحكام السابقين الذين صودرت أملاكهم . وكان لأمراء الألوية بيوت مالهم الخاصة التى كانوا ينفقون منها على مطالب الجيش . وكان زمام العاصمة فى يد محافظ المدينة[1] ، بينما كانت تقوم جماعات منظمة من فرق الملعب بدور الشرط .

وقد نشأت الحاجة إلى هيئة إدارية امبراطورية واسعة لها أنظمتها الثابتة وطبقاتها المتميزة عن تقسيم الولايات إلى وحدات أصغر ، وضرورة وجود هيئة حاكمة جديدة من الموظفين . وقد استتبع قيام نظام الإدارات المركب بعضها فوق بعض نشوء سلسلة من الألقاب الرنانة بعضها فوق بعض . وكانت الغاية التى كان يهدف إليها فصل السلكين المدنى والعسكرى ، هى تركيز السلطة

(١) كانت وظيفة محافظ المدينة تأتى فى الدرجة الثانية بعد وظيفة أمير اللواء الامبراطورى *Praetorian Prefect* . وكان محافظ المدينة يشرف على النظام والأمن فى العاصمة ، وكان مسئولا عن المؤن والنقابات *Collegia* .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, p. 282 ;
RUNCIMAN : *op. cit.* p. 85.

وزيادة صلاحية القائمين بأمرها . ونشأ عنه فى الوقت ذاته تقليد إدارى ثابت . وكانت متانة هذا السلطان المسرف فى المحافظة تقوم وكأنها أداة تمنع السير فى التجديد بعجلة . وربما ناصر الإمبراطور أساليب جديدة أو غيّر بعض أسس الحكم ، لكنه كان إنسانا كغيره من الناس . أما عمر النظام الإدارى فكان طويلا . ولهذا كان الناس يعودون إلى السبل القديمة المطروقة . وكانت أية بدعة تصدر عن أى امبراطور لابد وأن تتلاشى أمام قوة ذلك الحشد من موظفى الدولة الراسخة ؛ إلا أننا نجد من ناحية أخرى أن هذه السطوة التقليدية الثقيلة حطمت أمل كثير من المصلحين وإرادتهم . وإن قراءة منشورات جستنيان تزيح النقاب عن النهاية الأليمة التى كانت تترصد النوايا الحسنة التى كانت تخامر الأباطرة .

ولقد تداعى نظام الإدارة « المقدس » ، تحت ضغط الهجمات التى توالت على الإمبراطورية خلال القرن السابع . وحينما أعيد بناء النظام من جديد ، جعل أساسه التناسق بين الموظفين بدلا من إتباع بعضهم لبعض كما كان الحال قبلا . فبقى نظام الرتب المتتابعة قائما بل زاد إحكاما ، واختفى نظام الوظائف السابق . فأصبحت الولايات أقساما عسكرية يحكمها قائد عسكرى (انظر

الفصل الثامن) لكنه كان يتلقى الأوامر من الإمبراطور وحده ، واختفى رؤساء الجند وأمراء الألوية الإمبراطورية . فكانت نتيجة ذلك أن زادت وظيفة محافظ المدينة أهمية . وانهدمت الوزارات المركزية الكبيرة ، وهى رياسة الدواوين ، « وكونتية الهبات المقدسة » و « كونتية الأملاك المقدسة » وما كان يتبع كلا منها من إدارات ، وحل محلها عدد عظيم من الدواوين يكمل كل منها عمل الآخر ، وخص كل منها بعمل خاص ؛ بينما ظهر إلى الوجود وزير وحيد للمالية *Sacellarius* ، الذى أصبح فى القرن التاسع يشرف على الوظائف التى تتعلق بالمالية أو إدارة موارد الدخل إشرافا عاما ومنظما . وقد خفف هذا إلى حد ما من أثر النقص الذى نتج عن عدم وجود ديوان مالى وحيد مركزى .

وعلى الرغم من أن سلطة بعض الوظائف فى السنين الأخيرة (مثل وظيفة محافظ المدينة) قد اضمحلت وخلقت وظائف جديدة ، فقد بقيت الخطوط الرئيسية لهذا النظام حتى سقوط القسطنطينية فى ١٢٠٤ : ولو نظرنا إلى تاريخ القرن الثانى عشر من زاوية معينة لرأينا أنه كان فى الواقع صراعا على السلطان بين موظفى الدولة والارستقراطية العسكرية فى آسيا الصغرى . ولقد عاش التقليد الإدارى رغم الصعوبات المالية ورغم الأخطار الكثيرة .

وكانت حكومة روما الشرقية أداة فعّالة للحكم ، ومنظمة تنظيما علميا على الرغم مما كانت تتكلف من نفقات باهظة ، وعلى رغم ما كان يشوبها من الفساد و بطء حركتها وقلة مرونتها أثناء العمل : وجعلت هذه الحكومة قيام تلك الحياة الاجتماعية المؤسسة على حكم القانون أمرا ممكنا . وذلك هو ما كانت تمتاز به الإمبراطورية عن البلاد الواقعة خلف حدودها .

٢ — إدارة القضاء

ومن الطبيعى فى هذا المقام أن نعالج موضوع القضاء فى العالم الرومانى الشرقى باختصار . كان الحاكم المطلق كما رأينا المرجع الأخير فى تفسير القوانين التى يذيعها . وكان فى الإمكان استئناف أحكام جميع المحاكم للامبراطور ، إلا إذا كان الحكم — كما كان الحال فى الفترة الأولى — صادرا عن محكمة « أمير اللواء الإمبراطورى كممثل للامبراطور » ، فكان الحكم الصادر عنه حكما نهائيا . وكان فى استطاعة الإنسان إذا ظن نفسه مظلوما أن يقدم شكواه إلى وزارة الالتماسات ، فإذا لم ينصَف ، كان فى استطاعته أن يلجأ للامبراطور نفسه : ولهذا كان ثيوفيلوس يستمع بانتظام ، أثناء مرور موكبه الأسبوعى خلال

العاصمة إلى كنيسة العذراء فى بُلخرناى *Bulchernae* ، إلى ظلامات المتظلمين . وقد رأس القضاء ، بعد أن ألغيت وظيفة أمير اللواء ، محافظ العاصمة يساعده الإكوستر ، مع أن حق المحافظ فى مباشرة القضاء انتقل منذ منتصف القرن الحادى عشر إلى الأميرال الأعلى *(Great Drungarius)* .

وكانت فى القسطنطينية أيضاً محكمة عليا تتألف من اثنى عشر قاضياً كان الإمبراطور يحيل إليها قضايا قانونية هامة لتفصل فيها ؛ وكانت تحال القضايا الأقل أهمية إلى المحاكم الدنيا التى لا نعرف عنها إلا القليل . أما خارج العاصمة فقد كان يقوم على القضاء قضاة الولايات الذين كانت أحكامهم عرضة للاستئناف .

وكان للمحاكم الكنسية إذا كان المُدَّعَى عليه رجلا دِينياً تشريع خاص ، بينما كان فى إمكان المتخاصمين أن يحيلوا قضاياهم للمحاكم الكنسية إذا اتفقوا فيما بينهم على ذلك . وقد أمر الكسيوس كومنينوس أن تحكم المحاكم الكنسية فى المسائل المتعلقة بالزواج ، أو المؤسسات الدينية التى أوقفها واهبوها على الخير تزكية لأرواحهم (١٠٨٦ ب . م) ؛ وكانت هذه المحاكم الكنسية تفصل فى جميع القضايا المدنية عموماً إذا ما كان المدَّعَى عليه من رجال الدين . ولقد تلاشت الفوارق الواضحة بين المحاكم

الكنسية والمدنية فى القرون الأخيرة من الإمبراطورية الثانية . ولم يتضح تأثير رجال الدين الناشئ فى القضاء إلا بعد غزو الأتراك .

وكان أهم مميز لقانون الجنايات البيزنطى كثرة استخدام عقوبات قطع الأعضاء . وكان الأباطرة اللايقونيون هم الذين أدخلوا هذا الأمر كمبدأ عام ، وربما رجع فى أصله إلى إجراء جرت به العادة — وربما قيل فى الدفاع عن ذلك أنه كان يُكتفى بقطع عضو من أعضاء الإنسان فى الحالات التى كانت عقوبتها الموت أيام جستنيان ؛ وربما قيل أيضاً إن عقوبة الإعدام فى الحقيقة قد أخذت لهذا تختفى ، إلا أننا يجب أن نعترف بأن هذه الحجة لا تنطبق على حالات كثيرة حيث كان القانون الجنائى الأخير يحكم على المذنب بأن تسمل عيناه ، أو أن يجدع أنفه ، أو أن يخسر يده أو لسانه . وقد تطور هذا القانون الموروث على يد الأتراك بعد سقوط القسطنطينية . حقاً ، لقد كان « حق الالتجاء » يخفف من قسوة المشرّع فى هذه الناحية إلى حد كبير — ذلك الحق الذى كان يبيح لرجال الدين أن يُجيروا المتهم طيلة وجوده فى أفنية الكنيسة ؛ ولكن هذا الحق لم يكن يسرى على طبقات كثيرة من المذنبين . وكانت مصادرة الأموال — بالإضافة إلى قطع الأعضاء — أسلوباً من أساليب العقاب

الشائعة الاستعمال ، بعكس السجن الذى لم يكن حتى القرن الثانى عشر — على الأقل — يُحكم به إلا ليحول دون هرب المجرم قبل المحاكمة(١) . وقد لاحظ زكريا فون لينجنتال *Zachariae von Lingenthal* منذ زمن طويل أن الرجل البيزنطى كان يعتبر تمضية أيامه دون أن يعمل شيئاً أمراً لطيفاً لا مشقة فيه .

لقد جاهد الأباطرة المتعاقبون فى سبيل تمهيد الطريق للشعب لإثبات حقوقهم . وقد كانت هناك محاولة لمساعدة المتظلمين من الأموال العامة ، أثناء إقامتهم فى العاصمة ، ما دامت قضاياهم معلقة . غير أن دارس التاريخ البيزنطى ينبغى عليه أن يشك فيما إذا كان الخصوم قد عمدوا إلى الذهب المغرى يدسونه فى أيدى القضاة لعلمهم أن القضاء أعمى .

٣ — المالية

لا يشعر مؤرخ الدولة البيزنطية بضيق الحدود التى يحبسه فيها صمت مراجعه ، بقدر ما يشعر به عند ما يبحث المسائل المالية ؛ ويود لو أنه استطاع أن يستبدل بالتفاصيل التى يوردها إليه أحد

(١) وكان عزل المذنب عزلا إجباريا فى دير يستعمل فى حالة ما إذا كان مذنبا فى حق الدولة .

الرواة عن إحدى حروب الحدود ، شيئاً يعينه على تبين الطريقة التى كان العمل يسير عليها فى هذا النظام المالى ، الذى يرجع إليه وحده الفضل فى تمكين الأباطرة من القيام بمطالب الجيش بصورة دائمة . وعلينا أن نقر آسفين بأننا عاجزون عن إعادة تركيب الميزانية البيزنطية : وكل ما فى استطاعتنا دراسته بصفة عامة هو العناصر الرئيسية للإنفاق ، والموارد الرئيسية للدخل .

كان أول واجبات الإنفاق فى الدولة هو الإنفاق على الدفاع ، أى تكاليف الجيش والأسطول والحصون التى على الحدود والموانىء وذخائر الحرب وعطاءات الجنود المرتزقة . وقد اكتشف أكثر من امبراطور واحد ، كما فعل جستنيان ، أن خططه فيما يتعلق بالتوسع الحربى غير عملية ، لأنها تفوق بكثير موارد الإمبراطورية . وكانت هناك نفقات البلاط التى لم يكن هناك سبيل لتقليلها مع أنها كانت باهظة ، إذ أن نظرية الدولة البيزنطية فى الحكم لم تكن تعتبر أبهة البلاط شيئاً مظهرياً بل عنصرا هاما من عناصر السياسة الإمبراطورية . وكان يبررها تصورهم للحكم المطلق الذى كان فى أساسه دينياً : فعلى الإمبراطورية الزمنية أن تكون مرآة للأبهة الإمبراطورية السماوية ، وهكذا كانت الأعياد الدينية ، والدنيوية ، والمواكب والاستقبالات وسفرات ورحلات رجال

البلاط ، تحمل الخزينة ما لا طاقة لها به . وكانت العادة بالإضافة إلى هذا تحتم فى مناسبات مثل هذه تقديم هدايا للموظفين الكبار ورجال الدين ، بينما كان فقراء العاصمة يحظون بنصيب من المنح الإمبراطورية . وكان وجود الإمبراطور كفيلا بالتخفيف من آلام المصابين حين تنزل الكوارث بإحدى الولايات ، كأن يثور بركان مثلا . وكانت الدولة تعمل على إعادة بناء المدن المهدمة ، أو كانت تقوم بإعفاء عام من الضريبة لعدة سنين إذا دعت الضرورة لذلك .

ولقد استنزفت المبانى العامة التى بناها الأباطرة مبالغ ضخمة ، بينما كانت الدولة تنفق مبالغ طائلة فى القرون الأولى على توزيع الخبز واللحم والخمر والزيت على سكان العاصمة . وقد اضطر الإمبراطور بسبب الأزمة المالية فى السنوات العشر الأولى من حكم هرقل إلى أن يكف عن هذا التوزيع ، وليس هناك دليل ظاهر على استئنافه فيما بعد . وكان القمح لا يزال يخزن فى الدولة العامة ، إلا أن ذلك على ما يظهر كان يعد لمواجهة حاجات الجيش .

بيد أنه كان من الواجب المحافظة على المنشآت العامة فى الإمبراطورية ، مثل القناطر التى يجرى عليها الماء ، والصهاريج والطرق والقناطر — بينما كانت تجبى ضريبة خاصة لإصلاح

أسوار العاصمة ؛ ولا تزال النقوش دليلاً على العناية المتواصلة التي كان يبذلها الأباطرة المتعاقبون للمحافظة على هذه التحصينات الرئيسية .

ويجب ألا ننسى في النهاية المطالب الدينية : ويشمل هذا الباب مساعدة اليتامى ، والمستشفيات ، والضعفاء الذين قعدت أيديهم عن الرزق ، وبيوت العناية بالأطفال ، وملاجئ الساقطات من النساء . وكان الأباطرة أنفسهم بيزنطيين ، فشعروا شعورا قويا كرعاياهم بجاذبية تدين الرهبان ، والحاجة للتزود بما يخلص أرواحهم ؛ وهكذا كانت المؤسسات الكنسية تستنفد مبالغ ضخمة ؛ فإذا صاحب هذه الهدايا منح جزء من الأرض الإمبراطورية ، أصاب دخل الدولة من ذلك ضرر بسبب الإعفاء من الضرائب الذي كان يُمنح إلى الدير أو المؤسسة التي وهبت الأرض لها .

وإن أي محاولة لتقدير إيرادات الدولة البيزنطية لا يمكن أن تكون إلا رجْما . وليس في أيدينا إلا عبارتان نستطيع أن نبني على أساسهما فرضنا . فقد كتب بنيامين التُّطيلي *Benjamin de Tudela* أن الدولة جبت في القرن الثاني عشر من القسطنطينية وحدها ٧٫٣٠٠٫٠٠٠ نومِسْما ، بينما وعد الصليبيون بلدوين ،

الحاكم اللاتيني للقسطنطينية ، بدخل يومي قدره ٣٠٫٠٠٠ نومسما (وهي تساوي ١٢ شلنا أي ستين قرشا تقريبا) . ويمكننا أن نضيف إلى ذلك تأكيد يوحنا برومپتون *John Brompton* أن كورفو دفعت للدولة في سنة ١١٩٠ ، ١٥٠٠ لترا *litrai* أي ما يساوي ٦٤٫٨٠٠ جنيه من المعـدن (وهو لا يُعيِّن قيمتها الشرائية) . وإنه لمن العبث أن نحاول أن نقدر دخل الدولة الرومانية الشرقية السنوي بناء على هذه المعلومات غير الدقيقة .

ما هي موارد الدخل التي كانت الدولة تنفق منها على مطالبها ؟

كانت هذه الموارد : (١) عقارات الأفراد التي تنتقل للخزينة عند موت صاحبها دون أن يترك وصيّة ، ودون أن يترك أطفالا أو أقارب . (٢) الهدايا التي كان يقدمها أفراد الرعية بصورة مباشرة (٣) ما يدفعه المرشحون لوظائف البلاط أو الخدمة المدنية (٤) دخل الأملاك الامبراطورية في آسيا . وأخيرا (٥) الضريبة المباشرة وغير المباشرة ، العادية وغير العادية .

أما عن المورد الأول فإن القانون البيزنطي لا يفصل بين الأملاك العينية والأمتعة المنقولة فيما يتصل بالتركات التي يخلفها أصحابها دون وصيّة . وحين يفشل المطالبون بالاشتراك في التركة (في دعواهم) تنتقـل جميع أملاك المتوفى إلى الدولة كخيرات

لا صاحب لها . وقد أدخل قنسطنطين بورفيروجينتوس فى القرن العاشر تعديلا أصبح ثلث التركة ينتقل بموجبه فى مثل هذه الحالات للكنيسة تزكية لروح المتوفى ، وثلثان فقط إلى الخزانة . أما عن المورد الثالث ، فقد جرت العادة فى الدولة المتأخرة أن يطالب المرشح لوظيفة ما ، بمبلغ من المال ؛ وكان مرتبه فى هذه الحالة يعتبر دفعة سنوية شبيهة بالربح فى طبيعتها . صحيح أن الموظف كان يستطيع عند تعيينه أن يزيد دخله بقبول مبالغ من المال كان الناس يَغْرَمونها له ، وهدايا وأشياء أخرى أقل شرعية ، بيد أن القاعدة هى أن مرتبه لم يكن فى الواقع إلا ربحا مقدرا على رأس ماله ، ولم تكن نسبته لتزيد فى العادة على ٣ ./. إلا نادرا(١) .

بيد أن الدولة كانت تعتمد على الضرائب للحصول على الدخل بصفة رئيسية ، وهنا كانت ضريبة الأرض مفتاح المالية البيزنطية . وقد درسنا هذه الناحية فيما يتصل بالأراضى المزروعة . أما ضريبة الإيركون التى فرضت أيام جستنيان ، فربما كانت

(١) وكانت الوظائف فى غالب الأحيان لا تخرج عن مناصب فى البلاط لا يعمل أصحابها شيئا ، إلا أنها كانت تجعل لصاحبها الحق فى مكان بين طبقات الحكام . انظر ، A. ANDRÉADÈS in *Nouvelle Revue historique de droit français.* XLV: (1921)

ضريبة مشابهة فرضت على أراضى البناء . وربما كانت هذه الضريبة على أراضى المدن تقابل الضريبة على أراضى الريف . ومن الجائز أن تكون ضريبة الموقد التى وجدت فى أيام آل كومنين هى التى حلت محل ضريبة القرن السادس المسماة إيركون .

ويظهر أن الضريبة التى كانت مفروضة على التركات وقدرها ٥ ٪ قد تجددت بالرغم من أن جستنيان ألغاها . وقد أعفى تشريع القرن الرابع عشر أعضاء مجلس الشيوخ من الضرائب البلدية ، لكنهم كانوا يخضعون لضريبة الأملاك الخاصة الـ *Gleba* . وكانوا يدفعون كذلك ضريبة غير نظامية تسمى *Aurum Oblaticium* — وهى عبارة عن مال يؤدى للإمبراطور فى أعياد جلوسه السنوية على العرش ، أو بمناسبة نصر ما . وأخيراً كانت هناك ضريبة على أصحاب الحرف سواء كان صاحب الحرفة بائعاً متجولا ، أو إسكافا ، أو خبازا أو مومسا . وكان لا بد لأهل المدينة عندما يتقدمون لبيع بضائعهم أوأجسادهم ، من أن يدفعوا هذه الضريبة . وبالرغم من أن هذه الضريبة كانت تجمع نظريا فى كل خمس سنين عند الاحتفال

بعيـد الإمبراطور الخامس ، إلا أنها كانت فى الواقع تجبى فى مناسبات أكثر من هذه . وفى أول الأمر كان الفلاحون يعفون من هذه الضريبة حين يجلبون بضائعهم للسوق . وبالرغم من أن أناستاسيوس ألغى هذه الضريبة المقيتة ، فقد حلت محلها ، كما يظهر ، ضريبة أخرى مشابهة بعد وقت قصير . وقد كسبت الإمبراطورة ايرينى محبة الشعب حين ألغتها .

وكان دخل الدولة كبيراً من ضرائب أخرى غير مباشرة ، وذلك من المكوس الموضوعة على التجارة فى محطات : مثل *Jotabe*[(١)] (أى على التجارة الشرقية الآتية عن طريق الخليج العربى) وأبيدوس . بينما كانت الدولة تضع العراقيل فى طريق الاتجار بالأشياء المحرمة ، وذلك بأن تبذل أموالا للمخبرين عنها . وكانت هذه الجمارك تراثاً من أيام الإمبراطورية الأولى ، وتعيننا فقرة من القانون ترجع إلى عصر الانطوانيين على وضع قائمة بأهم المواد التى كانت تدفع الضريبة . ويمكننا أن نذكر منها البهارات

---

(١) جوتابه *Jotabe* محطة تجارية تقع على طرق شبه جزيرة سيناء . وكانت تحصل فيها المكوس على التجارة الآتية من الشرق ، وقد كانت تابعة للامبراطورية الشرقية .

انظر : J.B. BURY, *Later Roman Empire*, Vol. ii p. 8., RUNCIMAN, *op. cit.*, p. 165.

والقطن الخام والجلود الغالية من بابل (العراق) وفارس ، والعاج والأحجار الكريمة والأصبغة والأصواف الشرقية . وكذلك كانت تحصل مكوس على العبيد والغلمان والخصيان .

وقد ضاعفت خزانة الدولة مواردها بتحصيل المكوس فى الثغور ، والرسوم من الأسواق ومن أرباح احتكارات الدولة كصناعة الحرير . وكان للحاكم المطلق أن يسخر الشعب فى المحافظة على المحطات وتموين خيل البريد الإمبراطورى ، وإضافة السفراء ، وموظفين غيرهم فى رحلاتهم فى الولايات . ويمكننا ذكر الضرائب المفروضة على المحاكم كآخر مورد للدخل ، بينما كانت مصادرة أملاك أحد الرعايا ، كنوع من أنواع العقاب ، بمثابة طريقة مغرية للخلاص من الارتباكات المالية .

وحين ندرس نظام المالية البيزنطية نلحظ اتجاهها المتزايد إلى استبدال الدفع عيناً بالنقد ؛ وكان لهذه الثروة الذهبية التى كان يملكها الإمبراطور الرومانى الشرقى أهمية لم يدركها الناس دائماً تمام الإدراك . ولم يكن هناك ضريبة مباشرة على الأرض فى الدولة الجرمانية الغربية . فكان الملك مضطراً إلى أن يتكل على مدخوله من أراضيه الملكية الخاصة ليقوم بمصاريف البلاط : ولم تكن رواتب موظفى التاج تؤدى نقداً ، بل على صورة منح

من الأرض . ولم يكن مثل هؤلاء يدفعون الضريبة المباشرة التى كانت تفرض لتواجه حاجات الدولة أولا بأول ؛ لكنهم كانوا يجبرون فقط على القيام بخدمات معينة تحدد تحديداً دقيقاً .

إلا أن تعويض الموظفين عن أعمالهم بمنح من الأرض أوجد علاقة دائمة بين الأرض ومن منحت له ، وكانت النتيجة الطبيعية أن أصبحت الحقوق التى كان يمارسها الموظف المُقطَع فى الأرض وراثية . وبما أن الملك لم يكن يستطيع زيادة أراضيه حسب إرادته فقد أخذ يفتقر تدريجاً : وكان عليه إذا أراد أن يزيد فى أمواله أن يصادر إقطاعية تابعه ، أو يسعى لتوسيع رقعة أراضيه . ومن هنا نستطيع أن نفسر كثيراً من اعتداءات حكام الغرب فى العصور الوسطى الأولى ، وخاصة فى خططهم لغزو إيطاليا : غير أن هذه العملية كانت تطبق فى الأراضى المفتوحة ؛ فإذا ضعفت الدولة المركزية ، كف التابع عن تأييد الحاكم المطلق ، وربط نفسه بمصالح إقليمه المحلية ، ولم يكن هناك سبيل لإعادة السلطة الإمبراطورية سوى التدخل العسكرى . وهكذا أصبحت أية دولة غربية أعجز من أن تعد جيشاً أو أسطولا : وكانت جيوشها تجمع من أجل حملة حربية (وقتية) لا لمدة الحرب بطولها : وكان نشاطها الحربى على ذلك متقطعاً غير مستمر .

فإذا وجهنا نظرنا نحو الدولة الشرقية وجدنا الفرق واضحاً : فهنا كان القواد يتقاضون رواتبهم بالنقد لا بالمنح من الأرض ، فاحتفظت الدولة المركزية بسيطرتها . وكان نقدها المتوفر أيضاً قابلا للزيادة ، لأن مُلاّك الأرض يخضعون لضرائب تتغير قيمتها . وهكذا لم تكن زيادة ثروة التاج تعنى ضرورة مصادرة الأملاك أو الغزو الخارجى ؛ وعلى هذا فقد أمكن قيام جيش أو أسطول امبراطورى ، وأصبح فى الإمكان إيجاد جيش تطول مدة الخدمة فيه ، فيتدرب أفراده تبعاً لذلك ، وينظم تنظيما فنياً . وبذلك أصبح من الممكن استمرار الضغط على العدو ، بحيث لا يتعرض هذا الضغط للتقطع والتراخى .

ويمكننا إيجاز ذلك إذا قلنا إن جهد الدولة كان مستمراً ، لا مجرد تشنج وقتى تدفع إليه الظروف . وهنا نجد سر نجاح روما الشرقية . وإذا كان بعض الأباطرة مسرفين ، إلا أن النظام المالى ظل قائماً ، وكان يتبع فترات الإسراف فترات تعويض . وكان أعجب ما فى المالية البيزنطية استمرارها الذى ارتكز إلى حد بعيد على نقاء عملتها الذهبية : ويقول جلزر *Gelzer* ، « لم تجد الحكومة الرومانية من دقليديانوس إلى ألكسيوس كومنينوس فى فترة مدتها ٨٠٠ سنة نفسها فى وضع يضطرها إلى إعلان

إفلاسها ، أو التوقف عن الدفع . ولن نجد فى العالم القديم أو الحاضر شيئا يشبه هذه الظاهرة . لقد ضمن هذا الاستقرار العجيب فى السياسة المالية الرومانية « للبيزنطى » عملته العالمية ، فقد كانت مقبولة عند جميع الأمم المجاورة بسبب وزنها المضبوط كأساس ثابت للتعامل . واستطاعت بيزنطة أن تسيطر بنقودها على كلا العالمين المتحضر والبربرى » .

الفصل الثامن

الجيش والأسطول

« لابد للدولة إذا كانت تحرص على المجد والسلطان من أن تكون الحرب مناط شرفها وموضع دراستها وعملها »
بيكون «عن الممالك»

١ — الجيش

ليس تاريخ روما إلا تاريخ الجيش الرومانى ؛ ولا يصدق اعتبار بيزنطة وريثة روما فى شىء بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية . لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتائبها . وكان المشاة أساس قوة الكتائب . وإن أبرز ظاهرة فى تاريخ الجيش الرومانى فى أدواره الأخيرة هى أن سلاح الفرسان أخذ يتفوق بالتدريج . أما فرق المشاة القليلة الباقية فقد أخذت مكانة ثانوية بالنسبة له . وكانت تلحق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان فى الأصل جماعة من الفرسان يجند أفرادها من حلفاء روما *(auxilia)* ، ويرجع الفضل لبعد نظر جاليانوس الذكى السيئ الحظ ، فى إدراك حاجة الإمبراطورية الماسة إلى فرق

متنقلة من الفرسان تكون وحدات منفصلة ومستقلة عن الفرق . وكانت قوة الفرسان الجديدة المتحصنة بدروع الزرد ، على نهج النظام الفارسي المسماة « كاتافراكتى » *Cataphracti* مثار دهشة كتاب القرن الرابع ؛ وكان الصراع المخيف بين قنسطنطيوس ومنافسه الإمبراطور ماجننتيوس أول معركة عظيمة خاضها الفرسان ، وهى معركة مورسا . وتتجلى أهمية الفرسان فى كل موضع فى كتابات أميانوس مارسيللينوس *Ammianus Marcellinus* فى الحروب مع فارس فى القرن الرابع . ثم جاءت هزيمة الرومان فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨ م فأكدت أهمية هذا السلاح ، لأن القوط كسبوا المعركة بهجمة رائعة قام بها فرسانهم . وكثيراً ما نقرأ فى كلام بروكوبيوس عن حروب جستنيان أن بعض جيوشه كان مؤلفا من الفرسان فقط . ولما أعيد تنظيم الجيش فى عصر البيت الهرقلى ، وأدخلت إصلاحات حربية أيام الأباطرة الايسوريين ، تأكد تفوق الفرسان نهائياً . وقد كسب المقدونيون انتصاراتهم باعتمادهم الرئيسى على الفرسان .

ولابد أن نتتبع تاريخ تنظيم الجيش الرومانى باختصار . إن النظام الذى أدخله دقلديانوس وقنسطنطين على الجيش كان يقوم كما نعلم على فصل السلطتين المدنية والعسكرية . وكان هدفه أن

يعد العدة للدفاع عن الحدود ، وأن يوجد إلى جانب حراس الحدود قوة متنقلة يمكنها أن تتوجه لنجدة أية ولاية يهددها خطر الغزو . وقد ألغى الحرس البرايتورى [الامبراطورى] وتكون حرس جديد يسمى « كوميتاتنسيس » *Comitatenses* [١] ، وهم أولئك الذين يلحقون بالحلقة ، أى حاشية الإمبراطور . وذهبت مع أمس الدابر الأيام السيئة التى كان الحرس الامبراطورى يصنع الملوك فى إبانها . ومنحت قوة الحدود *linitanei* هبات من الأرض يمكن نقلها إلى الغير . وكان الابن ملزماً بالوراثة بأن يأخذ مكان أبيه .

وأصبحت فرق الرُّدفاء [٢] *Comitatenses* ، والفرق التى جندت فيما بعد ، وأطلق عليها ذلك الاسم الغريب *Psuedo Comitatenses* (أى الشبيهة بفرق الردفاء) الجيش الإمبراطورى ، وأخذت فرق جديدة للبلاط ، تسمى تارة بالحُماة *Protectores* وتارة بجنود القصر *Domestici* ، بدورها مكانها كحرس للبلاط .

---

(١) نسبة إلى *Comitatus* ، وهى جماعة رفقاء الامبراطور .

(٢) « ردفاء » جمع « رديف » ، وقد ترجمنا به لفظ *Comitus* وهو الواحد من حلقة المحاربين التى كانت تحيط بالزعيم المتبربر أو بالإمبراطور وعلى هـذا يمكننا ترجمة *Comitatus* وهى جماعة المحاربين الملتفة حول الإمبراطور أو الملك المتبربر بلفظ « ردافة » .

وكان يقود قوة الحدود فى كل ولاية قائد *(Dux)* . وكان الجيش الإمبراطورى تحت إمرة رؤساء للمشاة والفرسان يسمون *Magistri* : وقد جمع بين المشاة والفرسان فيما بعد تحت قيادة واحدة يقوم بها رئيس المشاة ، أو رئيس الفرسان ، أو رئيس فى سلاحى الفرسان والمشاة معاً فى نفس الوقت . وقد ظل هذا النظام فى جوهره ثابتاً زمن جستنيان ، مع أن عدد البرابرة المشتغلين فى فرق مستقلة تحت إمرة قواد من جنسهم قد ازداد زيادة كبيرة منذ أن كون ثيودوسيوس الكبير فرقاً من بين القوط ، حلفاء الرومان . هذا بينما ازداد العنصر المتبربر فى الجيش النظامى زيادة مستمرة . وكانت أخطر بدعة ، على كل حال ، هى إدخال نظام شبيه بالنظام الذى كان معمولا به فى الغرب ، حيث يلتحق الرجال بخدمة قائد معين يلتفون حوله أكثر مما يلتفون حول الدولة . ومن الجلى أن الجند « الذين كانوا يخدمون مقابل جراياتهم » (ويسمون *Buccellarii* نسبة إلى *buccellum* ، أى خبز الجنود الجاف) قد أخذوا يميلون ميلا ظاهراً إلى التراخى فى اتباع نظام الجيش ، وصفحات بروكوبيوس مليئة بأمثلة على تمرد الفرق الرومانية — وذلك نقص فى النظام كان له ما يبرره فى الغالب ؛ فقد كان دفع أعطيات الجند يتأخر عن موعده باستمرار ،

وكانت حاجياتهم غير كافية بشكل لا يشرف . ومع هذا فإن بروكوبيوس يصف رامى السهام من على ظهور الخيل فى عصره بفخر لا نعيبه عليه .

خالف جستنيان فى حالات عدة المبدأ الأساسى الذى جرى عليه دقلديانوس وقسطنطين فى إصلاحاتهما حين جمع بين السلطتين المدنية والعسكرية . وقد اتجه موريس نفس الاتجاه فيما صنعه حينما استحدث وظيفة الاكزرك ، أى القائد العسكرى الأعلى ، فى إيطاليا وافريقية ، وجعل الحاكم المدنى أقل مكانة منه . وكان القرن السابع كما رأينا فترة حروب مستمرة ؛ وأُخذ تدريجاً بتقسيم الإمبراطورية إلى ولايات ثغرية فى إبان الدولة الهرقلية ؛ وتنقصنا المادة التى نستعين بها فى تتبع تاريخ هذا التطور . بيد أن هذا النظام كان يقوم على الحاجات العسكرية ؛ فالقائد العسكرى أعلى مرتبة من الحاكم المدنى . وتبدو لنا أهمية الولايات الثغرية *themes* فى آسيا الصغرى ، أثناء تكوين هذا النظام الجديد ، فى الحقيقة التالية : وهى أنه كانت لقواد الولايات الثغرية الشرقية الأسبقية فى البلاط ، وكانوا يتقاضون رواتب أعلى . وقد عمل الحكام الإيسوريون على إتمام هذا التنظيم فى الإمبراطورية ، فأصبح القائد العسكرى يجمع بين السلطة العسكرية والمدنية .

وهكذا عادت روما إلى ما كانت عليه زمن الجمهورية : كان الحاكم المدنى عندئذ قائداً أيضاً إذا دعت الحاجة ، وأصبح القائد الآن حاكماً مدنياً أيضاً . ولنقتبس هنا ما يقوله الأستاذ بيورى *Bury* الذى ساهم بنصيب مشكور فى توضيح تفاصيل التنظيم البيزنطى العسكرى فيقول : « كان تحت إمرة قائد الولاية الثغرية الواسعة (الاستراتيجوس) جيش قوامه عشرة آلاف جندى . وكان لنظام الفصائل والقيادات التابعة شبه ملحوظ بتنظيم بعض الجيوش الأوروبية الحديث . ولم تكن الخطة المدونة ، كما يظن ، واحدة فى جميع الولايات الثغرية ، ولم تثبت على حال كذلك بتغير الأزمان . وكان الفيلق ، ثيما *Thema* ، يتألف من فرقتين ، تسمى كل منهما تورما *turmai* يقودها قائد فيلق ، يسمى تورماأرخارى *turmarchai* — وكانت التورما مؤلفة من خمس فرق *(banda)* كل منها تحت إمرة ضابط (= كولونيل *drungarius*) . وكانت الفرقة المكونة من خمس فرق خماسية *Pentarkhiai* تحت إمرة قائد يسمى *Komites* . وكانت الفرقة الخماسية *Pentarkhia* (= بَنْتارْخيا) تضم مائتى رجل ، وتنقسم إلى خمس فصائل كل منها تحت إمرة ضابط يسمى (*pentekontarchia* = لفتنانت) . وكانت هناك وحدة من

عشرة رجال تحت إمرة جاويش (يسمى *dekarches*) . وكان مجموع الجيوش فى القرن التاسع مائة وعشرين ألف رجل ؛ ويقدر فى زمن جستنيان بمائة وخمسين ألفاً » .

وإذا تأمل الإنسان هذه الأرقام على ضوء ما نعرفه من اعداد جيوش الدول الحاضرة ، التى تحكم الآن تلك الأراضى التى خضعت مرة للإمبراطورية الرومانية ، فإن أعمال جيوش بيزنطة الصغيرة سوف تنال بحق مزيداً من استحسانه .

وكان سكان الولايات الثغرية المختلفة يتحملون نفقات الجيوش القائمة فيها . وكانت هذه النفقات تؤدى فى الولايات الثغرية نقداً للخزينة المركزية . أما فى الغرب ، فكانت تدفع عيناً . وقد قيل إن هذا الفرق يعزى إلى الحقيقة التالية ، وهى أن معظم سكان الغرب كانوا زراعا صقالبة مشتغلين بالزراعة ، بينما كانت المدن التى يقوم اقتصادها على النقد منتشرة فى المقاطعات الإغريقية الواقعة على الساحل . وعند ما حاولت الحكومة المركزية فى القرن الثانى عشر أن تدخل إلى الغرب طريقة التعامل بالنقد ، المعمول بها فى الولايات الثغرية الشرقية ، ثارت بلغاريا ، وولدت الإمبراطورية البلغارية الثانية .

ومعلوماتنا عن الجيوش فى الولايات غير كافية لإعطائنا

صورة وافية عن قدرها وتنظيمها . غير أنه فى استطاعتنا أن نتبين نظام فرق المدينة (المسماة *tagmata*) المرابطة فى العاصمة ، والفصائل المرابطة فى مقدونيا وتراقيا ، علاوة على جيوش الولايات الثغرية . ومنذ أيام جستنيان أعيد تنظيم هذه الفصائل التى كانت تتألف من حرس القصر كلية ، وأنقص عددها . وكانت القاعدة أن تكون كل فصيلة تحت إمرة « الدُّمُستق » (= *Domesticus* ، أى رئيس حرس القصر) وكان أحد هؤلاء وهو « رئيس فرق حرس القصر » *(Domesticus Scholarum* = *Domesticus of the Scholae)* الذى أخذ مكان « رئيس الإدارات » قد أصبح فى القرن العاشر القائد العام للجيش كله . وكانت فرق القصر هذه تشترك اشتراكا فعلياً فى الحرب إذا تولى الإمبراطور قيادة المعركة بنفسه . ولم تكن لفرقة المشاة من الجنود ، ويسمون بالنوميرى *Numeri* (ومفردها *numerus* وهى الفرقة من الجند) التى كانت ترابط فى العاصمة أيضاً ، وللجنود الذين كانوا تحت إمرة « دمستق الأسوار » (أسوار أناستاسيوس الطويلة ؟) أهمية نسبياً .

ويتضح الفرق البارز بين جيوش جستنيان والجيوش التى كانت تجمع بعد نهاية القرن السادس فى الحقيقة التالية : وهى

أن المتطوعين الأجانب قد أخذوا يختفون ، وأصبح الجيش يجند من داخل الامبراطورية ، وخصوصاً من أرمينية ؛ وهذا لا ينافى أنه كان لا يزال تحت إمرة الموظف الكبير الذى كان يسمى *Hetiariarch* (أى رئيس جماعات الجند ، من *Hetaeria* باليونانية ومعناها الجماعة أو الفرقة) قوة الحرس التى كان معظمها من الأجانب . ويرجح أن هذا الحرس حل محل « جنود المحالفين *Foederati* » الذين وجدوا قبلا فيما سلف من العصور (وفرق الجنود المحالفين هى الفرق البربرية التى كانت تجهز تبعاً لشروط معاهدة تعقد بينهم و بين الدولة) .

وكان نظام منح الأراضى فى نظير الخدمة العسكرية ، الذى طبق فى القرن الرابع على حرس الحدود ، قد ظهر ثانية واتسع نطاقه فى الولايات الثغرية . وكان لا يجوز انتقال هذه المنح لأن منحها كان يتضمن إلزاماً بالخدمة فى الجيش يرثه الابن عن أبيه .

غير أن انتصار السلجوقيين الحاسم فى معركة ملاذكرد ١٠٧١ م التى وقع فيها الإمبراطور رومانس أسيراً ، كان ضربة قاضية لهذا النظام العسكرى الذى تطور زمن حكام البيت المقدونى العسكريين المتوقدى الذكاء .

ويعزى فى الواقع تأخر الجيش الرومانى فى القرنين الحادى

عشر والثانى عشر إلى سببين رئيسيين : فقد أكسبت السلجوقيين غزواتهم فى آسيا الصغرى مقاطعات واسعة من أرض الإمبراطورية . وأسوأ من هذا أن السلاجقة كانوا مجرد برابرة تعتمل فيهم شهوة السلب والتخريب ، فخربوا الأراضى حتى فى المقاطعات التى ظلت رومانية من جراء هجماتهم ، بينما أجبر الفلاحون على الفرار من مزارعهم والالتجاء إلى المدن .

ونتج فى الوقت ذاته عن ازدياد طبقة النبلاء العسكريين الأقوياء ، الذين كانت المقطعات الكبيرة التى يملكونها فى آسيا الصغرى أساسَ نفوذهم ، أن انتاب الحكومة المركزية قلق كبير ، بينما سعت الإدارة المدنية إلى إضعاف روح الاستقلال الخطرة هذه بفرض ضرائب باهظة ؛ ولما كانت الدولة أعجز من أن تشن هجوماً مباشراً على امتيازات الملاك الكبار ، فقد حاولت أن تخلق طبقة مقابلة لهم ، فمنحت الجنود إقطاعات واسعة .

ولم تصلنا لسوء الحظ معلومات كافية عن هذا النظام الجديد المسمى نظام البرونيا (*Pronia* = مئونة) الذى أدخله ميخائيل السابع دوكاس ، وتطور زمن آل كومنين .

والظاهر أن هذه المنح كانت تمنح لمدى حياة الممنوح ، مثلها فى ذلك مثل الإقطاعات الأولى فى غرب أوروبا ، مع استثناء

واحد ، وهو أن صاحبها لم يكن له حق توريثها من بعده .

وكانت المنحة المتضمنة فيما يبدو إلزاماً بالإقامة على الأرض تعطى فقط للجنود من ذوى الرتب العالية ؛ وكانت بوجه عام مكافأة على خدمات سابقة . وكان الممنوح ملزماً بأن يقدم للدولة عدداً معيناً من الجند للجيش . وكانت الدولة تتنازل له مقابل هذا عن حق جباية ضرائب معينة داخل حدود إقطاعيته . وكان من المحرم عليه أن يعمد إلى زيادة الأموال التى كان المزارعون يدفعونها . وكان يسمح له بالإضافة إلى ذلك بأن يتمتع ببعض الامتيازات فى مسائل القضاء واستخدام البوليس . ولم تكن هذه الأراضى كما يظهر تقتطع من أملاك النبلاء ، ولا من أراضى الكنيسة ، وإنما من المساحات التى كانت مقصورة على رجال العسكرية . وكان جشع الارستقراطيين للأراضى يفضى أحياناً إلى ضم كثير من هذه الملكيات العسكرية إلى ممتلكاتهم ، مما كان يؤدى فى النهاية إلى إضعاف قوة الجيش .

وكان يواجه أباطرة القرن الثانى عشر ، بالإضافة إلى ذلك ، هبوط خطير فى أعداد الأحرار من سكان الإمبراطورية . وكانت غارات المجر والعرب على أوروبا تسير جنباً إلى جنب مع غارات السلاجقة المخربة على آسيا . وقد اجتهد آل كومنين فى تعويض هذه

الخسائر ، وبذلوا وسعهم فى ذلك السبيل : فأسكنوا الأتراك والبشناق كمعمرين للأرض داخل الإمبراطورية ، وحرروا العبيد على حساب الدولة ، بينما أصبحت الحملات ضد الجر مجازر بشرية على نطاق واسع . وقد أصبحت جيوش الإمبراطورية نتيجة لهذا الهبوط فى عدد السكان تتألف مرة أخرى من المرتزقة والأفصال (جمع فَصَل ، vassal ، وهو التابع) الأجانب والحلفاء ؛ وكان منهم لمبارد وفرنجة وجرمان وصرب ، بل كان فيهم فرق تابعة لأمراء مسلمين ، بينما تألف معظم الحرس الإمبراطورى من جنود انجليز . وكان هذا التغيير فى السياسة العسكرية هو الذى أعقب نتائج وخيمة زمن « الأنجيليين » حين عجزت الدولة المفتقرة عن دفع مرتبات المتطوعة . وصدق عليها المثل الشائع ، « لا مال ، لا سويسريون ! »[١] .

ولدينا لحسن الحظ كتب صغيرة عن الجندية ترجع تواريخها إلى فترات مختلفة من تاريخ الإمبراطورية الشرقيــة . ولا يقدّر الإنسان عظمة الجيش البيزنطى حق قدرها إلا بعد دراســة هذه

---

(١) *Point d'argent, point de Suisses* ، وهى قالة شائعة فى اللغات الأوربية ، ويرجع أصلها إلى العصور التى كان ملوك أوربا يستخدمون خلالها جنوداً مرتزقة من السويسريين فى جيوشهم ، فكان الملك أو الأمير لا يستطيع استخدامهم إلا إذا كان لديه مال ، فإذا فرغ ماله تركوه .

الـكتيبات ، ففى هذا الميـدان وحده عالج أهل العصور الوسطى فى أوروبا مهنة الحرب معالجة علمية متقنة ، فـكان كل جيـل يواجه مشاكل جديدة ويسعى إلى حلها بدراسـة دقيقة متصلة . فلم يكن الفوز فى هذا العصر للعدد ، بل للمهارة القائمة على التفكير ؛ فلم تـكن المعركة ملحمة لا نظام لها ، بل تعاونا منظما بين وحدات كثيرة . فقد كان القواد البيزنطيون أفقر من أن يدفعهم الطموح إلى الإقدام على أعمال الفروسية الـكيخوتية[1] : إذ كانت المحافظة على قوامهم الصـغيرة عمادهم فى كثير من الأشياء : وعلى هذا فقد كان واجب القائد أن يستوثق من الظروف الملائمة للحركات العسكرية الرومانية قبـل أن يجازف بالاشتراك فى أى اشتباك حربى : فالهرب المصطنع ، والمباغتات ، والهجمات الليلية ، والـكمائن ، والمفاوضات التى لا يقصد بها إلا كسب الوقت ، كل هذه وغيرها كانت وسائل مقبولة فى الحرب . وكان الجندى الذى يعتمد على القوة فى حيث كان الدهاء كافيا لـكسب النصر لا يعتـبر إلا مغفلا . فالمراس ، والشجاعة والنظام والشعور نحو المهنة بالفخر —

---

(١) نسـبة إلى *Don Qaijota de la Mancha* بطل القصـة الاسبانية الرائعة التى كتبها « ثرڤانتز » . وقد رسمنا اللفظ هنا حسب نطقه فى اللغة الاسبانية ، والمقصود بالـكيخوتية هنا : الخيالية التى لا تقوم على تبصر أو حساب .

كل هذه كانت خصائص الجندى البيزنطى ، كما هى واضحة مثلا فى كتاب تعاليم كتبه كيكومينوس لابنه . وكان القائد لا ينفك يذكر من تحت يده بأن كل حرب إنما هى حرب صليبية لا يأتى النصر فيها إلا من عند الله ؛ فإذا صح هذا ، لم يكن للمرء بد من القيام بواجبه حتى ينال تلك الهبة . ولا زالت السماء تمنح النصر لجيوش روما ، ما آمن الجنود بهذا التقليد الرومانى العسكرى ، وحافظوا عليه .

كان كل من الفرسان والمشاة يقسمون إلى فرق خفيفة السلاح ، وفرق ثقيلته . فكان المحارب ذو السلاح الثقيل يلبس خوذة من الفولاذ ، ودرعا من الزرد يكسوه من رقبته إلى فخذيه ، وقفازاً من الحديد ، وأحذية من الفولاذ . وكان يحمل عباءة خفيفة أو برنساً ليرتديه فوق سلاحه أيام الصيف المحرقة ، وعباءة فضفاضة من الصوف يتدثر بها لتقيه من البرد والرطوبة . وكان سلاحه سيفاً عريضاً ، وخنجراً ، ورمحاً ، وقوساً للرماية عن ظهور الخيل ، وجعبة للسهام . وإذا كان ممن يقفون فى الصفوف الأولى ويقومون بالهجوم ، جعل لحصانه دروعا فولاذية على صدره ، وعصابات فولاذية على جبهته .

وكان الفارس ذو الأسلحة الخفيفة عادة من الرماة ؛ فيلبس

سترة من الزرد . وكان الجنود من المشاة ذوى الأسلحة الثقيلة يلبسون دروعا من الزرد تغطى أنصافهم العليا ، وخوذاً فولاذية ؛ وكانت أسلحتهم السيف والرمح ، وفأساً ذات نصل قاطع من ناحية ، وسن مدببة من الناحية الأخرى . وكان جندى المشاة ذو السلاح الخفيف إماراميا عن القوس ، أو قاذفا بالحربة ؛ فكان يلبس قميصاً طويلا من الزرد يصل إلى ركبتيه ، أو درعا خفيفاً فى بعض الأحيان ، ويحمل جعبة للسهام فيها أربعون سهما ، وفأساً فى حزامه : وكان يعلق خلفه ترساً صغيراً مستديراً .

وكان نظام الجيش البيزنطى محكما فعّالا بصورة خارقة للعادة : كانت له فرقة ملكية طبية خاصة به . وكان الفرسان *(deputati)* التابعون لقسم الخدمات الطبية يحملون الجرحى من ميدان المعركة إلى أطباء الجيش فى الخلف . وكان مهندسوه قد درسوا بالتفصيل جميع العقبات الطبيعية التى كان يجب التغلب عليها فى كل حملة من الحملات . ولنأخذ مثلا واحداً : عندما يراد عبور نهر عريض ، حيث كانت جيوش أوروبا الغربية تضطر إلى السير حتى تصل إلى مخاضة ، كان الجيش البيزنطى يصنع جسراً من القوارب واحداً بجانب الآخر ، وكانت هذه تحمل على ظهور الدواب ، وقد عينت أجزاؤها بأرقام

مكتوبة عليها ، حتى إذا ما وصـل الجيش إلى مجرى النهر ، صـفّوها بسرعة ، وغطوها بالألواح الخشبية . وكان فن تنظيم المعسكرات لا يزال علماً حيًّا ؛ وكانت له كتب خاصة به حتى القرن العاشر ، بينما أخرج الأرمن والأسر الارستقراطية سلسلة طويلة متتابعة من القواد اللامعين .

و إذا قرأ الإنسان كتابا عن فن الحرب عند البيزنطيين وتعاليمه المفصّلة ، فيما يختص بطريقة ملاقاة مختلف أعداء الإمبراطورية وقهرهم ، حصل على صورة رائعة واسعة المدى لـكل أجناس أوروبا فى أوائل العصور الوسطى . كانت القوى العسكرية كما قال بسللوس *Psellus* مصدر قوة الدولة الحقيقية . لقد نهضت روما بجيشها ، وسقطت بسببه .

٢ — الأسطول

اتجهت روما الجمهورية إلى البحر مكرهة ؛ و يصدق الحـكم نفسه على الإمبراطورية البيزنطية . فقد بنى الأسطول الرومانى تحت ضغط الحروب البونية ، وأبقى عليه ليقوم بمراقبة البحار . ولما أصبح البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانيـة فى زمن الامبراطورية ، أهمل الأسطول . وخلال القرن الثالث شق

الغزاة من البرابرة طريقهم جنوب الدردنيل ، وأخذوا يجوبون البحر الإيجى رغم أنف روما . لقد جرؤ البحار الإغريقى سابقا فتحدى السيادة البحرية التى كان ينشرها الفنيقيون والقرطاجنيون على أمواه البحار ، أما روما فلم تفعل شيئا ، وظل الأسطول الإمبراطورى مهملا حتى بعد أن تحولت العاصمة الرومانية إلى الشرق الإغريقى . نعم ، إن قنسطنطيوس وليسينيوس تحاربا على ظهور السفن ، إلا أن القرن الرابع كان خلوا من المعارك الحربية . وكان من شأن نمو المملكة الوندالية فى افريقية وظهورها كقوة بحرية أن كشفت النقاب عن ضعف روما البالغ . فغزوا سردينية وقورسيقة ، وعاثوا فسادا فى إيطاليا ونهبوا روما . وأصبح الوندال سادة المياه الغربية . واضطر الإمبراطور ماجوريان *Majorian* أن يبدأ ثانية فى بناء أسطول ؛ وكان فشل الحملة البحرية على افريقية ٤٦٨ م لطمة قاسية لسيادة روما . وحينما قرر جستنيان استرداد الغرب وجه ضربته الأولى إلى إفريقية ، حتى لا يعين الأسطول الوندالى القوط الشرقيين ضد الجيوش الرومانية . إلا أن استعدادات الإمبراطورية البحرية كانت ضئيلة ، واضطر نارسيس *Narses* إلى أن يخوض بقواته مستنقعات البندقية الموبوءة ، إذ لم يكن لديه من السفن ما يكفى لنقل رجاله

العشرة آلاف أو الاثنى عشر من سالونا *Salona* على ساحل دلماشيا إلى راڤنا . ولم تبدأ روما فى بناء أسطولها ثانية إلا حين ظهرت على المسرح قوة العرب البحرية ؛ واضطرت روما بسبب السياسة العدوانية التى انتهجها معاوية بن أبى سفيان إلى الشروع فى بناء أسطول بكل ما لديها من جد وعزيمة . ويرجع الفضل الأول فى ذلك إلى قنسطانز الثانى . فظهرت خلال القرن السابع قيادة بحرية عليا واحدة ، وهى قيادة أميرال *(Strategos)* الكرابيسيان *Carabisiani* ، وتخضع لقيادته منطقتان لكل منهما أسطول يقوده نائب أميرال *(drungarius)* ، كما كانت ولايات أخرى تجهز القوى العسكرية اللازمة للأسطول ؛ وهما ولاية كيبرهايوت *Cibyrrhœot* ، وهى الأكثر أهمية ، والثانية منطقة البحر الإيجى ؛ وتضم الأولى بامفيليا التى كانت قديما مأوى لصوص البحر الأقوياء وقرصانه ؛ أما الثانية ، فكانت تضم الساحل الشمالى لآسيا الصغرى والجزر . وقد ظهرت شهرة الأسطول ونفوذه فى ذلك الوقت بسرعة ؛ لكن ليو الثالث بعد حصار العرب للقسطنطينية ، اعتمد فى قوته على جيش آسيا الصغرى البرى ، وكذلك فعل خلفه قنسطنطين الخامس .

ويقول « جلزر » إن السبب فى إلغاء القيادة العليا

الموحدة ، هو أن الأسطول نادى بنائب الأميرال ، ابسيار ، إمبراطورا فى سنة ٦٩٧ م تحت اسم طيباريوس الثالث ، وأسقط جستنيان الثانى فى سنة ٧١٣ م وأناستاسيوس الثانى فى سنة ٧١٦ م : فأصبح أميرا الولايتين البحريتين نتيجة لذلك قائدين من الدرجة الثانية ، مع أنه كان فى يدهما سلطة الحكم العسكرى والمدنى . وكان هذا حطا من قيمة الأسطول . وقد لا يظهر خطر هذه السياسة فى القرن الثامن لأن الخليفة فى بغداد لم يواصل النشاط البحرى لخلفاء دمشق . إلا أن القرصنة عادت وانتشرت مرة أخرى فى البحر الأبيض المتوسط خلال القرن التاسع ، حتى لقد اخترق قطاع الطرق الاسكندناويون مضيق جبل طارق ، واضطر البابا أن يلتجئ إلى شارلمان ليحمى قورسيقة من العرب . وفقدت القسطنطينية السيادة على البحار الغربية . وقد أضاعت الامبراطورية كريت وصقلية ، وهوجم جنوب إيطاليا . وبدأ ميخائيل الثالث إصلاح الأسطول . وظل باسيل الأول يتبع سياسة بحرية هجومية . وكانت تلك أيام القوة الرومانية البحرية العظيمة . وأنشئت ولايات ثغرية بحرية جديدة ، مثل ولاية ساموس وعاصمتها إزمير . وكان الأسطول الإمبراطورى يرابط فى القسطنطينية إلى جانب سفن الولايات الثغرية البحرية الثلاث . وقامت منشآت بحرية

أصغر من تلك فى أماكن أخرى مثل صقلية والبلوبونيز ، ومدخل البحر الأسود ، بينما كانت مقاطعة كافلانيا قاعدة للعمليات البيزنطية فى الغرب . وحين كانت تشترك الأساطيل فى العمل ، كانت القيادة البحرية تُجمع مرة أخرى إلى لواء أمير بحر واحد . وكان أسطول « كيبرْهايُوت » يفتخر بمكانته بين الأساطيل المحلية : فهنا كانت قاعدة الامبراطور للعمل ضد العرب ؛ وكانت تقع الاشتباكات مع أمراء أضنة وطرسوس بصورة دائمة . فإذا تقدم أمير مسلم على رأس جيشه ، قام الأسطول الرومانى ، الذى كان على استعداد للابحار فى أية لحظة ، بهجوم مضاد له ، بينما تقوم القوات البرية بحركة تقصد منها تضليل العرب فى حالة ما إذا حاولوا القيام بحملة بحرية . ولم يكن لدى الأمراء على ما يظهر قوى كافية للقيام بهجوم بحرى وبرى على بلادهم . واستطاع نقفور فوقاس أن يعين ليوتبراند ، مبعوث الامبراطور أوتو الأول ، بأسطول مجهز . وزعم بناء على ذلك أنه هو الوحيد الذى يملك أية قوة بحرية لها خطر (إن القوة البحرية لى وحدى = *Navigatium fortitudo mihi soli inest*) ، بينما تحدث قنسطنطين بورفيروجينتوس فى مناسبات مختلفة عن السيادة الرومانية على أمواه البحر الأبيض المتوسط ، من جبل

طارق إلى الدردنيل . ثم أخذ الأسطول يتداعى خلال القرن الحادى عشر على الرغم مما زعمه الجندى « كيكومنيوس » فى هذا القرن من أن الأسطول كان إذ ذاك فخر رومانيا[١] . ودليل ذلك أن السلاجقة وصلوا خلال العقد السابع من هذا القرن ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وشاعت الفوضى فى الولايات التى كان يُجمع منها أكبر جانب من القوى البحرية البيزنطية . وكانت الحكومة المركزية على حق فى تخوفها من روح الاستقلال التى ظهرت بين نبلاء آسيا الصغرى : فقد أصبح رومانس ليكاپينوس بعد أن أحرز وظيفة فى الأسطول فى ولاية ساموس الثغرية ، الأميرال الأعظم . وظهر أن القيادة البحرية العليا كانت إغراء طيباً لمن يحوزها لكى يفكر فى اغتصاب السلطان ، ومن المرجح أن هذين العاملين تعاونا على الهبوط بالقوة البحرية .

وسرعان ما ظهرت نتائج هذه السياسة القصيرة النظر واضحة للعيان . فقد انتشرت القرصنة انتشاراً واسعا دون رادع . وكان فى استطاعة أى مغتصب فى آسيا الصغرى أن يستحوذ على السلطة

---

(١) *Romania* وهو اسم كان يطلق فى العصور المتأخرة على الدولة الرومانية . ويلاحظ الفرق بين رسمه ورسم *Roumania* وهى الدولة الأوروبية المعروفة بهذا الاسم .

إذا امتلك أسطولا . وكان يستطيع أن يعمل ما عمله تزاخاس *Tzachas* عند نهاية القرن الحادى عشر ، الذى ضرب ادراميتيوم *Adramyttium* ، واتفق مع البشناق لكى يعملوا معه فى محاربة القسطنطينية ؛ وكان الاتفاق بينهم و بينه يقضى بأن يتقدموا برًّا عبر شبه جزيرة غاليبولى ، وأن يُعينهم تزاخاس بأسطوله فى مياه الدردنيل . وأصبحت الأديرة على الجزر حصونًا تخزن فيها الذخيرة . وعندما هاجم النورمان الإمبراطورية ، اضطرت روما إلى أن تدفع ثمن تقصيرها فى الاستعداد ، وأن تشترى مساعدة أسطول البندقية لها . فقد طلبت الإمبراطورية فى القرن التاسع إلى تلك الدولة الجزرية أن تقدم سفنًا لمحاربة العرب اعتماداً على ما لبيزنطة من حق السيادة على البندقية . ولم يكن هناك سبيل لضمان هذه المساعدة إلا أن تمنحها امتيازات تجارية (انظر الفصل الثالث عشر) . وكانت نتيجة منح هذه الامتيازات أن تعرض استقلالها الاقتصادى للخطر . ولو قد كان لروما « أسطول قائم » لتوجهت الحملة الصليبية الرابعة إلى مصر لا إلى القسطنطينية . وبالرغم من أنه توفر للإمبراطورية ، حينما انتعشت بعد ذلك فى ظل آل باليولوجوس ، أسطول نشيط على صغره ، إلا أن الأيام العظيمة ذهبت مع أمس الدابر إلى غير رجعة .

وليس فى مقدورنا أن نقدّر بالتأكيد القوة التى كان عليها أسطول بيزنطة عادة . وتدل التفاصيل التى بين أيدينا عن الحملة البحرية البيزنطية الوحيدة — التى نملك عنها تفاصيل — على أن عدد السفن كان مائة سفينة من الأسطول الإمبراطورى ، وسبعا وسبعين من أسطول الولايات ، بينما كان عدد البحارة ٢٣٠٠٠ — ٢٤٠٠٠ من بحارة الإمبراطورية و١٧٫٥٠٠ من بحارة الولايات . ويظهر أن عدد سفن الأسطول التى أمكن جمعها لحملة بحرية أيام ميخائيل الثالث (٨٥٨ — ٨٥٩) بلغ عددها ٣٠٠ مركب . وكان رجال السفن يتكوّنون من رعايا الإمبراطورية ، ومن المتبربرين المستقرين فى أرض الدولة مثل المارداثيين[1] *Mardates* ، ومن المرتزقة الأجانب مثل الروس الذين استخدموا أول مرة فى الأسطول ، كما يظهر ، زمن الأسرة المقدونية . ويبدو من كتاب *Tactica* (أى الفنون الحربية)

---

(١) المارداثيون : هم جماعات جبلية كانت تسكن نواحى لبنان من قديم الزمن . وكانت الدولة البيزنطية تستخدمهم فى الدفاع عن حدودها الشرقية . فلما فتح المسلمون الشام تراجعوا إلى آسـيا الصغرى ، وهناك أقاموا يحاربون فى صفوف جنود الدولة البيزنطية ، وظلوا يسببون للخلفاء المسلمين متاعب جمة . وظل الأمر على ذلك حتى عقد عبد الملك بن مروان مع الإمبراطور جستنيان الثانى صلحاً اشترط فيه أن تنقل الدولة البيزنطية جماعات المارداثيين إلى ولايات الدولة الداخلية ، فانقطع بذلك شرهم عن المسلمين .
انظر : VASILIEV : *op. cit.* 1, p. 185.

الذى كتبه ليو السادس ، أن رجال الأسطول كانوا بحارة وجنوداً . ولكننا نلحظ فى حملة سنة ٩٠٢ أن جنود الأسطول كانوا شيئاً آخر غير المجدفين . وكانت السفن المسماة دروموند[1] تبنى فى الغالب بصفين من المجاديف ، وتوضع فى مقدمة السفن آلات تقذف النيران الإغريقية المخيفة . وكان البحارة يُجهّزون بقنابل يدوية تحتوى على نفس تلك المادة القاتلة التى كانت تنفجر بقوة على الرغم من أنها لم تكن تأتى بالغاية المرجوّة . وتتسم سياستهم البحرية بنفس الحذر الذى كانت تتسم به خططهم العسكرية .

كان أمير البحر فى الدولة الشرقية لا يحارب إلا إذا كانت جميع الظروف مواتية له ، أو إذا رأى أنه لابد من الحرب لحماية إحدى المقاطعات الرومانية . غير أنه لاسبيل إلى الشك فى أن الملاحين لا يعتمد عليهم فى الغالب . وكان أهم ما يشغل بال أمير البحر هو أن يدبر أمره فى حالة ما إذا هدده الجنود بالانفضاض من حوله .

ليس بين أيدينا سوى القليل من الكتابات عن الفن البحرى عند الرومان الشرقيين . لكن ما وصل إلينا يدل على

---

(١) *dromonds* : وهى السفن الكبيرة فى العصور الوسطى ، واللفظ مشتق من الكلمة اليونانية *dromos* أى السفينة .

توجيههم نفس العناية الدقيقة ، التى كانوا يوجهونها إلى علم العمليات الحربية ، إلى مبادئ الحرب البحرية . فقد درس أمراء الحرب البيزنطيون الأوصاف الطبيعية للساحل والجزر ، وخصائص الرياح والمد . وأتقنوا فنا للخطط والحركات البحرية ، ووجهوا إلى فنون الاستطلاع والإشارات ، اهتماماً يعادل اهتمام زملائهم المحاربين فى البر . وعلى الرغم من تعدد فترات النشاط البحرى فقد ظل الأسطول مجالا للخدمة العسكرية أقل امتيازاً من غيره . فكان الجندى البرى يتقدم البحّار دائما . ولم تكن روما الجديدة فى هذه الناحية ، كما رأينا ، إلا محافظة على تقاليد العاصمة الغربية القديمة .

الفصل التاسع

التعـــليم

« علينا أن نعد كل ما فى طاقتنا للنزول إلى معترك الحياة المسيحية . وينبغى علينا أن نعاشر الشعراء والمؤرخين والخطباء وجميع الرجال الذين نظفر منهم بأى عون لتثقيف أرواحنا »

(من كلام القديس باسيل[1] للطلاب الشباب)

أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية ، ولـكن ذلك لم يحدث تغييراً بعيداً فى نظام التعليم . نعم ربمـا كان الرهبان والقسس البسطاء يرون فى المعـارف القديمة شَرَكاً من شِراك الشيطان ، ولـكن قادة الـكنيسة المسيحية لم يروا ما يدعو إلى مخاصمة الثقافة الوثنية فى عصرهم . وفى الوقت الذى كتب فيـه باسيل إلى الشبان كتابا عن أهمية دراســة المؤلفين المجدفين ، أبدى أباطرة متلاحقون رغبة نيّرة فى رعاية الجامعات وترقيتها ،

(١) ولد القديس باسيل (٣٢٩ — ٣٧٩) ، ويدعى عادة باسيل الـكبير ، فى قيصرية *Caesarea* . وقد درس فى أثينا . وكان الإمبراطور يوليان وجريجوريوس النازيانزى زميليه فى الدراسة . وقد عاد إلى قيصرية حيث كرس نفسه للحياة الدينية ، وأصبح أسقفاً لها فى سنة ٣٧٠ م .

وفى زيادة عدد المدرسين ، وفى إنشاء المكاتب وجمع مخطوطات الآداب القديمة . وقد وجه يوليان المرتد أقسى ضربة إلى الكنيسة المسيحية حين منع المسيحيين من أن يعلموا فى المدارس . وقد تلقى القديس باسيل والقديس جريجوريوس(١) النازيانزى *Gregeroy Nazianzen* كلاهما تعليما جامعيا . وكان باسيل قبل تنصره أنجب تلاميذ ليبانيوس(٢) *Libanius* السفسطائى ، وخليفته المنتظر .

ولنتتبع — بصورة مجملة — خطوات التعليم التى كان يتدرج فيها شاب من الطبقة العليا فى القرن الرابع من ذلك العصر .

---

(١) ولد جريجوريوس النازيانزى بالقرب من نازيانزوس *Nazianzus* فى كبادوكيا *Cappadocia* حوالى سنة ٣٢٩ ب . م . وقد درس فى أثينا مدة ست سنوات ، وهنا أصبح صديقاً لباسيل . وعاد إلى بلده فى سنة ٣٥٦ م ، وظل فى نازيانزوس يساعد أباه الذى كان أسقفاً لها . وذهب إلى القسطنطينية سنة ٣٧٩ م وأصبح أسقفاً لها سنة ٣٨٠ ، وتوفى سنة ٣٨٩ م .

ويعد الآباء الكبادوكيون — وهم باسيل ، وأخوه جريجوريوس النيسى *Gregory of Nyssa* ، وجريجوريوس النازيانزى ، فى القرن الرابع — أعظم الكتاب والمفكرين المسيحيين .

(٢) ليبانيوس السفسطائى (حوالى ٣١٤ — ٣٩٥ م) ولد فى انطاكية ، وتلقى العلم فى أثينا ؛ ثم فتح مدرسة فى بلده تخرج فيها كثير من العلماء والأدباء ، بينهم القديس باسيل والقديس كريسوستوم .

الفصل التاسع

التعليم

« علينا أن نعد كل ما فى طاقتنا للنزول إلى معترك الحياة المسيحية . وينبغى علينا أن نعاشر الشعراء والمؤرخين والخطباء وجميع الرجال الذين نظفر منهم بأى عون لتثقيف أرواحنا »

(من كلام القديس باسيل(1) للطلاب الشباب)

أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية ، ولكن ذلك لم يحدث تغييراً بعيداً فى نظام التعليم . نعم ربما كان الرهبان والقسس البسطاء يرون فى المعارف القديمة شَرَكاً من شِراك الشيطان ، ولكن قادة الكنيسة المسيحية لم يروا ما يدعو إلى مخاصمة الثقافة الوثنية فى عصرهم . وفى الوقت الذى كتب فيه باسيل إلى الشبان كتابا عن أهمية دراسة المؤلفين المجدفين ، أبدى أباطرة متلاحقون رغبة نيّرة فى رعاية الجامعات وترقيتها ،

---

(1) ولد القديس باسيل (٣٢٩ — ٣٧٩) ، ويدعى عادة باسيل الكبير ، فى قيصرية *Caesarea* . وقد درس فى أثينا . وكان الإمبراطور يوليان وجريجوريوس النازيانزى زميليه فى الدراسة . وقد عاد إلى قيصرية حيث كرس نفسه للحياة الدينية ، وأصبح أسقفاً لها فى سنة ٣٧٠ م .

وفى زيادة عدد المدرسين ، وفى إنشاء المكاتب وجمع مخطوطات الآداب القديمة . وقد وجه يوليان المرتد أقسى ضربة إلى الكنيسة المسيحية حين منع المسيحيين من أن يعلموا فى المدارس . وقد تلقى القديس باسيل والقديس جريجوريوس[١] النازيانزى *Gregeroy Nazianzen* كلاهما تعليما جامعيا . وكان باسيل قبل تنصره أنجب تلاميذ ليبانيوس[٢] *Libanius* السفسطائى ، وخليفته المنتظر .

ولنتتبع — بصورة مجملة — خطوات التعليم التى كان يتدرج فيها شاب من الطبقة العليا فى القرن الرابع من ذلك العصر .

(١) ولد جريجوريوس النازيانزى بالقرب من نازيانزوس *Nazianzus* فى كبادوكيا *Cappadocia* حوالى سنة ٣٢٩ ب . م . وقد درس فى أثينا مدة ست سنوات ، وهنا أصبح صديقاً لباسيل . وعاد إلى بلده فى سنة ٣٥٦ م ، وظل فى نازيانزوس يساعد أباه الذى كان أسقفاً لها . وذهب إلى القسطنطينية سنة ٣٧٩ م وأصبح أسقفاً لها سنة ٣٨٠ ، وتوفى سنة ٣٨٩ م .

ويعد الآباء الكبادوكيون — وهم باسيل ، وأخوه جريجوريوس النيسى *Gregory of Nyssa* ، وجريجوريوس النازيانزى ، فى القرن الرابع — أعظم الكتاب والمفكرين المسيحيين .

(٢) ليبانيوس السفسطائى (حوالى ٣١٤ — ٣٩٠ م) ولد فى انطاكية ، وتلقى العلم فى أثينا ؛ ثم فتح مدرسة فى بلده تخرج فيها كثير من العلماء والأدباء ، بينهم القديس باسيل والقديس كريسوستوم .

كان الصبي يبدأ بتعلم القراءة والكتابة في الخامسة أو السادسة من عمره . ولم يكن الوُعّاظ المسيحيون يكفون عن تذكير الآباء بأن يدركوا واجبهم الشخصي تجاه أبنائهم . وكان الناس يستسهلون إلقاء مهمة التربية كلها على عاتق المربي (Padagogue) . ولم يكونوا مع ذلك ليبذلوا عناية كافية لاختيار شخص كفء لتلك الوظيفة المهمة . وكم ودّ كريسوستوم أن تناط تلك المهمة براهب من الرهبان . وفي سن العاشرة أو الثانية عشرة كان الولد يلتفت إلى دراسة النحو . وكان لعلم النحو مدلول أوسع مما له اليوم عندنا ؛ إذ لم يكن يقتصر على تصريف الأسماء والأفعال وقواعد تركيب الجمل ، بل كان يضم إلى جانب ذلك دراسة الآداب القديمة . فحين كانت العبارة تقرأ ، كانت تعرب وتحلل ، وتفسر كلماتها الصعبة والغريبة ، وتدرس اشتقاقاتها الصرفية ، ويُفهم معنى ما يرمي إليه الكاتب ، وتعرف قيمته الأدبيّة . وكانت تستعمل لهذا المعاجم والشروح والكتب المعلقة حواشيها . وكان الطالب يبدأ بهوميروس قبل أن يمضي إلى دراسة الشعراء الآخرين . ويخبرنا سينيسيوس في إحدى رسائله ، بكل إعجاب ، أن ابن أخته كان يحفظ خمسين بيتاً من هوميروس كل يوم ، ويعيدها مضبوطة دون تلعثم . وقد حفظت

لنا إحدى أوراق البردى فى مصر رسالة من أمٍّ قلقة على ابنها بطليموس ، الذى كان يتلقى العلم على يدى نحوى ، تحت إشراف مربيه . ولكن مدرِّسه اعتزل العمل ، فكتبت أمه إليه تنصحه بأن يجد له مدرساً جديداً بمساعدة مربيه وأن لا يتخلى عن دراسة هوميروس إلا حين يبلغ الكتاب السادس .

وفى إحدى أوراق البردى التى عثر عليها فى الفيوم نرى كيف كان المدرس يشرح هوميروس . فنرى مقابل كل كلمة من المتن ترجمتها إلى اللغة اليونانية الدارجة ، وهى بالضبط كتلك الثمرة التى كان تناولها محرماً علينا فى أيام الطفولة — أعنى تلك التفاسير الحرفية المشتهاة لقطع الأدب القديم .

وكانت الروايات — من محزنة ومضحكة — تقرأ كذلك . ويخبرنا خوريكيوس *Choricius* — وكان مسيحيا — أنه لم يعترض أى أب من الآباء على الفحش الكبير الذى يرد فى روايات الهزليين القدماء . وعند ابكتيتس *Epictetus* [1] صدى حى

(١) ابكتيتس : فيلسوف رواقى ، طرده من روما دوميتيان فأقام فى نيقوبوليس *Nicopolis* فى ابيروس *Epirus* . ولم يترك لنا مؤلفات : والكتيب الصغير (*Enchiridion*) الذى يحمل اسمه جمعه تلميذه أريان *Arrian* من أحاديثه .

لامتحان قصير فاز صاحبه بالثنـاء . وجرى فيه السؤال والجواب كما يلى :

س : من هو والد هكتور ؟

ج : فريام .

س : ما اسم أخويه ؟

ج : اسكندر وديفوبوس .

س : واسم أمه ؟

ج : هكابه .

س : كيف تعرف ذلك ؟

ج : من هوميروس ، وكذلك هلانكوس[1] *Hellanicus* وغيره كتبوا فى هذا الموضوع .

وفى هذا كفاية ! لأن هذا المنظر واقعى إلى درجة بالغة .

وفى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة كان الولد يهجر النحو إلى البلاغة . وكان المربى لا يزال يصحب الصبى إلى المدرسة في هذه السن ، بينما يحمل له عبد حقيبته وكتبه الضخمة الثقيلة . وحتى فى القرن الرابع عشر كان الآباء يتذمرون من

---

(١) هلانكوس : مؤرخ يونانى شهير ، ولد فى ميتلين وتوفى سنة ٤١١ ق . م . وعمره خمس وثمانون سنة .

غلاء أسعار الكتب المدرسية ، وكثيرا ما أشار ليبانيوس إلى أنها كانت شيئا ضروريا جدا . وفي دراسة البلاغة كان الطالب يدرس كتب عدة مؤلفين ، وأكثرهم من كتاب النثر ، مثل ديموستين ، وهيرودتس ، وثوكديدس ، وإيسقراط ، وليسياس . وكانت مؤلفات إيسقراط شائعة كثيرا ، كما كان كثير من كتابات ديموستين وثوكديدس يحفظ عن ظهر قلب . وكانت القراءة بصوت مرتفع تظهر مبلغ فهم الطالب لما يقرأ حق الفهم ، وتساعده كذلك على تقويم صوته . فقد كان الخطيب الذي يريد أن يتدفق في كلامه في ذلك الوقت يحرص على تنغيم خطبه أكثر مما يحرص على أداء ما يقول أداء حسنا . وكان الولد في العمل البيتي ، وهو تحت إشراف المربي ، يؤدي قسطا وافراً منه أداء جهوريا ، حتى إن ليبانيوس يقول ساخراً إن الجيران لم يكونوا ينامون ، و بعضهم مرض من جراء الضجيج . فإذا وُفِّق الطالب بهذه الطريقة إلى معرفة أساتذة الأدب الأتيكي ، كان يبدأ التمارين الكتابية . فكان الأستاذ يقرأ أنموذجا مختارا من أسلوب إنشائي معين بصوت مرتفع ، و يطلب إلى التلامذة أن ينشئوا موضوعاتهم على مثاله . فكان الطالب ينتقل من خرافة بسيطة لأيسوب ، إلى حكاية حكاها واحد من العظماء أو المشاهير

ثم إلى الكتابة عن قول مأثور ، أو قطعة من الحكمة السائرة ، أو يتناول الشخصيات البارزة فى التاريخ بالمدح أو الذم أو المقابلة . وكثيرا ما كان الطلبة ينشئون دراسات لشخصيات معروفة . وربما طلب إلى التلاميذ أن يصفوا بعض الصور المعلقة فى مقر مجلس المدينة ، أو يبحثوا فى مسألة عامة مثل : هل على الرجل أن يتزوج أم لا ؟ ثم يتدرج من ذلك إلى تمارين أطول وأصعب ، فينثر خطاب أحد أبطال هوميروس . وفى ذلك العصر الذى كانت الثقافة فيه تتركز فى المراسلات ، كان لا بد من دراسة مفصلة لفن كتابة الرسائل . وكانت الرسائل النموذجية تقرأ بصوت مرتفع فى المدرسة . إذ كان لا بد للرسالة من أن تبرز شخصية الكاتب ، وأن تكون قصيرة مصوغة فى أسلوب أتيكى صاف . وكان لا بد أن تكون اللغة فيها سهلة تتخللها الأمثال كثيرا . وثمة مؤلف حديث عن الأمثال الواردة فى كتابات سينيسيوس ، وقراءته تدل على مقدار حرص الناس على اتباع نصائح ديمتريوس فى هذا الصدد . وكل ذلك مرده إلى حقيقة واحدة ، وهى أن الطالب كان كل شىء ، وأما الموضوع فيتفاوت كثرة وقلة . ومن هنا تبدو لنا مراسلات تلك الفترة متكلفة خالية من العنصر الإنسانى ، وأنها قد تنحط فى كثير من

الأحيان إلى عرض يدل على اطلاع واسع جامد .

ولم يكن الطالب فى ذلك العصر مادة سهلة التكييف بالضبط كما هى الحال اليوم . فنحن نراه يدرس على ليبانيوس فى أنطاكية وإلى جانبه مربيه والعصا فى متناول يده . فأما الأستاذ فكان يجلس على كرسى عال فى حين كان الطلاب يجلسون على مقاعد واطئة . وكان معظمهم يجىء من آسيا الصغرى وسوريا وفينيقية . وقد تتسرب إلى التمرين كلمات اتيكية ، ولا يكاد عصا الأستاذ وسوطه يفيدان فى إبعادها .

وكانت السنة المدرسية تبدأ فى الخريف وتدوم دون انقطاع حتى بداءة الصيف ، ثم تتبع ذلك العطلة وتدوم أربعة أشهر فى فصل الحر . وكانت الدروس تدرس فى الصباح ، كما كان بعض الطلاب الكبار يستمعون إلى المحاضرات بعد الظهر كذلك . وفى أيام الأعياد وميلاد الملوك وغيرها كانت المدارس تقفل أبوابها ، وتقام مصارعات الوحوش والألعاب والروايات فى دار التمثيل . حتى الأساتذة المسيحيون لم يروا أدنى ضرر فى أن يتردد التلاميذ على دار التمثيل ، مع أن إيسيدور *Isidore*[(١)] البيلوسيوى ذم مثل ذلك العمل .

---

(١) ايسيدور البيلوسيوى : هو تلميذ كريسوستوم ، وسمى البيلوسيوى نسبة إلى بيلوسيوم (الفرما) فى مصر . وقد بقيت من رسائله ٢٠١٢ رسالة مكتوبة بالإغريقية .

ومع أنه كان من المسموح به للطلاب فى غزة أن يحضروا التمثيل فقد كان من عادة أساتذتهم أن لا يحضروا . وكانت الراحة يوما واحدا فى مناسبات الأعياد الثانوية كعيد أرتميس *Artemis*[١] . وكان الطلاب يصيحون طالبين إجازة يومين ، بينما كان آباؤهم يتذمرون لما فى ذلك من تضييع لوقت الدرس . وكانت تفرد أيام للخطابة بين حين وآخر يلقى فيها الأكفاء من الطلاب أو الأساتذة نماذج خطابية ، ويدعى لسماعها الأصدقاء والآباء . وكان من الصعب حفظ النظام فى تلك المناسبات . وكان يحدث أن يقبل الخادم ليدعو الطلبة للدخول ولكنهم كانوا يظلون فى الخارج يغنون ، وكثيراً ما كانوا يتهامسون أثناء الخطابة متحدثين عن سائقى العربات والخيول والراقصين ، أو يصفقون للأستاذ فى غير موضع التصفيق . وكثيراً ما كان الطلاب — كما هم فى العصور الحديثة — يستمرئون الكسل ، كما كانت المشاجرات شائعة بينهم . ولم يكن ليبانيوس يرى فى ذلك حرجا لو اقتصرت القذائف على الكتب ، ولم تستعمل فيها الحجارة .

---

(١) ارتميس : إلهة يونانية ، تسمى ديانا *Diana* عند الرومان . وهى حسب ما تقول الروايات القديمة ابنة زيوس *Zeus* وليتو *Leto* . وولدت فى جزيرة ديلوس .

ولكن الطلاب كانوا يتجاوزون الحدود حين يمددون أحد المربين على بساط ، ثم يأخذون فى قذفه إلى أعلى وتلقيه . ولا ريب أن الأستاذ كان يخاف أن يسرف فى الشدة على الطلاب خوفاً من أن يهجروه إلى منافسه . وفى القرن الرابع نفسه كان الآباء كثيراً ما يرسلون أبناءهم إلى الفراش دون عشاء عقاباً لهم . وكان من الاجراءات التأديبيّة الفعّالة حرمانُ المذنب من الذهاب إلى الحمامات العامة .

وكانت جامعة أثينا لا تزال فى القرن الرابع أشهر مركز لدراسات البلاغة ؛ وإلى تلك الجامعة يعزى ما كان قد بقى لها من الأهمية . وفيما خلا ذلك لم تكن يومئذ أكثر من مدينة فى ولاية . وقد تبين شيوخ المدينة أن رخاء السكان يعتمد على وجود الطلاب بهذه الجامعة ؛ ولهذا كانت البلدية تدفع راتب أستاذين للفلسفة ونحويّ واحد على الأقل ، بينما كانت الحكومة تتعهد براتب أستاذ للفلسفة واحد . وكان أساتذة الفلسفة فى الغالب غرباء . وكان الطلاب القادمون من نواحى الإمبراطوريّة المختلفة يميلون بالطبيعة إلى أن يدرسوا على أساتذة من بنى جلدتهم . وكان الأساتذة أعداء بعضهم البعض فى كل مكان ، حتى كان ليبانيوس يرى واجباً على طلابه أن يجعلوا عيش زملائه منغصاً

ما أمكنهم ذلك . وكان تلامذة كل أستاذ للفلسفة فى أثينا يكونون جماعة متماسكة . وكانوا يرون أن الاستماع إلى أستاذ غيره إنما هو خيانة كبيرة . وكان هدفهم من ذلك أن يكثّروا عدد هيئتهم ، فتزيد بذلك مواردُ أستاذهم وصِيتُه . فإذا كانت أوائل الشتاء وأقبل الطلاب الجدد ، حرصت هذه الجماعة على مراقبة كل موانئ أتيكا ، فبثّت كل منها رجالها فى بيرية[1] وسونيوم[2] ، وربما بعثتهم حتى كورنث ، ليقطعوا الطريق على القادمين الجدد . وكانوا يأخذونهم — شاءوا أم أبوا — ودون أن يهتموا برغباتهم ، ويبقونهم سجناء حتى يقسموا أن يسجلوا أنفسهم طلاباً لذلك الأستاذ الذى احتضن آسروهم قضيته . وقد كان ليبانيوس يرغب فى أن يدرس على مواطنه إبيفانيوس *Epiphanius*[3] ، ولكنه سجن وأُجبر على أن يتخلى

---

(١) بيرية *Piraeus* : وهى ميناء أثينا ، وتقع فى شبه الجزيرة على بعد ٥ أميال جنوب غربى أثينا . وقد اقترح ثيمستكليس *Themistocles* اتخاذ بيرية ميناء لأثينا بدل فاليروم ، مينائها الرئيسى قبل الحروب الفارسية اليونانية .

(٢) سونيوم *Sunium* : رأس مشهور يكون نهاية أتيكا من الناحية الجنوبية ، وتقوم عليه مدينة تحمل نفس الاسم فيها معبد لأثينا .

(٣) ايفانيوس : ولد فى فلسطين وتثقف على أيدى رهبان مصريين فنشأ ورعا متعصباً للدين . وقد كان أسقف قسطنطية *Costantia* من أعمال قبرص من سنة ٣٦٧ م حتى وفاته فى سنة ٤٠٣ م .

عن رغبته أمام طلاب ديوفانتس *Diophantus* ، الذين انتزعوه في عنف من جماعة أخرى من الطلاب كانوا قد ألقوا القبض عليه . فإذا كان اليوم التالى أخذ الطالبُ الجديد إلى الحمامات حيث يغطس فى الماء ، ثم يسجل اسمه رسميا . ويصبح لزاماً عليه بعد ذلك أن يقيم مأدبة لزملائه الطلاب . وقد بلغت المنافسة بين هذه الجماعات حداً أضحت المعارك معه تنشب فيما بينها فى شوارع أثينا ، وتستعمل فيها الهراوات والحجارة والسيوف . وقد ألقى الطلبة الوحل فى الشارع على وجه أستاذ للفلسفة غير محبوب ، وجروا أستاذاً آخر — وكان مصريا — من فراشه ليلا ، وجرّوا به إلى نافورة ماء حيث هددوه بأن يقذفوه فى مائها إن لم يقسم أنه سيغادر أثينا فى الحال . وكثيراً ما كانت الدراسة تُهمَل لتحمس الطلاب يومئذ لألعاب الكرة كما هى الحال اليوم ، بينما كان يقع الكثيرون من الطلاب تحت عبء الدين لتبذيرهم النقود على المومسات الجميلات . ولكن كانت تنشأ بين الطلاب خلال سنوات الدراسة صداقات يطول عمرها . فكان الشيوخ منهم يحبون أن يستعيدوا ذكرى الأيام التى قضوها وهم شباب فى المدينة المتوجّة بالبنفسج .

وكان الطلاب يأخذون فى دراسة الفلسفة فى سن الثامنة عشرة أو العشرين . وكانت هذه الدراسة تاج التعليم فى القرن الرابع . وقد كانت الحكومة هى التى تقوم بالإنفاق على المعلمين فى مدن مثل الاسكندرية والقسطنطينية . أما فى أثينا فقد كانت موارد الأكاديمية تزداد بما يقدمه الطلاب المتخرجون من هبات ، فتكفى لتسد حاجة الأساتذة ؛ فكان هؤلاء يصبحون أحرارا نتيجة لذلك . وقد كان أرسطوطاليس يدرّس كمدخل لدراسة أفلاطون . وكان فهم مؤلفات أفلاطون يستلزم معرفة عامة بقواعد الرياضيات والهندسة والموسيقى والفلك . وكانت بعض الكتب الدراسية التى ثبتت جودتها بالتجربة لا تزال تُستعمل — ومنها ما كان يرجع فى تاريخه إلى القرن الثانى . وهكذا كان پروكلوس فى القرن الخامس يحاضر عن إقليدس مع أن كثيرين كانوا يرون أن كتاب بطليموس أوفى وأكثر كفاية . وكانت كتابات أرسطوطاليس وأفلاطون تقرأ على ترتيب معين . ويبدو أن پروكلوس كان يلقى خمس محاضرات يوميا ، يقطع فى كل محاضرة ما يعادل صفحة ونصفا من طبعة تويبنر *Teubner* . ولم تقتصر الدراسة على أرسطوطاليس وأفلاطون فحسب . فقد كان والد

ثيمِسْتيوس *Themistius* يحاضر عن فيثاغورس وزينون[١] وأبيقور[٢] . ويبدو أن الناس ما كانوا يقرأون أبيقور إلا ليتخذوه مركبا لسخريتهم . ولم يستبعد ثيمستيوس من برنامج دراسته الرواقيين فى القسطنطينية . وكان فى متناول يد الأستاذ عدد من الشروح النافعة على أرسطوطاليس (ἐξηγήσεις) ؛ ولكن يظهر أن ثيمستيوس كان مبتدعا حينما ألّف لطلابه شروحا على مؤلفات أفلاطون وأرسطوطاليس . وقد عرفنا أمر هذه الشروح عن طريق الملاحظات التى سجلها الطلاب عنها . حتى إن فيلسوفا مثل بلاكستون *Blackstone* فى عصر متأخر وجد نفسه مضطراً أن ينشرها دفاعا عن نفسه . ولا يزال بعض شروحه على أرسطوطاليس موجودا .

ولكن أهم مظهر بارز فى تعاليم ثيمستيوس هو إلحاحه على قيمة الفلسفة من الناحيتين الأخلاقية والعملية . وقد لقى فى ذلك

---

(١) زينون *Zeno* (٣٣٦ — ٢٦٤ ق . م) مؤسس المذهب الرواقى فى الفلسفة . ولد فى كيتيوم *Citium* من أعمال قبرص .

(٢) أبيقور *Epicurus* : فيلسوف يونانى ولد فى سنة ٣٤١ ق . م فى جزيرة ساموس ، ثم أقام فى أثينا فى سنة ٣٠٦ ق . م . وأسس المدرسة الفلسفية المعروفة باسمه وتوفى سنة ٢٧٠ ق . م .

انظر : BERTRAND RUSSELL : *History of Western Philosophy*, pp. 263 — 74.

عونا من الإمبراطور . إذ كان هو نفسه سياسيا وأستاذا معاً . وجرب أن يخرج الفلسفة من عزلتها و يجعلها قوة فعالة فى التعليم الأخلاقى للمواطنين الصالحين . حقا إن العصر كان ينظر إلى العلم الطبيعى نظرة ملؤها الريبة ، فكان المسيحى يرى أن الكتاب المقدس قد كشف له عن سر الخليقة ونظامها دفعة واحدة ، وكان من السهل أن ينزلق المرء و يؤخذ فى تيار آراء منحرفة عن الدين . حتى الفلسفة اليونانية المتعلقة بما وراء الطبيعة كانت شيئا مريبا . وقد شكا ثيمستيوسُ فى إحدى خطبه من أنه لو شاء أحد من الناس فى القسطنطينية أن يتفرغ لدراسة أرسطوطاليس ، لم يسلم من الجمهور الذى كان ينبّه السلطات دائما إلى ذلك الجرم . فإذا كتب عن الاستدلال أو الطبيعيات فقد استحق الموت بلا ريب . وكانت تسود أهل الاسكندرية تلك الروح التى أدت بهيباطية *Hypatia* (١) إلى حتفها . ولذلك مال المسيحيون والوثنيون إلى تركيز دراساتهم على أساس منطقى حيادى . وانتزعت الاسكندرية قصب السبق من أثينا . ففيها

(١) هيباطية : من أهل الاسكندرية ، اشتهرت بجمالها وفضائلها وسعة اطلاعها . وقد قتلت غيلة سنة ٤١٥ ب . م .

أنشأ الفيلسوف المسيحى أوريجن *Origen* [1] مدرسته الوعظية . وقد ظلت مدرسة الاسكندرية الفلسفية قائمة حتى عشية الفتح العربى .

هكذا كان على وجه الإجمال منهج التعليم الرومانى فى القرنين الرابع والخامس . انتشرت المدارس خلال الشرق الرومانى — فى نيقوميديا وانكيرا من آسيا الصغرى ، وفى قيصرية من كابادوكيا ، وفى قيصرية الجديدة فى ناحية بنطش . ويُشار إلى وجود مدارس فى كيليكية وبامفيلية ، وفى ساردس وبرجامون فى ناحية أيونية . وكانت الإسكندرية مركز الدراسة لأقاليم الجنوب . وكان يؤخذ منها الأساتذة للمدارس فى بيلوسيوم (الفرما) وهرموبولس [2] وأكزيرنخوس *Oxyrynchos* [3]

(١) أوريجينيس *Origenes* (أو أوريجن *Origen* كما يسمى عادة) وهو أحد الفلاسفة المسيحيين الأول . ولد فى الإسكندرية فى سنة ١٨٦ ب.م وتتلمذ على كليمنت الإسكندرى . وقد استشهد أبوه فى سنة ٢٠٢ ب.م. فصار مدرساً للنحو ، وعينه ديمتريوس أسقف الإسكندرية واعظاً فى سنة ٢٠٤ م . وقد زار روما وبلاد اليونان ، إلا أن الأسقف عند رجوعه إلى الإسكندرية حظر عليه التعليم فذهب إلى قيصرية فى فلسطين حيث اشتغل معلماً ، ثم إلى قيصرية فى كبادوكيا . وتوفى فى سنة ٢٥٣ أو ٢٥٤ فى صور .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٧٤ — ٢٨٤ ،
BERTRAND RUSSELL : *Op. Cit.*, pp., 346 — 8.

(٢) قرية الأشمونين : من أقدم المدن المصرية وهى على الضفة الغربية من النيل ، وكانت أكبر مركز لعبادة أنوبيس .

(٣) هى البهنسا الحديثة وتقع قرب الفيوم .

وكذلك لمعاهد قيصرية فى فلسطين وحمص على الحدود العربية . وفى القرن الخامس ذاع فى الشرق صيت بعيد لمدرسة الخطابة المسيحية فى غزة ، بينما كانت أنطاكية وأفامية وخلقيس وحمص فى سوريا تفخر بأساتذتها المشهورين .

وفى كل هذه المدارس ظلت اللغة الإغريقية محتفظة بمكانتها . وقد كان أعاظم الأساتذة مثل ثيمستيوس وليبانيوس ينظرون بازدراء إلى اللسان الغربي . وقد رفض ليبانيوس عمداً أن يتعلم كلمة واحدة من اللاتينية . وعدّ قيام مدرسة تعلم اللاتينية فى أنطاكية إهانة شخصية له . ولم تكن دراسة اللاتينية تعلم بحماس إلا حيث كان يدرس القانون الرومانى . وفى غير ذلك كانت محاولات الأباطرة لنشرها فاشلة فى الغالب . ولم يكن للفلسفيات شأن فى مدارس القانون بالإسكندرية و بيروت . ولم يكن الناس يتعلمون فيها من البلاغة إلا ما كان ينفع المحامى أو الموظف الإدارى عمليا . وقد حاول جستنيان أن ينعش دراسة القانون التى كانت منذ ذلك الحين قد أصبحت وقفاً على جامعات القسطنطينية وروما و بيروت ، فأصبح منهج هذه الدراسة فى المستقبل يستغرق خمس سنوات . فكان الطلبة يدرسون فى سنتهم الأولى النظم *Institutes* ، والكتب الأربعة الأولى من الموجز *Digest* .

وكانت السنوات الثلاث التالية تنفق فى دراسة الموجز ، مع أن التلاميذ كانوا يعفون من الامتحان فى الكتب من ٣٧ — ٥٠ : أما السنة الخامسة فكانت تكرس لدراسة القانون *Code* . وقد منع الإمبراطور بشدة ما كان شائعاً من تعذيب الطلبة الجدد والسخرية منهم . إذ كان يعتبر ذلك تقليداً كريهاً غير لائق ، ويصح للعبيد فحسب ، لا للطلبة الجادّين .

وحتى فى القرن الرابع نفسه — كما رأينا — كانت الثقافة القديمة تقف موقف المدافع عن نفسه ، لأن تسامح الأباطرة الأرثوذكسيين مع الفلسفة اليونانية أخذ يقل بالتدريج . وفى سنة ٥٢٩ م صادر جستنيان الموارد التى كان يُنفق منها على تعليم الفلسفة فى أثينا . وأرسل أساتذة الفلسفة إلى فارس منفيين . وقرر أن تُستقى ثقافة العالم الرومانى الشرقى من أصول مسيحية . ويسدد بركوبيوس إلى جستنيان اتهاماً بأنه حول المال ، الذى كان ينفقه أسلافه رواتب للعلماء والحكماء ، إلى أهداف أخرى . وقد أغلق فوقاس البربرى (٦٠٢ — ٦١٠) جامعة القسطنطينية ، وحلت محلها مدرسة دينية فى أيام خلفه هرقل . وإلى هذه الأكاديمية الجديدة ، القائمة فى قصر على مقربة من خالكوبراتيا *Chalkoprateia* ، دعا الإمبراطور الفيلسوفَ ستيفانوس *Stephanus* ، آخر من كان

يمثل مدرسة الإسكندرية الفلسفية . ومن ثم يظهر أن التعليم في العاصمة كان دائماً تحت إشراف البطريق .

وقد شهد القرن التاسع نهضة فى تعلم الفلسفة والعلم اللذين كانا يلقيان عوناً صادقاً من الأباطرة . وقد أعاد القيصر بارداس إنشاء الجامعة القديمة فى القسطنطينية ، وعين لها أساتذة فى الهندسة والفلك وفقه اللغة . ونستطيع أن نحيط ، من سجل كتب مكتبة فوتيوس ، بالعدد العظيم من الكتاب الناثرين الذين كانت مؤلفاتهم تدرس وتحلل فى حلقات القراءة ، التى كان أولئك الموسوعيون البيزنطيون يعقدونها ، ويبذلون فيها جهداً لا يعرف التعب . والواقع أن الدراسات القديمة لم ينقطع تدارسها فى القسطنطينية منذ عهد فوتيوس إلى سقوط المدينة سنة ١٢٠٤م . غير أن الكنيسة كانت تنظر إليها بعين الريبة ، حتى إن ألكسيوس الأول كومنينوس عند ما أصلح التعليم ، وجد أنه لا بد من إحلال الكتاب المقدس المكانة الأولى فى الدراسة ، مع أنه كان يشجع الذين قبسوا مبادئ أولية من فلسفة أرسطوطاليس .

ولا نسمع عن تعليم القانون إلا القليل . ولكننا نعلم أنه لم تكن لتوجد فى القسطنطينية فى القرن الحادى عشر مئونة من الدراسة القانونية . فلما أنشئت فى العاصمة مدرسة جديدة أيام

قنسطنطين مُنوماخوس سنة ١٠٤٥ م ، اضطر الإمبراطور أن يعترف بأن أسلافه قد تركوا « دراسة القانون المقدسة تمضى على عواهنها من غير توجيه ، كقارب بلا دفة فى لجة الحياة » . وكان المحامون قد أخذوا يزاولون المحاماة دون دراسة . وحتى الذين كانوا يرغبون فى أن يدرسوا ، لم يجدوا إلا كتبا مدرسية دون أساتذة . وقد خلّف لنا الإمبراطور وثيقة قانونية طريفة جداً عن تأسيس هذه المدرسة ؛ ونستطيع أن نعرف منها أنه كان لا يزال يوجد فى ذلك الحين نحويون يدرسون فى القسطنطينية . ويفيدنا أن نلحظ أنه كان لا بد لرئيس مدرسة القانون الجديدة (νομοΦύλαξ) من أن يكون متضلعاً بالإغريقية واللاتينية معاً .

وإنه لمن سوء الحظ أن مدرسة كانت هذه بشائرها منذ البداية لم يكتب لها عمر طويل . وحينما أقبلت أيام الفوضى فى أواخر القرن الحادى عشر ، كانت خزينة الدولة لا تستطيع أن تخصص للتعليم إلا قليلا جداً من المال . ولا شك أن الإمبراطورية ، التى لم تكن لتستطيع أن تقوم بما يتطلبه أسطولها ، كانت تعد الجامعة نوعاً من الترف لا مفر من الاستغناء عنه .

الفصل العاشر

الأدب

« نحن فى حاجة إلى نوعين من التعليم : مسيحى ووثنى . فنكسب من الأول فائدة للروح ، ونتعلم من الثانى سحر الكلمات »

خوريكيوس ، فى خطابه الثانى عن مارقيان أسقف غزة .
(طبعة بوسوناد ، ص ١٠٩)

تغلبت روما على الدول التى نشأت عن تفكك إمبراطورية الإسكندر الكبير الآسيوية . ولكنها لم تفلح فى فرض الحضارة اللاتينية على البلاد التى تحيط بالحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط . فقد كانت الثقافة الهلينستية واسعة الانتشار ، ثابتة الأساس فيها . وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها دقلديانوس وخلفاؤه فى تشجيع لغة الغرب ، فإن اللسان الإغريقى ظل يحفظ مكانته . وقد اقتبس هذا اللسان عدة ألفاظ من اللاتينية فى مادة الشريعة والإدارة مع عدد كبير من الاصطلاحات العسكرية . ومع ذلك فإن شيئاً واحداً من ذلك كله خلف أثراً ماضياً فى الأسلوب اليونانى : وهو تلك الصيغ الرسمية التى كانت تصاغ فيها

الكتب التى كانت تصدر على هيئة منشورات ومراسيم . وعلى ذلك فأدب روما الشرقية هو أدب يونانى ، حتى إن كوريبوس (١) Corippus الإفريقى ، عند ما نظم ملاحمه اللاتينية فى القرن السادس ، صاغها فى قوالب يونانية . وكان هذا الأدب إلى جانب ذلك تحصيلياً . فقد ورث البيزنطيون منقولات الأساتذة الهلينستيين — وهم رجال لم يحاولوا أن يصوروا حياة عصرهم بقدر ما حاولوا أن يستعيدوا أفكار الماضى المجيد وأعماله — وقد صاغوا أساليبهم فى قوالب أتيكية ، درسوها مستعينين بالمعاجم وكتب النحو . ومن ثم نشأت تلك الهوة — التى لا تزال موجودة — بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة فى بلاد يونان . وما يصدق على تلامذة عصر البطالسة يقال فى (الإسكندريين المسيحيين) — من علماء القسطنطينية . فإن مؤلفاتهم تعوزها السلاسة التى تصدر عن الطبع . وكل نهضة أدبية تنظر إلى الوراء ، وتعمل على أن تحكم الروابط التى تصل الحاضر بالماضى . ولكنها تتسم بالتقليد

---

(١) فلافيوس كرسكرونيوس كوريبوس : شاعر رومانى من شعراء القرن السادس الميلادى . وهو صاحب الملحمتين *Iohannis* أو *De bellis Libycis* و *In laudem Iustini minoris* وتقع هذه فى أربعة كتب يتحدث فيها عن موت جستنيان ، وتتويج خلفه جستنيان الثانى ، وعن الحوادث التى وقعت فى أوائل حكمه .

الدقيق للأسلوب الأتيكى ، الذى كان قد أصبح حينذاك موغلا فى القدم متكلفا . وهكذا يقف المؤلفون المسيحيون فى ذلك العصر بعيدين عن عصرهم . وتراهم، وهم يعيشون فى مجتمعاتهم المسيحية ويؤلفون لها ، يتكلمون عن الطقوس المسيحية وأعيادها وكأنها أشياء غريبة مجهولة . ويخيل إلينا ونحن نقرأهم أننا نسمع هيرودتس — مرة أخرى — يشرح لقرائه اليونان معتقدات المصريين وطقوس عبادتهم العجيبة . وتتوارد على صفحات كتبهم أفكار الوثنيين عن الحظ والقدر باعتبارهما القوتين الدافعتين الفعالتين فى عالم تزدهيه الخيلاء بأرثوذكسيته الخلقيدية . وإنه لما يبعث اليأس فى قلب دارس الأجناس الحديث أن يرى شعوباً ، لم تعرفها يونان القديمة ، قد دخلت المسيحية تحت أسماء وضعها كبار مؤرخى العصور القديمة . ونحن اليوم على استعداد لأن نضحي بالكمال الشكلى إذا استطعنا أن نستبدل به عبارة صادرة عن شخصية حقيقية من نفس العصر . أما البيزنطى القح فكان الشكل أهم شىء عنده . وكان يحسب أنه لن يستطيع أن يهيىء لنفسه مكاناً طيباً فى محراب الأدب المخلد إلا إذا اجتهد مخلصاً فى متابعة التقاليد القديمة . وهكذا حافظت روما الشرقية بعناية فائقة على تراثها الذى لا يقدر ، وانفقت جهدها فى دراسته عن

طريق التعليقات والشروح . ولكن كان يعوزها تطلع الشباب الإلهى ، والرغبة فى تعمق أسرار الطبيعة والوجود ، وروح البحث الحرة ، التى تبدو فى مؤلفات المفكرين اليونانيين الأقدمين وكأنها نسيم الصباح . وتبدو أصالة الأدب البيزنطى فى أكمل صورها فى اللاهوت ، وفى الشعر الدينى والتاريخ . هذا وقد ظلّت القصائد اللاذعة موجودة ؛ و إلى تعشق البيزنطيين لهذا اللون من الفن الأدبى يرجع الفضل فى بقاء مجموعة المختارات اليونانية .

وقد رأينا أثناء دراستنا للحياة الاجتماعيــة والدينية فى الإمبراطورية أن حكم قنسطنطين يبدأ عصراً جديداً . و يصدق هذا إلى حد بعيد على القوالب الأدبية . إذ أن ظاهرة جديدة أخذت تظهر : فقد كان الشعر الكلاسيكى خاضعاً لقواعد أساسها الـكم ، وكان تركيب عبارته يقوم على أساس من طول المقاطع . أما فى لغة الكلام ، فى عصرنا الذى نتحدث عنه ، فكان النبر هو ميزان الكلمات . ووضع الضغط على المقطع المنبور . وعلى هـذا قصّرت المقاطع غير المنبورة مهما بلغ طولها الطبيعى . وقد جرى على هذه القاعدة جريجوريوس النازيانزى الذى كتب شعراً ، اتخذ النبر وحده أساساً لصياغته . ونظمت المدائح الدينية المسيحية فى شعر ميزانه عدد النبرات . واستحدثت القوافى لتكون رباطاً بين الأبيات . ولما كانت البلاغة تميل إلى إزالة

الفوارق بين الشعر والنثر بما فيها من الموسيقى الإيقاعية ، فقد تأثر النثر الفنى بالتطور الجديد . ولكن ، لما كان أدب روما الجديدة محافظاً قبل كل شيء ، فإن غلبة الشعر الذى يوزن بعدد المقاطع ظلت على ما هى عليه ، لم تهددها النزعة الجديدة بخطر جسيم . هذا ، وينبغى أن نضيف أن النبر ظل يؤثر فى بنائه بصورة متصلة . وكان له أثر جديد فى البحور الشعرية القديمة . وهذا مثل واضح جداً لقوة التقليد الأدبى .

وفى القرن الرابع كتبت مؤلفات أثناسيوس بطل الأرثوذكسية ، وباسيل مؤسس الرهبنة اليونانية ، وكذلك مؤلفات اللاهوتيين من أمثال جريجوريوس النازيانزى ، وجريجوريوس النيسى ، ويوحنا كريسوستوم مفسر الكتب الدينية . وبعد ذلك بقليل ، نشر كيرلس الإسكندرى مقالاته التى شرح فيها عقيدته ومساجلاته فى الدفاع عنها . وأولئك هم الثقات الأثبات لكل اللاهوتيين البيزنطيين ، الذين أتوا فى العصور المتأخرة . ولم يحاول أحد أن يرجع إلى ما كتب قبل هؤلاء — مثل الكتابات اليونانية الأولى التى كتبت بعيد عصر الرسل بقليل . ولم يُستَثْن من ذلك إلا الحارث *(Arethas)*[1] القيسرانى (فى القرن

(١) الحارث القيسرانى : هو تلميذ فوتيوس ، وكان رئيس أساقفة قيصرية (٩٠٧ — ٩٣٢ م) .

العاشر) الذى درس كتابات المدافعين عن الدين المسيحى من رجال القرنين الثانى والثالث . ولم تترك بدعته تلك أى أثر دائم على الفكر من بعده . وهنا أيضاً يعين لنا القرن الرابع مفترق الطرق .

أما كبار الكتاب فى عصر الآباء ، فلم يكن من نواياهم أن يتخلصوا تماماً من تلك التقاليد القديمة التي تعلّموها . ووضعوا ما درسوه من البلاغة التى تعلموها من السفسطائيين الوثنيين فى خدمة المسيحية . وكان أسلوبهم المنمق المحلّى بألوان البديع إنما هو ثمرة الدراسة فى المدارس . وكما كانت عبارات رجل مثل ليبانيوس تقاطع فى الفقرات المبدعة بالتصفيق من سامعيه ، فكذلك كانت مواعظ خطباء الكنائس . على أن لا يفوت انتباهَنا فرق واحد ، وهو أن السّفسطائى ، كان يخطب فى مواضيع جامعية (فلسفية) للأقلية المثقفة ، بينما كان الواعظ المسيحى ينشر رسالته بين الفقراء والأميين ، وهم جمهور المدن الكبيرة . وهذا الرونق اللفظى الخصب هو الذى يقع من أفئدة القراء المحدثين موقع السآمة والإملال ، لأن العبارة الأرجوانية فى الموعظة ، وإن لم تكن فنية ، تُتقبل بتساهل ؛ أما إذا أصبح نسيج الموعظة كله فسيفساء لامعة من رقع أرجوانية ، فإنه يجهد الذهن ، دون أن يصل الإنسان عن طريقه إلى الذروة الحقيقية

المبتغاة من وراء الحديث . ثم يبدو لنا ، نحن أبناء الغرب ، أن الآباء الإغريق قد نسوا أن النصف كثيراً ما يكون أعظم من الكل . إن الشرق يترخص فى قبول الكلمات الكثيرة ، والمؤثرات الآسيوية بيّنة بوضوح — فى هذا الأدب البيزنطى — فى كثرة الأخيلة والبديع ؛ تلك الكثرة التى قد تُبهم العبارة ولا توضحها . وليس معنى هذا أننا نجارى بعض العلماء المحدثين فيما يذهبون إليه من أن المميزات الشرقية غالبة على الأدب البيزنطى فى كل مكان . فهذه نظرة فيها مبالغة فى رأى كاتب هذه السطور . و إنما يرى أن الأجدر بالعناية أن نبين بجلاء علاقات روما الجديدة الأدبية بتلك الحضارة العالمية ، التى نشأت وارتقت بعد وفاة الإسكندر على سواحل البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، وخاصة فى المدينة المصرية العظيمة التى أسسها ذلك الفاتح . هذه الحضارة — بلا نزاع — امتزج بها كثير مما هو شرقى ، ولكنها بقيت فى نواتها يونانية . وهذه هى الثقافة الهلينستية التى بقيت — كما يرى المؤلف — مصدر الوحى الرئيسى للأدب البيزنطى .

وهبنا سلمنا أن نتاج آباء القرن الرابع شديد الزخرف ، قليل النظام ؛ وهبنا سلمنا أنه قد يكون من الصعب على الطالب الحديث

أن يتطلع بغير ابتسامة الرثاء إلى منظر أوروبا وهي تتشاحن حول مسألة اندغام حرفَىْ علّة أحدهما في الآخر ؛ غير أننا إذا استطعنا أن نتحرر مما نعرفه مُقدّماً عن الأدب البيزنطي ، فإنه يثبت في أذهاننا أن هذا الأدب خصب في إنسانيته ، وسنشعر حين نقرأه مرة أخرى بذلك التحمس الملتهب إلى العدالة ، الذي استغرق نفس كريسوستوم ؛ وبتلك الشجاعة التي بعثت الأمل في أنطاكية اليائسة ، حين كانت كل المدينة تترقب الانتقام الإمبراطوري بعد ساعة من الهياج الطائش . وإذا قرأنا رسائل باسيل استطعنا أن نتفهم تحت ضوء جديد ، وأن نتبيّن تلك الرجولة الجريئة التي أبداها رجل سياسي ديني كان يحمل على كاهله عبء حماية الكنائس الباهظ . وإذا غضضنا الطرف عن صياح الفوز المخجل الذي استقبل به جريجوريوس النازيانزي موتَ يوليان ، استطعنا أن نقرأ الأشعار التي صوّر فيها الأفراح والأحزان المتشابكة في حياته المتقلبة بين حلاوة ومرارة .

بيد أننا إذا حاولنا أن نجد هذه الإنسانية في الكتابات اللاهوتية التي ولدتها الخصومات المونوفيزية ، لم نظفر بغير الحسرة والأسى . وسيظل المؤرخ واللاهوتي يدرسان هذه الكتابات . أما القارئ العام فإنه سيطلب متعته في غير ذلك الموطن . ولا

ينبغى أن يغيب عن أذهاننا أنه حوالى سـنة ٥٠٠ م عاش ذلك المؤلف المجهول الذى حاول أن يقنع الناس بأن مؤلفاته سطرها يراع ديونيسيوس الاريوباجى تلميذ بولس . وقد وفق إلى ماطلب زمنا طويلا . ولم نتمكن من تحديد تاريخ تأليفها تحديداً لايقبل النزاع إلا فى السنوات الأخيرة .

وكان العالمان الفكريان ، اليونانى والمسيحى ، يعيشان قبل هذا العصر جنباً إلى جنب . أما فى خلاله فقـد امتزجت الثقافة القديمة بالعقيدة الجديدة . و إننا لنقرأ تلك المقالات الصوفية التى أنشأها الأريوباجى ، معتمداً فيها إلى حد كبير على كتابات بروكلوس أحد تلامذة الأفلاطونيـة الجديدة ؛ ونرى أنه استخدم الفلسفة اليونانية فى الدفاع عن المسيحية . لقد انتهى النزاع القديم . وفى القرن السابع لم يكن دفاع ماكسيموس ، بطل الأرثوذكسية ، أثناء الصراع حول المسألة المونوثيليـة إلا تثبيتاً لجذور التعاليم الديونيسيوسيَّة فى الـكنيسة الشرقية . وكان قد أدخل ليونتيوس البيزنطى (القرن السادس) تحديدات ارسطوطاليس فى التفكير المسيحى .

وقد كان النزاع حول اللاصـورية هو الذى حدا بيوحنّا الدمشقى إلى أن يكتب دفاعه المشهور عن الصور المقدسة .

وحاول فى كتابه « ينبوع المعرفة » أن ينسّق و ينظم تراث آباء الكنيسة ، فهو يعترف قائلا «لن أقول شيئاً من بنات فكرى» : ذلك لأن الأصالة كانت قد أصبحت موضع شك .

ويمكن أن يقال إن عيد الأرثوذ كسيَّة (٨٤٣) يرسم نهاية فترة الإبداع فى اللاهوت البيزنطى ، و يبدأ فترة التقليد . إذ فقد تفكير رجال الكنيسة قدرته القديمة على الاستيعاب . ولم يعد يسمح أن تتسرب إليه أية فكرة من الفلسفة اليونانية . وهكذا أصبح الإنسانيون فى الدولة الشرقية كالهراطقة متهمين فى نظر رجال الدين . ورغم هذا فقد استمر الناس يدرسون ارسطوطاليس وأفلاطون و بروكلس وياممبليخس *Iamblichus*[1] . وكان يوحنّا بيزنطيوس ، الذى قارن أفلاطون بالمسيح ، أستاذَ بسلّوس الذى رأى فى افلاطون مبشِّراً بالمسيحية . وكان يوحنّا ايطالوس الذى عاش تحت حكم ألِكسيوس الأول تلميذَ بسلّوس . وقد اعتنق التناسخ وقال بنظرية المُثل الأفلاطونية فأُعدم لتفضيله الأفلاطونية على الأرثوذ كسية . وذلك الذى ألقى نفسه من حالق

(١) يامبليخوس (٢٧٠ — ٣٣٠) : أبرز الفلاسفة الأفلاطونيين السوريين فى القرن الرابع . ولد فى خلقيس من أعمال سوريا ، ووضع كتباً فلسفية ورياضية ودينية .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ٢٩٨ — ٢٩٩ .

إلى البحر صائحاً « خذنى يا بوسيدون »[١] ، هو تلميذ آخر من تلاميذ بسلّوس المتحمسين للعالم القديم . ومن ثم فليس بعجيب أن ألِكسيوس الأول ، حين كان يحاول إصلاح التعليم فى العاصمة ، وجد أنه من الضرورى النص على ضرورة اختصاص الكتاب المقدس بنصيب من العناية أوفى مما يبذل على الأدب الوثنى . ومن هنا نفهم السبب الذى حدا بصاحب القطعة الساخرة المسماة « المواطن الصحيح » (المحب للآباء) إلى أن يعتبر أولئك الذين تمنوا هزيمة القوات الرومانية فى آسيا والهيومانيين البيزنطيين خونة هذا هو التوافق الذى أشرنا إليه مراراً بين الأرثوذكسية والقوة الإمبراطورية ، بين الكنيسة والجيش .

وكان علم اللاهوت فى الدولة الرومانية الشرقية منصرفاً تمام الانصراف إلى المساجلة العظيمة مع روما ؛ فلما كف عن الانتاج فى هذه الناحية ، بدأ يكسب انتصارات جديدة فى الغرب . وفى القرن التاسع ترجم سكوتس إريجينا[٢] *Scotus Erigena*

(١) بوسيدون *Posidon* : إله البحر عند اليونان ، وهو نبتون عند الرومان .

(٢) جوهانيز سكوتس إريجينا (حوالى ٨١٣ — ٨٨٠) : وهو إرلندى ، من أكبر فلاسفة القرن التاسع الميلادى ، استقدمه ملك فرنسا ، فأقام فى بلاطه وعلم فى مدرسته .

انظر : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة فى العصر الوسيط ، ٧١ — ٧٧ ، BERTRAND RUSSELL : *Op. cit.*, pp. 421 — 27.

مؤلفات المسمى ديونيسيوس ، ومؤلفات ماكسيموس إلى اللاتينية . واتخذ بطرس لمبارد ، أول لاهوتى منهجى فى القرون الوسطى فى أوروبا الغربية ، كتاب « ينبوع المعرفة » ليوحنا الدمشقى ، نموذجاً له . كما أن حامى عبادة التماثيل هذا كان له أثر لا ينكر على توماس الأكوينى . وفى الشرق تغذت الآداب السريانية والأرمينية بترجمات من اليونانية ، بينما كونت بلغاريا لنفسها فى زمن مبكر مكتبة استغلتها الصرب وروسيا لفائدتهما الخاصة ، وذلك بترجمة المؤلفات البيزنطية . أما فى ميادين الشعر غير الدينى ، فلم توفق بيزنطة أبداً إلى شىء ممتاز من الطبقة الأولى . فقد مات (الشعر السداسى التفاعيل *Hexameter*) مع نونوس *Nonnus* المصرى (القرنان الرابع والخامس) . واستعمل من ثم الشعر ذو الاثنى عشر مقطعاً بانتظام ، وقد أصبح جورج البيزيدى ، عميدُ هذا الفن (القرن السابع) ، مثالا يحتذيه الكتاب المتأخرون . ويستطيع الطالب من قصائده ، أكثر من أى مصدر آخر ، أن يقف على معنى السيادة البيزنطية كما كان يفهمها مواطن القسطنطينية . غير أن الشعر البيزنطى غير الدينى لم يستطع أن ينتج أعمالا ذات نفس طويل . وكما أن الفن أحرز بعض انتصاراته العظيمة فى الفنون الصغيرة — أعنى فى النقوش البارزة على العاج والفسيفساء

والمصوغات ، فكذلك كان الأمر فى الشعر . فقد عالج الشعراء القصيدة الصغيرة بنجاح ظاهر . أما الشعر الغنائى فقد مات ، واستبعدت مواضيع الحب المتبادل بين المرأة والرجل إلى شعر الملاحم الشعبية . وقد نبع الأدب البيزنطى كما نراه بين أيدينا من مصدرين : أولا : أصحاب المثل العليا من بين الرهبان والراهبات وأفكارهم عن العالم الآخر ، وهم الذين كان لا يعنيهم من شئون هذه الدار العاجلة إلا العثور على فرص يرفضونها ، ويؤكدون بهذا الرفض عزوفهم عن كل ما فى هذه الدنيا . وثانياً : الواقعيون من رجال البلاط ورجال الدولة والأباطرة ورجال الإدارة . وبذلك أصبح الأدب الرومانى (أدب العاطفة المشبوبة والخيال الطلق) إما آثماً أو غير لائق ، إذ لا حدود له . وكان الأدب المحافظ ينفر من أن يعترف بالجمال فى أغنية ريفية .

أما فى الشعر الدينى ، فقد أخرجت بيزنطة شاعراً واحداً ذا أصالة — على الأقل . ففى أوائل القرن السادس عاش رومانس ، الذى تحول من اليهودية إلى النصرانية ، ونُصِّب شماساً فى بيروت . ومن سوريا ذهب إلى القسطنطينية . وفى إحدى الأعياد الليلية فى كنيسة بلاخرناى ، أُعطيت له بنوع من المعجزة (كما تقول القصّـة) موهبة إنشاء المدائح اللاهوتية . ولعل رومانس كان يجد

نماذجه ، من حيث الشكل ، فى المدائح السريانية التى ألفها مواطنه إفرايم *Ephraem*[(١)] . وكما أن الحوار شائع فى مؤلفات إفرايم ، فكذلك أدخله رومانُس فى المدائح اللاهوتية التى يمكن أن يغنيها عندئذ جماعتان من المغنين ، لكل منهما صوت متميز . وقد خلّد فيها عظمة القديسين والشهداء ومدائح الأسرار المسيحية . ولسوء الحظ لا يمكننا أن نحصل إلا على فكرة ناقصة عن مؤلفاته ، لأن كثيراً من هذه المدائح لا يزال غير منشور . وإن الوضوح وبساطة الأسلوب فى أحسن ما نظمه من مدائح ، كانا سبباً فى إهمالها أو نزعها من كتب الصلوات . وبعد القرن التاسع حل محلها « ضرب من الأناشيد الموسيقية » أكثر منها زخرفاً وتكلفاً . وانطفأت الحياة والقوة فى تلك التباشير الأولى .

بيد أن تفوق الشعر الرومانى المتأخر على الشعر الغربى يبدو فى أجلى صوره فى مجال التاريخ . وإذا استثنينا الفترات التى اضطر السيف فيها أن يقوم مقام القلم ، كفترة القرن السابع مثلا ، لاستطعنا أن نقول بأن التقليد الأدبى الكلاسيكى لم يمت .

---

(١) افرايم (٣٠٦ — ٣٧٨ م) : من رجال الكنيسة وهو شاعر وخطيب . ولد فى نصيبين ، وغادرها — بعد أن احتلها الفرس سنة ٣٦٣ — إلى كهف بالقرب من الرها حيث كرس نفسه للعبادة وقراءة الكتاب المقدس .

وظلت الإمبراطورية الشرقية إلى النهاية تدرس تاريخها وتسجله كما تدرس وتسجل تاريخ أصدقائها وأعدائها . ونحن آخذون رويدا فى تبيّن مقدار ديننا لإلهة التاريخ البيزنطية .

وإلى جانب الرواية الأدبية ، التى يقصها المؤرخ ، نجد تلك السلسلة التى لا تنتهى من مدونات التاريخ العالمى ، المعروف منها وغير المعروف ، والتى لا تقتصر على تاريخ يونان وروما وحدهما ، بل وتاريخ العالم كله ، كما كان معروفاً منذ خلق الانسان حتى أيام الراهب « العبد الفقير المذنب الخاطىء » مصنّف تلك المدونة . وتتوقف أهمية هذه المدونات على اتساع مداها . وقد كانت فكرة كتابة تاريخ العالم نتيجة لإيمان الناس بخلاصه (على يد المسيح) . ولم يتكشف للناس ضيق أفق هذه المدونات إلا بعد ظهور الكشف الأثرى . وإذا تأملنا كتابات مؤرخينا من أمثال إدوارد ماير وماسبيرو ، لوجدنا أنها أَخَذَتْ عن أصحاب المدونات فى الدولة الشرقية فكرة كتابة تاريخ البشرية كقصة متطورة متصلة ، وحوروها بما يطابق العلم الحديث ، وما أضافته إلى علمنا اكتشافات الأثريين المنقبين بفؤوسهم .

والمدوّنة التاريخية — وهى كتاب تاريخ الناس — تفضى بنا فى النهاية إلى ذكر الأدب الشعبى للعالم البيزنطى . وهذا يتألف

على الأغلب من الأساطير الإغريقية التى أصابها التكبير والتحوير كقصة حصار طروادة ، وسيرة أعمال الإسكندر العظيم . وقد أصبحتا نموذجاً للبطل المسيحى . وفيها كذلك حكايات شرقية منقولة من بعيد ؛ وقد أخفاها ثوبها المسيحى حتى تكاد أصولها أن تَخْفى على المعرفة . وأشهر هذه قصة برلام *Barlaam* ويوسافات *Josaphat* التى يمكن الآن قراءتها مترجمة إلى الإنكليزية . وفيها ملاحم تغنى إلى جانب نار المعسكر عند الثغور فى الحروب مع العربى الوثنى ، مثل ملحمة ديجينيس أكريتاس التى لم تُبعث إلى الوجود إلا فى القرن الماضى . ولعل ألذّ عناصر هذا الأدب الشعبى البيزنطى ، هى سِيَر القديسين التى كتبها الرهبان المتواضعون للجمهور البسيط . وهى تعرض علينا أفراح رجال ونساء أغْمَار ، وأحزانهم ، وما أبدوه من البطولة ، مما حببهم إلى الشعب . ولم تكن أعمالهم على ذلك مما يستحق التدوين فى تواريخ الإمبراطورية. من هذا الأدب الشعبى فى بيزنطة يستفاد الشىء الكثير : فها هنا حقول قد أينعت وآن أوان حصادها .

الفصل الحادى عشر

الفن البيزنطى

« إن الصورة الماثلة تبعث فى الذهن ذكرى أشياء سماوية »
نيلوس ، أشعار إغريقية ، الكتاب الأول رقم ٣٣ .

هناك أسباب كثيرة وجيهة قضت بأن يكون هذا الفصل قصيراً ، غير أن واحداً منها يغنى عن البقية . ذلك أن كاتب هذه الفصول يعتقد أنه لو حاول أن يصدر حكما مستقلا فى المسائل الشائكة التى تواجهنا عند دراسة الفن البيزنطى ، لكان ذلك من قبيل الجرأة ، لا أقل . فدعنا نعترف صراحة ، بادئ ذى بدء ، أن مادة هذا الفصل قد استقيناها من كتب الأساتذة المعترف بهم ؛ وربما كان بالنسبة إليهم دليلا متواضعاً ، وهو فى الحقيقة مقدمة لثبت المصادر(١) .

لقد كان مولد الفن المسيحى فى الأطلال ؛ ولما كانت الدولة الوثنية قد اضطرته إلى طلب بطن الأرض ، فقد كانت النتيجة أن أصبح هذا الفن فناً رمزيا . فتصاويره المرسومة على الجدران

---

(١) إنى أقر شاكرا مساعدة صديقى مستر سترود ريد ونقده .

لم تحاول أبداً أن تمثل الحوادث التاريخية . ولكنه استطاع أن يوضح لنفسه رسالته التى تقوم على البشارة والرجاء أى « رقيته الطيبة » للخلاص ؛ وقد استعان فى ذلك بالإشارات الصوفيّة التى ابتدعتها المدن اليونانية فى الشرق الأدنى الذى ظهرت المسيحيّة فى أكنافه .

وهكذا تحوّلت الطائفة المنبوذة عن هذا العالم الحاضر الشرير إلى عالم الروح سعياً وراء الثقة وحفز الهمة . وأصبحت لشارات أهل الإسكندريّة ، التى هى المرساة والىمامة ، معان أخرى جديدة . وأصبحت صورة هرمز والكبش على كتفه رمزاً للراعى الصالح يحمل الخراف الضالّة ؛ بينما فسّرت صورتا بسيخه *Psyche* والأورانتيز « *Orantes* = المصلون » وهم يصلون بين أزهار الفردوس رمزين للرجاء الوطيد الأكيد فى خلود الروح .

وعندما انتصر الجليليون المضطهدون فى القرن الرابع ، ظهر الفن طفرة ليتوج نصر المسيحية ، كما كانت الإلهة ديميتر تطفر من باطن الأرض فى الأساطير . وظهرت الكنائس إلى عالم الوجود بفضل عطف الملوك فى كل مكان ، كما لو كان ظهورها بفعل السحر ؛ وبدا لمنشئيها أن الرمزيّة القديمة أكثر سطحية

وأكثر اضطراباً من أن تصلح لتجميلها . لقد انقضى شتاء المسيحيّة وأقبل ربيعها ، وكان لا بد له من رواء فخم يناسبه .

كانت روما الوثنية قد خلقت من الفن الهلينستى فى القرون الأولى من التاريخ المسيحى فناً إمبراطورياً واقعياً يتمثل فى المنشآت التذكاريّة . وقد طبع هذا الفن بالطابع الرومانى ، وانتشر فى ولاياتها ، واتّسم بالروح العالمية لإمبراطوريتها . ولما اضمحل أمر مدنية روما فى القرن الثالث ، وأعاد الشرق سيادة الدولة الرومانية كما رأينا ، وجد هذا التقليد الإمبراطورى في الشرق الألوان ومهارة الزخرفة التى يُضفى منها على الفخامة الإمبراطورية لباساً من الأبّهة . فأضاف الناس إلى تصاوير الحوائط فنّ الفسيفساء الحائطية ، وتوسّعوا فيه ، لأنه كان أقدر على التأثير فى النفس وأوسع مجالا ، وأدق خطوطا ، ولأن رسومه تُرى واضحة عن بعد : فن يحتاج إلى مجال واسع ، ولا بد له من عون المهندس المعارى حتى يرقى وينمو .

بيد أن العاصمة الجديدة قامت وسط بلاد تتكلم الإغريقية . وكانت النزعات الإنسانية الإغريقية ، والنماذج العظيمة للجمال الإنسانى التى أبدعها الخيال الهلينى ، لا تزال ذات أثر عظيم إلى جانب فنون الزخرفة والتلوين الشرقية هذه .

صحيح أن القسطنطينية ربما تكون قد طفرت طفرة واحدة دون أن تكون لها تقاليد سابقة ، لكنها ادعت لنفسها فخامة الماضى الكلاسيكى : فقد تجمعت فيها إلى جانب المخلفات المقدسة للديانة المسيحية روائع العالم الوثنى ، وأصبحت روما الجديدة متحفاً ومدرسة للفن لا تُجارى . وكان للكنيسة إذ ذاك قصص عظيم تريد أن تحكيه : فقد رغبت فى أن تسجل بفخر بطولة من ذهبوا من المخلصين ، وأن تسجل ثبات الشهداء فى وجه التعذيب والموت : وليس فى هذا الكفاية ، بل أرادت أن تصبح جدران هيا كلها إنجيلا مزيناً بالرسوم المتنصرين الأُميين ، وتاريخاً مصوراً لقصة الفداء . وحين ظهر أن فناً خالصاً للزينة والزخرف على وشك أن ينتصر فى الشرق والغرب ، نبذت المسيحيّة ضغائنها الأولى ، وعاضدت الدولة فى قبول تراث هلاس ، فحفظت للعالم ، بما كان لها من أثر ، فناً قادراً على توضيح معالم الشخصيّة البشريّة مع عمق الشعور الدينى والعاطفى .

لقد اتخذ المخلص هيئة الرجل وطبيعته ، وبذلك أضفى على الذات الإنسانية قيمة لا تقدر . ورفضت الكنيسة أن تقنع بالزينة وحدها . ففى هذا الفن الجديد المعقد ، الذى سارت به روما الجديدة للأمام ، متّسَعٌ فى الحقيقة لكل شىء : كان فيه متسع

للعناصر التصويرية لمدرسة الاسكندرية ، وكذلك للطبيعة وما فيها من أشجار الكروم وأوراق الاكانثوس ، ولمشاهد الألعاب الوثنية والمناظر الريفية ، وللحيوانات وألعاب الأطفال العراة على شواطئ الأنهار ، ولكل صور الخيال الهلينستية : كان هناك متسع لما جرى عليه التقليد الرومانى من مشاهد الأبهة الموكبية والفخامة والقوة ؛ ومتسع للتلوين السابغ ، ولفخامة النقش الفارسى الأرابسك ، ومتسع أيضاً لهذه النماذج النبيلة التى أبدعتها الروح الإنسانية اليونانية ، بينما أخذت الإمبراطورية ما استطاع الشرق تقديمه فى فن العمارة ، ورفعته إلى طبقة جديدة ، حتى بلغ أوجه فى كنيسة أياصوفيا ، أعجوبة العالم التى بناها جستنيان .

وفى الواقع إن التعقيد الذى يتسم به هذا الفن هو سبب استعصاء ما يسمى « بمشكلة الفن البيزنطى » على الحل . لأن الطلاب إذا مضوا يبحثون عن أصوله ، اتجهوا بسهولة إلى أن يجعلوا الأهمية كلها ، فى موضوع أصل هذا الفن ، لقطر بعينه : فإما حصروها بين شرقي البحر الأبيض المتوسط أو روما ، أو بين بلاد اليونان أو الشرق . لقد استقى العالم البيزنطى من عيون كثيرة . ويظهر لدارس التاريخ فى بعض الأحيان أن نقاد الفن لم يتعرفوا إلى أي مدى كانت قدرة الإمبراطورية الشرقية على الاستيعاب متعددةَ

الجوانب . فقد استعارت روما الجديدة من الشعوب الأخرى من غير حرج . ومع ذلك فإن حرصها على تقاليد روما القديمة لم يبد فى شىء بقدر ما بدا فى هذا الميدان . ذلك أنها كانت تطبع ما تستعيره بطابعها حتى يأخذ شكلا وهيئة جديدين على يدها . وكل ما يمكن أن يعالج هنا هو تتبع المراحل التى مرّ فيها الفن البيزنطى فى تطوره .

كانت القسطنطينية فى القرنين الرابع والخامس واحداً من المراكز الكثيرة التى تؤثر فى غيرها . فكانت مصر وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى منافسات العاصمة . وكانت أبنية قنسطنطين فى بيت المقدس معروفة فى نطاق واسع ، عن طريق الحجاج الذين كانوا يتدفقون على الأرض المقدسة ، فيحملون معهم عند رجوعهم ذكريات عن تلك الأماكن المقدسة التى زاروها .

لقد نقلت أنطاكية عن طريق تجارها فنّ الزخرفة السورى إلى أقصى سواحل البحر الأبيض المتوسط ، بينما نقل المعماريون فى آسيا الصغرى فن بناء القباب — ربما من فارس — وحاولوا أن يجدوا الطريق لكى يتطوروا بها إلى الهيئة الشرقية ، بواسطة استعمال الطوب الأحمر . وكما أن القرن الخامس شهد انتصار سياسة التركيز فى المسائل الدينية ، فقد أخذ كذلك تأثير

القسطنطينية يتزايد بالتدريج فى دائرة الفن ؛ ولم يكن هذا راجعاً إلى تصدير رؤوس الأعمدة الجاهزة المصنوعة من رخام بروكونيزيا ، بقدر ما يرجع إلى حقيقتين : ذلك أن مراكز أخرى كانت تسعى وراء هبات إمبراطورية لـكنائسها وأبنيتها المدنية ؛ ومن ينقد العازف أجره له حق طلب اللحن كما يقولون . والحقيقة الثـابتة هو أن الأباطرة كانوا يرغبون عامدين فى نشر تأثير العاصمة ، حتى أصبحت الإرادة الإمبراطورية دافعاً كافياً حَمَلَ الأساليب الأسيوية فى طول الإمبراطورية وعرضها . وعلى الرغم من أن البنّائين كانوا ينتمون إلى مراكز كثيرة ، فقد اتجهوا إلى تحقيق غايات واحدة ، ما داموا يخدمون سيّداً واحداً ؛ وفى زمن جستنيان لم تكن القسطنطينية تخشى أي منافس ، فقد نقل الغرب كنائس روما الجديدة ، كما كان يتبع سابقاً الأنموذج الذى قرره بيت المقدس من قبل .

لقد استغرق بناء أياصوفيا ، التى نذرت فى سنة ٥٢٧م ، خمس سنين ، وفرض على الإمبراطورية المساهمة فى عمل جستنيان العظيم . وكان كلا المهندسَيْن اللذين ابتنياها وهما ، انثيميوس الترالى وايسيدور الميليتى ، من آسيا الصغرى . وإذا قلنا إن القسطنطينية قبست القبة ، وأسلوب الزخرفة القائم على الرخام

الكثير الألوان من الشرق ، نلمس المهارة الإغريقية فى الطريقة التى استعملت فيها القباب المعلقة ، حيث كان فى الإمكان إقامة القبة المستديرة على قاعدة مستطيلة ، برشاقة جعلتها تبدو كما لو كانت معلقة بالسماء . وشعر المعاصرون أن الله والإنسان اشتركا فى هذا البناء العجيب ؛ لأنه إذا كانت مهارة البنائين قد استمدوها من الله ، فقد انتخب الإمبراطور هؤلاء لإقامة هذا البناء الذى تشيع الحياة فى أجزائه جميعاً : لأنه لما كان الفن البيزنطى يحتقر الثقل الجامد الذى توحيه الكتل الجلامد ، فقد حاول أن يوجد نوعاً جديداً من التوازن فى الأبنية عن طريق معادلة الضغوط التى تحدثها أجزاء البناء بعضها ببعض .

ففى خلال هذا العصر الذهبى الأول للفن البيزنطى ، نرى أنه إلى جانب الرّمزيّة الجليلة التى حلت محل تصاوير كنائس الأطلال (انظر كنيسة القديس أبوليناريوس فى كلاسى *Classe* على مقربة من راڤنا) أكملت الفسيفساء الفخامة لفن تاريخى واقعى جديد ، كما نرى فى كنيسة القديس ڤيتالى فى راڤنا ؛ بل كان هذا الفن جريئاً إلى حد عظيم أدخل معه مواضيع جديدة ، كآلام المسيح التى تردّدَ أهل العصور التى سبقته فى تصويرها . وتكونت فى هذه الفترة نماذج الصور المقدسة ، كصور المسيح والعذراء

والأنبياء والرسل . هذا بينما أحيا الفن الدنيوى ، الذى عفت آثاره لسوء الحظ ، انتصارات جستنيان الإمبراطورية وقواده .

ولم يكن لدى روما الشرقية فى القرن السابع وقت ولا مال توقفهما على الفن ، فقد استنزف واجب الذود عن كيانها جميع جهودها . وحينما أقبل عصر الأباطرة ، محطمى الصور ، كتبت للفن حياة جديدة . بيد أننا يجب أن نذكر مرة بعد أخرى أن الأباطرة اللاايقونيين لم يكونوا أعداء للفن إلى ذلك الحد ، ولكنهم كانوا أعداء نوع معين من أنواعه .

و بينما كان الطراز التاريخى الذى شاع فى عصر جستنيان متجهاً إلى الاضمحلال ، شجع الأباطرة فناً دنيوياً وطبيعياً ، ذلك الفن الذى رجع ، إلى حد كبير ، إلى الماضى يستوحيه . فتحول الفنانون إلى الريف والحياة الحيوانية ، و إلى المدن والملاعب ، و إلى الواقعية فى تصوير الأشخاص .

ونستطيع فى الوقت ذاته أن نتلمس فيما أضافوه إلى القصر الإمبراطورى أبهة البلاط الإسلامى فى بغداد ، بينما نُرجع للشرق أصل صناعة التزيين بالمينا المقسّمة إلى أقسام متحاجزة *Cloisonée enamel*[1] .

(١) *Cloisonée enamel* : ويطلق هذا التعبير على طريقة فنية خاصة فى صناعة التزيين بالمينا . وتتلخص الطريقة فى تطبيق الرسم على اللوحة =

لقد أيقظت نيران الاضطهاد فى الرهبان حماسة قوية نحو التصوير الدينى . وكسب فنانو النميات لوناً جديداً من الحرية : فقد أصبحوا هم الآخرون واقعيين ، واستطاعوا أن يستهووا أفئدة الناس عند ما حاولوا تصوير الجازات الإنجيلية بطريقة حرفية فيها دُعابة فى بعض الأحيان ، وبما وفقوا إليه من مساجلة اللاايقونيين مساجلة مصورة تصويراً قوياً . ولكن انتصار الرهبان والصور المقدسة كان له أثر مزدوج على الفن البيزنطى المقدس : فقد مال إلى تقديس تلك الأشكال التقليدية التى كانت هدفاً للهجوم ، وهذا أفضى به إلى تخليد نوع معين من التصوير ، وزاد فى قوة تأثير الأديرة أيضاً : لقد أضحى دير ستوديوس المركز القوى للفن الديرى .

ودخلت روما الشرقية عصراً ذهبياً ثانياً فى ظلال الأسرتين المقدونية والكومنينية . فقد صحب التوسع الخارجى ، والانتعاش الداخلى ، والازدهار الفكرى ، انتعاشٌ فنى رائع . فهذا باسيل الأول يفتتح تلك النهضة بإنشاء كنيسته الجديدة . ويأخذ الطراز السائد فى الهندسة المعمارية الدينية شكل صليب يونانى (متساوى

= المعدنية المطلوب تزيينها ، وهى عادة من الذهب ، فتوضع عليها أشرطة ذهبية دقيقة متحاجزة ، تملأ الفراغات بينها بالمينا من مختلف الألوان .

انظر : *Ency. of the Arts, ed. by Dagobert D. Runes and Harry G. Schrickel* .

الأطراف) يحيط به بناء مربع إحاطة تامة بحيث لا تظهر أطراف أذرعه فى خارج البناء كما كانت الحال فى كنائس القرنين الخامس والسادس ذوات الشكل الصليبي . وكانت طريقة تزيين الكنائس بالرخام فيما قبل تقتصر على داخلها : أما الآن فأصبحت وجوه الجدران الخارجية مغطاة بزينة وافرة متعددة الألوان من الطوب الأحمر والرخام . وليس إلى الشك سبيل فى أن سبب هذا التغير يرجع إلى ما هو ثابت من أن السطوح الخارجية لحوائط الأبنية البيزنطية الكبيرة كانت على اتساعها خالية على العموم من كل زينة ، أو زخرفة مشكلة فى قوالب . وهكذا كانت هناك حاجة إلى شيء يجذب النظر ، يعوض النقص فى النقوش البارزة . وكانت هذه الأساليب الجديدة نصراً ثانياً للفن الشرقى الغنى بالألوان . حتى فى ميدان فن بناء البيوت ، اختفت البيوت المبنية على الطراز الرومانى ، وحلت محلها البيوت المبنية عل طرز شرقية ، تقوم أمام مداخلها أبهاء ذات أعمدة . ولا تزال المشكلة التالية قائمة ، وهى إلى أي مدى كان فن العمارة الأرمنى فى ذلك الوقت مقرراً لأصول الطراز البيزنطى الجديد ، أو إلى أي مدى كان العكس صحيحاً . ومرة أخرى يبدو لنا فى انتعاش الفن الدنيوى تأثير العصور القديمة بشكل ظاهر ، وكذلك

تأثير ألفاف الأساطير التى تجمعت حول أخيل والإسكندر ، واستمد منها صناع الدولة الرومانية الشرقية مواضيع لفنونهم . لقد شجعت انتصارات الجيوش الإمبراطورية فناً تاريخياً شديد الشغف بتصوير الأشخاص . وينعكس كلا الاتجاهين ، الكلاسيكي والواقعى ، فى أعمال الفنانين الدينيين . فهم عند ما كانوا يصورون مشاهد شرقية ، وجدوا أنفسهم أمام مادة وافرة ينتقون منها نماذجهم ؛ فقد كانت القسطنطينية فى القرن العاشر متحفاً بشرياً التقت فيها جميع الأجناس .

غير أن الظاهرة فى هذه الفترة هى إتقان فن الإيقونات الذى قدر له من الآن فصاعداً أن يسود الفن البيزنطى المقدس . ولقد كان ما تمخض عنه النزاع حول التماثيل هو انتصار العقيدة ، وأضحت زخرفة الكنائس بعد هذا النصر عرضاً منظما للعقيدة الأرثوذكسية . ففى صحن الكنيسة ورواقها صورت سلسلة الأعياد المسيحية الكبرى . وهنا جمعت جيوش المخلصين المتوجين بالنصر من القديسين والرهبان والشهداء والأساقفة . وينتقل الإنسان من عالم الحس إلى المعبد حيث يرى فكرة تناول العشاء الربانى الذى يرمز إلى أعظم سر للكنيسة الدنيوية .

ومن هنالك يصعد الفنان بالناس إلى الحنية ، فيصور الكنيسة

السماوية التي تمثل أم الإله مستوية على عرشها « أعلى من السموات » . وأخيراً ، فوق قبة الكنيسة الرئيسية ، تشرف على ذلك كله صورة الإله المتجسد ، صورة المسيح ، سيد كل شيء ، الذى يضم فى شخصه ذى الجوهر الفرد صورة ابن الإله والخالق الأزلى ، الذى لم يكن من المستطاع لأيدى البشر أن تصوره كما كان أنصار الصور أنفسهم يقولون . بهذه الصورة الرفيعة صور الناس قلب الكنيسة كما حددته المجامع السبعة .

و بعد أن استعاد البيزنطيون القسطنطينية فى سنة ١٢٦١ م قدر للفن البيزنطى أن ينهض مرة أخرى ، ولو أن دولة آل باليولوجوس الفقيرة لم تسمح لهذا العمل بأن يصل إلى مدى بعيد . لكن هذا الانتعاش ، إذ استثنينا كنيسة عذراء الخورا ، آتى أحسن ثماره خارج العاصمة فى صربيا (انظر فصل ١٤) وفى اليونان فى مِسترا ، وفى أديرة آثوس . فقد وضعت الكنيسة يدها فى يد الدولة ؛ وحين بعثت الدولة ، بعثت الحياة فى الكنيسة ، وانتعش الفن أيضا معها انتعاشاً جديدا .

ليس هناك للآن جواب شاف على مسألة أثر الفن البيزنطى فى غربى أوروبا ؛ ولكن العلماء متفقون الآن على أن تناول هذا الموضوع لا يتم إلا بدراسة تفصيلية ، يغتبر فيها كل إقليم وكل

عصر مشكلةً منفصلة قائمة بذاتها . وعن هذا السبيل وحده يمكن أن نكوِّن أحكاما عامة فى اطمئنان . ومن الواضح على كل حال أنه كانت هنالك منافذ كثيرة كان الغرب يحفظ اتصاله عن طريقها بالإمبراطورية الرومانية الشرقية، والشرق الأقصى . فكان الحجاج والتجار همزةَ الوصل بين العالمين ، كما كان الفنانون والصناع اليونان يقومون بمهام خطيرة فى بلاد المتبربرين؛ ولقد غزا الراهب الباسيلى والأسقف الشرقى الغرب : فقد جاء القديس ثيودور من طرسوس فى كيليكيا إلى كانتربرى . وهكذا كانت الرهبنة الإيطالية والغاليّة فى القرنين الخامس والسادس نظاماً مصرياً يتبع قواعد شرقية ، حمل أفكارها المهاجرون من شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية . وكان القديسون المشارقة يُحترمون فى الغرب : فكان الناظر إلى مداخل الدكاكين فى روما يرى تماثيل صغيرة للقديس سيميون العمودى ، يعلقها الناس بمثابة التعاويذ لتحرس السكان ؛ وكانت مخلفات القديسين القَيِّمة تأتى من الشرق ، مثل الصليب ، الذى أرسله جستين الثانى لروما ، والذى لا يزال محفوظاً فى الفاتيكان . وقد كان يحوى قطعة من الخشب المقدس . واقتبس الغرب أعياداً من الطقوس الكنسية الشرقية مثل وفاة العذراء وتمجيد الصليب —

بينما قبس جريجوار التورى من التجار السوريين أساطير مثل أسطورة نوام إفيسوس السبعة ، أو أسطورة القديس توماس و بعثته إلى الهند . كانت الكنيسة العالمية فى حاجة إلى الزخارف والأدوات المقدسة لاحتفالاتها وطقوسها . ومست حاجتها كذلك إلى فن تصويرى لتمثيل مشاهد الإنجيل ؛ ولهذا أخذت الأقمشة من صور و بيروت ، وحروفا هجائية كثيرة محفورة من بروكونيسس Proconnesus ، ومخطوطات وأشياء من العاج من الإسكندرية وأنطاكية ، بينما أمدتها سوريا بموضوعات جديدة للتصوير المقدس كالصلب مثلا ، مما روع المؤمنين فى الغرب .

وأصبحت راڤنا فى إيطاليا بعد أن أعاد جستنيان غزوها مرة أخرى مدينة بيزنطية ، بينما ترعرت فى روما مستعمرة شرقية زاد فى قوتها الرهبان المنفيون الهاربون من اضطهاد اللاإيقونيين . وهكذا قبست روما وراڤنا وحيهما الفنى من الشرق . ولم يضعف هذا التأثير إلا حين توجهت البابوية فى طلب العون إلى الفرنجة . ولقد احتفظ جنوب إيطاليا الذى كان يسمى فيما خلا « ماجنا جرايكيا » بطابعه اليونانى إلى حد بعيد ، وازداد هذا الطابع ظهوراً عند ما أضاف قنسطنطين الخامس كلابريا إلى مقاطعة صقلية الثغرية ، وحينما مكن الحكامُ المقدونيون سلطانَ

الإمبراطورية فى هـذه الأراضى من جديد . وفى أواخر القرن الحادى عشر دعا دزيدريوس *Desiderius* ، رئيس دير مونت كاسينو ، فنانين يونانيين لزخرفة هـذه الـكنيسة بالفسيفساء والرخام ؛ واستورد من الشرق البرنز والذهب والفضة والزخارف المطلية بالمينا . وقد قامت بإلهـام هؤلاء الصناع اليونان مدرسة بندكتية محلية سرعان ما حررت نفسها من السلطة الأجنبية . وفى أوائل القرن الثانى عشر ، ازدهر الفن البيزنطى والعربى جنباً إلى جنب فى ظل الحكام النورمان ، بينما حصلت روما عن طريق البندقية ، التى أخذت مكان رافنا فى الشمال ، على صـناع إغريق ؛ وهنا استمر الأثر البيزنطى إلى وقت متأخر — حتى القرن الرابع عشر .

وتدين النهضة الفنية فى زمن شرلمـان للنماذج الشرقية فى كثيرٍ ، وعلى الخصوص نمـاذج النميات والنسيجِ — بينما بُنيت كاتدرائية آخِن على شكل تلك الـكنائس الشرقية التى خلدت ذكرى شهداء العقيدة . ولا يزال النزاع شـديداً حول مدى دَين طراز البناء الرومانى الأخير للفن الشرقى ، بينما يظهر أن قباب كنائس بريجورد *Périgord* مقتبسة من أصول شرقية مع أن مسألة الأصول هنـا أيضاً ليس متفقاً عليها إلى الآن .

وتظهر آثار التأثير الشرقى جلية فى بناء كنائس كولونيا من القرن التاسع فما بعد . بينما نجد أن النحاتين الغربيين ، فى لَنجْدوك وبْروڤانس ، نقلوا تصاوير اللوحات الإغريقية إلى صور منحوتة فى الصخر فيما صنعوه من تماثيل المسيح ، وما استعملوه من وحدات زخرفية كأوراق الأكانثوس .

وعند ما تزوجت الأميرة الرومانية الشرقية ثيوفانو ، ابنة الإمبراطور أوتو الكبير (٩٧٢ م) جلبت معها إلى ألمانيا « ثروة من الكنوز لا تحصى » : وكان رهبان يونان يعيشون فى أديرة ألمانية ، وربما كان فى البلاط الألمانى مهندسون معماريون ومستشارون من اليونان . ولم يبلغ هذا التأثير الأجنبى ما بلغه من القوة إلا زمن الحكام الأوتُونيين المتأخرين ، وتمركز فى مدرسة ريجنزبُرج *Regensburg* فى القرن الحادى عشر ، ويمكن اقتفاء آثاره فى النحت فى بامبرج ، وبلغ ذروته فى القرن الثالث عشر حين حمل الصليبيون معهم إلى الغرب روائع الشرق . وقد قيل إن التقدم الفجائى الذى بلغه فن نقش الحجارة فى هيلدزهايم فيما بين سنتى ١١٩٠ — ١٢١٠ يمكن أن يكون آخر الأمر مستقى من دراسة النماذج الشرقية . وهكذا نفذ الفن

البيزنطى خلال العصور الوسطى المبكرة إلى أوروبا وألهمها ، حتى أصبح الغرب يتقن وسائله الخاصة فى التعبير عن نفسه .

وقد ضاعت معظم آثار الفن البيزنطى المدنى ، لكن كثيراً مما كان يميز الإمبراطورية البيزنطية عن غيرها تميزاً واضحاً — وهو فن الكنائس — لا يزال باقياً . وقد بلغت القسطنطينية أعلى درجات تقدمها الفنى فى ميدان العمارة بما تمتاز به من إدراك مجيد للألوان فى فسيفساء الحوائط والتلبيس بالرخام ، ويلى هذا ذلك الكمال الفنى الذى يوفى على الغاية فيما ينبغى أن نسميه بالفنون « الصغرى » : كالحفر على العاج ، ورسم النُّمنمات والتزيين بالمينا ، وما ابتدعته من الرسوم على النسيج .

وكثيراً ما أزرى الناس بالفن البيزنطى ، بحجة أنه منحط وعديم الحياة[١] ولكنْ ظهر فى السنين الأخيرة اتجاه متزايد لتقدير قيمته الباقية وأهميته[٢] .

لماذا لا يزال جمال هذا الفن يؤثر فى نفوسنا ؟ وكيف

---

(١) كما فعل D. MALLART: *L'Art bytzantin.* Paris (1924)

(٢) وقد لوحظ هذا التحول فى انجلترا فى كتاب كلايف بل : الفن CLIVE BELL : *Art.* (لندن ، ١٩١٤) .

استطاع أن يحطم القيود التى أثقلت على كواهل الفنون التى نبع منها ، وهى تلك الفخامة ، الثقيلة نوعاً ، التى يتصف بها الفن الرومانى الإمبراطورى، وتفاهة الفن الهلينستى، وجريان الفن الشرقى على وتيرة واحدة ؟ إن السر فى ذلك هى — من غير شك — الحماسة الدينية التى لم تستنفد قواها فى الزهد ولا فى العقيدة ، بل صرفت المذخور من نشاطها فى التعبير عن الجمال — أى فى صفاء الخطوط والألوان . لقد احتفظ البيزنطى بما فى التراث الهلينى من فن لم يقف عند حد الرمزية الزخرفية ؛ وورث تلك الطرز الجليلة التى أصبحت منذ زمن مبكر تقليداً مرعياً فى فن تصوير الإيقونات فى الكنيسة الشرقية . ولم ينحرف به بحثه وراء الابتكار فى الموضوعات ، ولم يغرِه شىء بالتفكير فى أن هدف الفنان إنما هو المطابقة بين الصورة والأصل ، فظل مطلق التصرف فى حريته يستخدمها فى خلق تلك الصور الخالدة التى عبر بها عن وحيه الذى استغرق نفسه .

ونحن إذا وقفنا اليوم أمام تلك الغرر الفنية التى ابتدعتها تلك العبقرية المبتكرة ، لا نحس لأول وهلة أننا أمام عمل فنى ، وإنما أمام عاطفة دينية جياشة خلدها الفن . ولقد كان الزاهد الشرقى الرومانى مدفوعاً بحماسته الدينية إلى التأبُّد فى القفر طلباً

لسكينة نفسية ليست من طبيعة هذا العالم ، ولقد جنى من ذلك المسرة والشجاعة والقوة ؛ ولقد أتيح للفنان أن يدرك من الجمال ما عسى أن يكون الناسك قد فشل فى إدراكه وهو معتزل فى صحرائه ، لأن السكينة كانت تسود تلك العاطفة التى ألهمت الفن البيزنطى . لقد قنع الفنان البيزنطى بقبول ذلك التقليد الدينى الفخم الذى أخذه عن آبائه ، وانصرف إلى تخليده ، فنى ذلك التقليد وعن طريقه أدرك ماسعى إليه ، ألا وهو السلام الذى يدق عن الأفهام .

الفصل الثانى عشر

القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة

« ستكون وظيفتك أيها الرومانى أن تسود الأمم
بسلطانك — وستكون هذه فنونك : أن تفرض السلام ،
وأن تعفو عن الضعيف ، وأن تسحق المتكبر »
فرجيل : الإنيادة — ٤ ، ٨٥١ — ٨٥٣ .

إن القانون الرومانى هو أكثر أعمال العبقرية الرومانية أصالة ، وأعظم ما أهدته لمن أتى بعدها من الناس . وكان من شأن روح النظام الرومانى وروح المحافظة الرومانية أن ارتفعا بهذا الأثر الخالد وحفظاه من الزوال على مر القرون . ونجد اسم جستنيان المشرع مألوفاً لدى الكثيرين ممن لا يعرفون شيئاً من التاريخ البيزنطى ، كلفظ معروف متداول . وإذا أردنا أن نتتبع تطور ذلك القانون زمن الأباطرة الرومان الشرقيين ، استطعنا أن نميز أربعة أدوار رئيسية (١) دور التقنين الذى بدأ زمن دقليديانوس وبلغ ذروته فى عمل جستنيان (٢) دور تشريعات الأباطرة اللاإيقونيين . (٣) دور الرجوع إلى قانون جستنيان زمن الحكام المقدونيين (٤) دور الاضمحلال

وعلينا أن نعالج فى اختصار شديدٍ المميزاتِ الرئيسيةَ لكل من هذه الأدوار فى تاريخ القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة ، على ألا يغيب عنا أن القانون فى ذلك الحين كان تعبيراً عن إرادة الحاكم : فقد كان الحاكم ينفرد برأيه ويختص نفسه بالتشريع .

عند ما حل القرن الثالث كان عصر البناء والإنشاء ، بالنسبة للمشرعين الرومان ، قد أشرف على النهاية . وفى زمن دقليديانوس بدأ عصر التقنين فى تاريخ القانون الرومانى . وقد جُمعت حوالى هذا الوقت (٢٩٥ ؟) القوانين الأساسية التى أصدرها الأباطرة منذ هدريان حتى دقليديانوس ؛ وقد قام بجمعها رجل يدعى جريجوريوس *Gregorius* ؛ وربما كان هذا أستاذاً فى مدرسة بيروت القانونية العظيمة فى سوريا ؛ وتمت بُعيد هذا الوقت مجموعة أخرى للقوانين التى أصدرها دقليديانوس ، جمعها رجل يدعى هيرموجينيانوس *Hermogenianus* ؛ واعتبرت هذه المجموعة ملحقاً لعمل جريجوريوس . ويظهر أن ثيودوسيوس الثانى فى سنة ٤٢٩ قد خطرت له فكرة عمل قانون عام ، على أن يشتمل على ذكر جميع القوانين السارية عندئذ ، وأن يأخذ مكان التشريعات والكتابات الفقهية السابقة . ولو قد فعل هذا

لكان قد سبق جستنيان فى عمله . ولا ندرى على كل حال كيف انصرف عن مشروعه . ولكن مجموعةً من القوانين الأساسية الإمبراطورية صُنِّفَتْ على يد لجنة عينت فى سنة ٤٣٥ ، ونشرت هذه المجموعة فى سنة ٤٣٨ . وأصبح قانون ثيودوسيوس نافذاً فى الغرب والشرق فى سنة ٤٣٩ .

غير أن تصنيف هذا القانون الجديد لم يوقف تيار التشريع الإمبراطورى ، واستمر الأباطرة يصدرون القوانين ، ومن هنا نجد أن الغموض والتناقض قد تسربا إلى كيان القانون الرومانى . وقد شكا جستنيان من ذلك ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية ، وأخذت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة قدرَ اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية .

كان جستنيان يعتقد أن إمبراطور الدولة يحمل عبء واجب مزدوج : فقد كان عليه أن يكون الفاتح العسكرى ، والمشرع الأعلى فى الوقت ذاته . فإذا كانت المدينة الخالدة قد اتسعت كثيراً عن طريق انتصارات جيوشها وعدلِ قوانينها ، فواجبه ، كوارث لماضى روما ، أن يكون جديراً بهذا التراث المزدوج . ولم يكن له مفر ، والحالة هذه ، من القيام بعمل حصرٍ كامل للقانون الرومانى .

لقد وجد الإمبراطور فى وزير القضاء (إكْوِستر القصر المقدس) تريبونيان ، وكان من أهل بامفيليا ، رجُلَه المنشود ؛ وكان جستنيان لا يتعب من الفخر بعلمه الغزير ومن تحمسه الشديد له . وصدر فى ابريل سنة ٥٢٩ م قانون جديد وضع على أساس تشريعات جريجوريان وهيرموجينيان وثيودوسيوس ، وضمّت كذلك قوانين الأباطرة المتأخرين ، التى كانت لا تزال نافذة . وقد نُفذ العمل فى أقصى سرعة : ولم يكن المندوبون العشرة فى حاجة لوقت يزيد كثيراً عن سنة لإنجازه .

ولكن أصالة جستنيان الحقيقية ظهرت فى إنشاء الموجز « الدايجست » فندب لذلك ستة عشر مندوباً جديداً ، وكلفهم فى سنة ٥٣٠ بأن يعملوا مجموعة مختارة من أعمال المشرِّعين العظام يستطيع المحترف وغير المحترف الاستفادة منها ، وذلك باستبعاد المتكرر والمتناقض وبحذف المناقشات التى دارت حول بعض المواضيع التى لم يعد لها استعمال ولا لزوم ؛ فتتحقق بذلك المحافظةُ على ذكرى مُشرعى روما العظام من أن تعدو عليها عوادى النسيان ، وتكون هذه المجموعة كذلك حافزاً لمعاصريه على دراستهم . ولم تكن تلك المهمة الضخمة ، مهمة قراءة ألفى كتاب تحتوى على ثلاثة ملايين سطر وتلخيصها ، كما رآها

جستنيان نفسه ، إلا ضربا من المستحيل لا يتحقق إلا بعون من الله . وقدّر لإتمام هذا العمل عشر سنوات : ولكنه تم فى الحقيقة فى مدى ثلاث سنين : فقد نشر ذلك الموجز على الملأ فى ديسمبر سنة ٥٣٣ . وهكذا أقيم فى ١٥٠٫٠٠٠ سطر ، على حد قول الإمبراطور ، « معبد مقدس للعدالة الرومانية » .

وقد فاق هذا المجموع المستخلص من أعمال المشرعين الرومان الأصولَ التى استُخلص منها . ومن الطبيعى أن نتوقع أن يكون هناك نقص كبير فى تأليفه ، نظراً لقصر الوقت الذى استلزمه تصنيفه . فطريقة ترتيب المواد المختارة سطحية فى أكثر الأحيان ؛ وأسوأ من ذلك أن النصوص القديمة قد اختصرت وشُوِّهت وجُزِّئت إلى نتف مبعثرة ، كما حدث لجسد طفل ميديا على حد قول نقاد القانون . وأسوأ من كل هذا أن هذه المواد حُرفت على يد مبتدع جلف (وندالى) . ويذهب دُراس القانون المحدثون إلى أن تريبونيان وشركاءه كانوا كالعبيد الذين سطوا على كنوز أسيادهم ، ولم يكونوا حراساً أنقذوا ما أمكن إنقاذه من حريق شامل . ولكن يجب ألا يغيب عن الناقد أن موهبة التشريع كانت قد اختفت فى بلاد الدولة الرومانية . حتى لقد كان القضاة يكتفون من الاستفادة من مؤلفات قدماء

المشرعين بِعَدِّ عناوينها عداً حسابياً ، اتباعا لقانون ذكر الأصول القانونية الذى أصدره ڤالنتينيان سنة ٤٧٦ . وأصبح مجردُ ذكر عدد المؤلفات التى استعان بها المحامى كافيا لكسبه القضية .

ومن الثابت بالفعل أن الناس فى الغرب قد شوهوا التراث القانوني الرومانى بما أسرفوا فيه من اقتطاع قطع منه ، وتهيئتها فى أحجام مناسبة لهم وتحويرها إلى الأغراض التى يرمون إليها . ثم إننا عند ما نستعرض الموجزات القانونية البيزنطية التى عُملت فى الأزمان المتأخرة ، والتى أخذت تصغُر فى الحجم ، وتبعُد عن الطابع العلمى تدريجاً ، ننتهى إلى الشك فيما إذا كانت الإمبراطورية قد استطاعت حتى فى الشرق أن تحتفظ بمؤلفات لم يعد الناس يفهمونها حق الفهم .

ولنذكر بالاضافة إلى ذلك أن هدف جستنيان لم يكن علميا خالصاً ، بل كان عمليا أيضاً ؛ وأنه أراد أن يصدر مجموعة من القوانين المعمول بها عند ذاك ، لكى يكفى حاجات أهل عصره : فكان المقصود من مجموعة القوانين المدنية التى عملها أن تكون مرشداً للقضاة وكتاباً يستعمله الأساتذة ومصدراً للعدالة عند شعبه . ولم يسلم عمل جستنيان فى هذا المقام من نقاد أخذوا عليه أنه لم يكن فى هذا الميدان ثائراً جريئاً ، وأنه كانت تعوزه

الشجاعة الكافية للخروج على التقاليد فى جرأة ، وأنه أتاح للإيقونيين الفرصة لأن يسيروا بإصلاحاته القانونية إلى نهايتها المنطقية .

تبدو عظمة جستنيان فى الواقع كمشرع فيما يلى : لقد أدرك أن قانون أية أمة إنما هو تطور عضوى يوجز تاريخ الشعب . وعلى الرغم من رغبته فى تبسيط أسلوب الإجراءات الرومانية القانونية ، وفى إضفاء إنسانية أكبر على إدارة العدالة الرومانية ، فإنه لم ينشئ كتابا موجزا عمليا فحسب ، بل تعدى ذلك إلى ما هو أعظم منه ، وخلق عملا لا نصفه بأحسن من وصفه هو له بقوله : إن قانونه « كالقلعة تحتمى خلف جدرانها كنوز الماضى من عاديات الزمن الحسود ؛ وهو يكشف لأمم الغرب البربرية فى الوقت المناسب فكرة دولة تقوم على أساس من القانون » .

لكن كان يجب ألا يكون القانون المجموع بهذه الكيفية شيئاً ميتاً ؛ كان ينبغى أن يكون سهل المنال بالنسبة للأجيال المقبلة من الدارسين . فأصدر جستنيان فى نوفمبر ٥٣٣ مقدمة للقانون الرومانى — النظم *Institutes* — صيغت على نمط كتيب سابق للمشرع جايوس ؛ ولكنها تضم التغييرات التى طرأت على القانون نتيجة لتشريعات إمبراطورية تالية . وهكذا أحِلَّ

القانون الجديد فى سنة ٥٣٤ محل قانون سنة ٥٣٠ . ولم يبق بين أيدينا إلى اليوم إلا هذه النسخة الأخيرة . وهكذا أتم الإمبراطور عمله ، ورأى بعينيه أنه كان عملا صالحاً .

ولا يزال لدينا ما يقرب من ستمائة من قوانين جستنيان الأساسية . ونشاطه فى التشريع القانونى واضح فى كل مجال . فقد اتسعت حقوق الزوجة وخصوصاً فيما يتعلق بما تقدمه إلى زوجها من صداق ، بينما أصبح لزاماً على الزوج أن يوقف على الزوجة ثروة تعادل فى القيمة ما دفعته له . وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملاكهم ؛ وأصبح حرمانهم من الوراثة فى المستقبل غير جائز إلا حسب قواعد ثابتة ، وإذا حرموا فيجب على الآباء أن يقرروا بوضوح الأساس الذى بُنى عليه حرمانهم ؛ وأُمِّن العبد من قسوة سيده ، وأُعطى الحق فى أن يطالب الحكام بحمايته ؛ وأعيد إنشاء قانون الوراثة جملة ، فجعلت قرابة الدم أساساً له ؛ بينما ألغيت الصور المهجورة التى جعلها الزمن عديمة المعنى إلى حد كبير فيما يتصل بالتبنى وعتق العبيد وانتقال الأراضى وغيرها من عمليات نقل الثروة . وقد قرر الإمبراطور أنه اتخذ لنفسه ثلاث قواعد سار عليها فى تحقيق إصلاحاته ، وهى « الإنسانية » ، والمنطق الطبيعى ، والمنفعة العامة .

وأصدر جستنيان مجموعة تشريعاته العظيمة باللاتينية ، لسان الغرب . ونشرت حين كان على وشك الشروع في إعادة الغرب إلى حظيرة الإمبراطورية . ولما كان هو نفسه قد نشأ في أراضى الدانوب التى تتكلم اللاتينية ، فقد عبَّر بهذا العمل عن إخلاصه للتقليد الرومانى الأنوف فى حكم العالم . بيد أننا ينبغى أن نقرر أنه وإن كان ذلك صحيحاً ، فإنه لم يحل دون ضياع أمر اللاتينية فى القسطنطينية . ذلك أن الإمبراطور كان يشرع فى مدينة يونانية ؛ ولم يوجد بين المحامين الذين انتدبهم من يمثل أى جامعة غربية ، ولم يؤخذ عضو واحد من روما القديمة . واستقى جستنيان كثيراً من ابتكاراته من مصادر هلينستية بينما كانت القوانين الجديدة *Novellae* التى أذاعها جستنيان بعد ٥٣٤ نفسها مكتوبة باللغة اليونانية .

وفى أثناء الجزء الأخير من القرن السادس أُهمل حظرُ جستنيان تصنيفَ أى كتابات أخرى على تشريعاته الجديدة سواء أكانت تعليقات أم شروحاً ، فكتبت بالإغريقية كتابات قانونية كثيرة ، لكن لسوء الحظ لم يصلنا منها سوى النزر اليسير .

وبالرغم من أن أباطرة القرن السابع كانوا يصدرون قوانين من وقت لآخر ، فقد كانت هذه تتعلق بصفة رئيسية بالإدارة العامة ، أو بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم تحدث تغييرات واسعة

النطاق فى القانون الخاص إلا فى عصر الأباطرة اللاإيقونيين .

وأذيعت « الإكلوجا *Ecloga* » فى سنة ٧٣٩ ، وهى مختارات من القانون أُخذت من تشريع جستنيان بعد إجراء تعديلات « فى اتجاه أكثر إنسانية » . لكن باسيل المقدونى ألغى أو قلب أكثر هذه التطورات رأساً على عقب ، فقد رجع مرة أخرى إلى قانون القرن السادس .

وفى وقت ما بين ٨٧٠ و ٨٧٩ أُذيع كتيب جديد يسمى بروخيرون *Procheiron* ليحل محل الإكلوجا ، بينما عُيِّنت لجنة لتُعد مجموعة قانونية أخرى كاملة ، بعد أن تستبعد من القوانين تلك الأجزاء الشاذة التى أدخلها محطمو الصور المراطقة . وقد جمع بين ٨٧٩ و ٨٨٦ كتيب آخر منقح — الاباناجوج *Epanagoge* ؛ ولكنه ، على ما يرجح ، لم يقدر له أن تقره الدولة رسميا . وإننا لنشك فيما إذا كانت مجموعة باسيل التى تقع فى أربعين جزءاً قد قُدِّر لها أن تُنشر : ومن المؤكد أننا لا نملك إلا القانون المسمى البازيليكا *Basīlika* (أو الأوامر الإمبراطورية) والذى يقع فى ستين كتاباً ، وقد أذاعه ليو السادس الذى خلف باسيل المقدونى ؛ وحتى هذا القانون لم يصل إلينا كاملا .

وكانت مؤلفات جستنيان لا تزال تدرس حتى بعد أن صدرت

البازيليكا ، وخصوصاً فى القرن الحادى عشر ، عند ما أسس قنسطنطين مُنوماخوس فى سنة ١٠٤٥ مدرسة للقانون فى القسطنطينية تحت إشراف يوحنا خيفلينوس *Johannes Xiphilinus* . وقد ذهب بعضهم إلى أن ذلك الانتعاش الذى لقيته الدراسات القانونية كان له تأثير كبير فى دراسة قانون جستنيان فى جامعة بولونيا فى القرن الحادى عشر . لكن هذا الفرض موضع شك كبير . فقد كان نشاط المدرسة البيزنطية الجديدة قصير الأمد ، كما رأينا (صفحة ٢١١) . وفى نهاية القرن الثانى عشر أخذت وجهة النظر القائلة بأن البازيليكا وحدها كانت تمثل القانون المعمول به ، تلقى تأييدا . وحينما أخذ علم القانون يضمحل ، توقف تطور القانون الرومانى الخاص ؛ وكان ذلك بعد حكم ليو السادس ؛ ثم جاء بعد ذلك دور الكُتيبات والمختصرات . وأُهملت البازيليكا ، و بلغ الاضمحلال أقصاه عند ظهور الهيخابيبلوس *Hexabiblos* (الكتب الستة) التى ألفها هارمينو بولس *Harmenopoulos* حوالى سنة ١٣٤٥ ، وقد وصفها بعضهم بقوله إنها موجز لموجزات الموجزات . وأصبح القانون البيزنطى فى أيامه الأخيرة ، كما وصفه مستر اشبيرنر *Mr. Ashburner* بقوله ، « (خلط) قريب من الكفر » .

وقد عزا العلماء نشر ثلاث مجموعات قانونية صغيرة إلى الأباطرة اللاإيقونيين : وهى قانون الفلاح ، وقانون الجندى ، وقانون الملاح . ولكن الناس لم يعودوا يأخذون بوجهة النظر هذه فى الوقت الحاضر . وقد قرر مستر أشبيرنر أنه من الجائز أن يكون قانون الملاح قد جمعه شخص ما بين سنتى ٦٠٠ ، ٨٠٠ م ، وأنه جُمع من مواد تختلف عصورها وروحها ، وربما كان بعضه قد اقتبس من مقالات من نوع كتاب « التاجر الكامل » ، وهو بمثابة دليل لأى إنسان يريد أن يزاول عملا تجاريا . ومن الجائز كذلك أن تكون أجزاء أخرى منه قد اقتبست من منشورات القياصرة البيزنطيين . ولكن معظمه لا بد وأن يكون مصدره العادات المحلية . وقد أوضح بانتشنكو *Panchenko* بنفس الطريقة أن قانون الفلاح إنما هو مجموع من العادات القروية وُضع كتتمة للقانون الإمبراطوري العام ، ويرجع تاريخه إلى عصر مشابه (انظر فصل ٦) ؛ بينما لم يكن قانون الجندى غير نسخة مفصلة لفقرات من موجز جستنيان وقانونه . وليس بين هذه المؤلفات القانونية ماله أية علاقة واضحة بالأباطرة اللاإيقونيين .

وبقى علينا أن نذكر فى اختصار ما هى بعض المؤثرات

الرئيسية التى أثرت فى تطور القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة التى سبقت دور الاضمحلال . ويمكن تمييز هذه المؤثرات على وجه التقريب كما يأتى :

١ — أثر العاطفة المسيحية العامة ٢ — تأثير الكنيسة كهيئة كانت تعبر عن إرادتها فى صورة قوانين تصدرها المجالس والمجامع الدينية ٣ — العادات الجارية وخصوصاً فى الولايات الشرقية . ومن الطبيعى أن يمتزج بعض هذه العوامل ببعض بصورة دائمة ، وقد يكون من الصعب فى أية حالة خاصة أن نعين لأىّ منها كان التأثير الغالب فى هذه الناحية أو تلك ، ونكتفى ببعض الأمثلة :

١ — كان من الطبيعى ألا يبدأ تأثير العاطفة المسيحية فى التشريع الإمبراطورى إلا بعد تنصر قسطنطين ؛ صحيح أن هذه العاطفة المسيحية لم تحاول قط صياغة القانون الإمبراطورى الرومانى الخاص فى شكل جديد ، ولكن سلطانها أخذ يتزايد باستمرار منذ القرن الرابع . وذلك واضح فى القيود التى كانت تفرض على المراطقة ، وفى شرعية الأولاد الذين يولدون من محظية ، إذا تزوجها الرجل فيما بعد ؛ ويظهر كذلك بوضوح

فى الطريقة التى وضعت لعتق العبيد رغماً عن الكنيسة . وأبرز من ذلك كله إلغاء العقوبات التى كانت مفروضة على القسس الذين كانوا يصرون على البقاء أعزابا ، ومنح الحق للأساقفة فى أن يستمتعوا بالقانون المدنى ، إذا رغب فى ذلك كلا الطرفين (أو أحدهما فقط ؟) . ولم يصل جستنيان بفكرة الزواج المسيحى إلى نهايتها المنطقية ، وهى الفكرة القائلة بامتزاج الزوجين أحدهما بالآخر حتى يصبحا لحماً واحداً ؛ فلا يجوز أن تقع بين واحد من الطرفين وطرف ثالث أية علاقة زوجية ؛ فلم يصل جستنيان إلى هذه الدرجة من التحديد : فقد ظل يبيح التسرى بالمحظيات ، وبالتالى الاعتراف بشرعيتهن . وترك أمر قطع دابر أى لون من الزواج ، سوى الزواج بالواحدة ، للأباطرة اللاإيقونيين ؛ فقرروا ذلك ، وفرضوا العقوبات الجسدية والمالية على من يقارف علاقة سوى العلاقة الزوجية . ولم يَضَعْ جستنيان فى قانونه حدوداً لمسألة الزواج من أخرى . غير أن الإمبراطورة إيرينى حرمت الزواج مرة ثالثة وأىّ زيجة تالية . وحتى الأباطرة المقدونيون ، مع أنهم أعادوا الاعتراف بالتسرّى ، اعتبروا الزيجة الرابعة لاغية وباطلة شرعاً ، بينما ظل الزواج مرة ثالثة خاضعاً للعقوبات الكنسيّة ، بحسب ما ينص عليه القانون . وسمح جستنيان

بالطلاق مع اشتراطات كثيرة بالرغم من تصور الديانة المسيحية للزواج ؛ ولم يحرم من الطلاق إلا ما وقع منه نتيجة لاتفاق متبادل بين الطرفين . وحاول الأباطرة اللاإيقونيون أن يحددوا عدد الأسباب التى تبيح الطلاق بأربعة ، ومنها البرص أو محاولة الزوج أو الزوجة الاعتداء على حياة الآخر (ولم يعتبر الجنون أساساً للطلاق) . وأعاد الأباطرة المقدونيون القانون كما كان زمن جستنيان . ولم تصل الكنيسة والدولة إلى أي اتفاق فيما يختص بالطلاق .

وأطرف ما يميز تشريع الأباطرة اللاإيقونيين ، هى نواحيه التى تتعلق بالأواصر العائلية ، ولو نظرنا فى أسس هذا التشريع ، لوجدناها تستقر على أساس من النظرة المسيحية إلى الزواج على اعتبار أن الأسرة جماعة تربطها ببعضها روابط من الاعتماد المتبادل يشوبه الحب . فعلاقة الزوجة مثلا بزوجها لم تكن مجرد خضوع لسلطان الزوج كما كان الحال فى الزواج الرومانى القديم (ويعبر عن سلطان الزوج فى هذا القانون بلفظ يده — *manus*) ولم تكن كذلك علاقة استقلال كما هي الحال فى « الزواج الحر » الذى نعرفه فى العصور المتأخرة ، ولكن الحقوق والممتلكات

يتمتع بها الزوجان مشتركين .

وأصبح موقف الدولة تجاه الأطفال موقف اهتمام أبوى ورعاية لخيرهم . فكانت تحمى حقوقهم . وهكذا أعطت الإكلوجا للزوجة قوى وامتيازات جديدة . ووضعت الأم فيما يتعلق بشخص طفلها فى نفس مستوى الأب نفسه : فكانت موافقتها على زواج أولادها ضرورية كموافقة الأب ؛ و إذا عاشت بعد زوجها كان لها الحق فى أن تعين فى وصيتها وصياً على طفلها بعد موتها — وهو حق لم تكسبه الزوجات فى هذا البلد (انجلترا) إلا من وقت قريب (الوصاية على الأطفال ، مادة رقم ١٨٨٨) . وقد نصت الإكلوجا بالإضافة إلى ذلك على اشتراك الزوجين فى العقارات غير المنقولة التى يملكانها ، فى حين أن جستنيان قنع بأن يجعل أساساً لهذه المسألة توازناً حسابيا يقضى بأن تتساوى قيمة ما يساهم به كل من الزوجين فى بيت الزوجية من العقار ، مع أن هذا التشارك فى الحقيقة لا يمكن بقاؤه إلا أثناء قيام الزواج ، ثم تعود أملاك كل منهما بعد وفاة أحدهما دون خلف إلى أهل كل منهما .

أما الأطفال الذين ينجمون عن الزواج فقد رفع عنهم ذلك

السلطان المطلق على حياتهم وممتلكاتهم ، الذى كان فيما مضى بيَد رأس العائلة . وقد انتقلت الحقوق التى كانت بيد محكمة الأسرة إلى ممثل الدولة ، ففاز الأولاد على العموم منذ زمن جستنيان بأملاكهم الخاصة ، فكان من الممكن أن يتحرر الطفل مما كان يسمى *Patria Potestas* (وهو السلطان المطلق لرب العائلة على جميع أفرادها) إذا أراد هو أو أبوه ذلك .

وقرر قانون الأباطرة اللاإيقونيين أن يدبر أحد الأبوين بعد وفاة الآخر جميع أملاك الزوج والزوجة معا لحساب الأبناء . ولم يعد من الممكن بمقتضى هذا القانون أن يحرم الأب ابنه إلا بعد أن تقرر سلطة قضائية أن الطفل قد خسر حقه فى نصيبه من أملاك والديه بسبب سوء سلوكه . وإذا لم يعيِّن من بقى من الوالدين على قيد الحياة وصيا فإن الوصاية على الطفل تصير إلى الإدارة الحكومية الخاصة بشؤون الأيتام أو إحدى كنائس القسطنطينية (وفى الولايات إلى الأسقف أو الدير) .

ونقول فى ختام كل هذا أن ما ذهبت إليه المسيحية من أن الآباء ينبغى أن يقسموا حبهم على أبنائهم بالعدل ، قد جعل الناس يشعرون فى هذا الميدان أيضا أن العدل يقتضى المساواة وأن أملاك الوالدين يجب أن تقسم بالتساوى بين الأبناء . وهكذا

لم يأخذ القانون الرومانى فى عصوره المتأخرة بما كان يذهب إليه فى عصوره الأولى من تقسيم أملاك الأسرة بين الأبناء أنصبة غير متساوية ، بحسب الظروف المختلفة التى تحيط بمركز كل الأبناء .

حقيقة أن الأباطرة المقدونيين ألغوا معظم هذه المواد ، ولكن من المحتمل أن يكون معظم تشريع اللاإيقونيين قد بقى نافذا فى المعاملات الجارية .

٢ — من الصعوبة بمكان أن نفرق بين أثر الكنيسة و بين تأثير الشعور المسيحى العام فى حالات كثيرة . فمن الواضح مثلا فى القوانين الخاصة بموضوع الزواج التى أشرنا إليها سابقا ، أن قوانين المجامع الكنسية غالبا ما كانت تتخذ نموذجا تصاغ على غراره القوانين الإمبراطورية : و ينطبق هذا بوجه خاص على ما نلاحظ من التضييق المتتابع فى حدود القرابة التى يتاح للانسان التزوج فيها . وهكذا أصبح انحدار الإنسان من أصل معين حائلا بينه و بين الزواج من أى امرأة تلتقى معه ولو فى الجد السابع . وانتهى الأمر بأن اعتبرت القرابة الناشئة عن التبنى ذات تأثير مشابه فى هذا المقام لقرابة الدم : بينما اعتبرت مسألة الأبوة والأمومة الروحيَّة عقبة تحول دون زواج المشتركين فى أب بالعماد فى حالات معينة . أما فيما يتصل بشكليات الزواج فقد

حققت الكنيسة ما كانت تطالب به من ضرورة عقد الزواج فى حفل كنسى عام . ويبدو تأثير رجال الدين واضحا كذلك فى ميل القانون إلى إقرار حبس الأموال على الأغراض الدينية ؛ ولقد فشل نقفور فوقاس فى محاولته الحد مما كانت رعيته تسرف فيه من إيقاف الأموال على تأسيس الأديرة بعد موتهم . بينما أذاع قنسطنطين پورفيروجينتوس أنه فى حالة وفاة أحد رعاياه دون ذرية و بلا وصية ، تأخذ الكنيسة ثلث أملاكه لصالح روح المتوفى . ويمكننا الاسترسال فى ضرب الأمثلة فى يُسر ، غير أن فيما ذكرناه كفاية .

٣ — ويحتمل ألا تكون معظم التعديلات التى أدخلها اللاإيقونيون فى القانون الرومانى إلا مجرد اعتراف بالعادة الجارية وإقرارها ، حتى فى حالة عدم وجود دليل مباشر فى الوقت الحاضر يمكن إيراده . ومن هنا نستطيع أن نقول إن أهل آسيا الصغرى من اليونان لم يفهموا الفكرة الرومانية الأساسية عن النفوذ الأبوى *Patria Potestas* . ولابد أن يكونوا قد أهملوا الأخذ بها فى جارى حياتهم إلى حد كبير . ويظهر هذا الاتجاه فى مواد الإكلوجا . وقد ظلت عادة حرمان الإبنة — التى دفع لها أبوها المال الذى تؤديه لزوجها — من نصيبها الذى تستحقه مع إخوتها

وأخواتها من تراث أبويها ، معمولا به رغم وجود مادة صريحة تنقضه فى البازيليكا ؛ بينما يظهر أن كتاب القانون الرومانى السورى قد ظل نافذا بعد تشريع جستنيان بوقت طويل ، مع أن جستنيان قد قصد من وراء إصداره أن يحل محل المجموعات القانونية الأخرى .

وقد جرت العادة باعتبار الكتابة شرطا أساسيا لصحة العقود ، لا مجرد اثبات لنصوصها . وقد كان لهذه النظرة أثر واضح فى التشريع البيزنطى فى عصوره المتأخرة . وقد تقرر — كقاعدة عامة — أن تحمل كل وثيقة ، تضم نصوص أى اتفاق ، علامة الصليب مرسومة عليها بيد المتعاقدين أنفسهم ، أو أن يكتب عليها دعاء خاص للثالوث المقدس ، حتى يصبح الاتفاق نافذا أمام القانون ، و إلا كان من الضرورى أن يشهد على صحته سبعة من الشهود . و يبدو أن مواد القانون التى قررت ذلك ترجع فى أصولها إلى العادة الجارية وقتذاك . وربما كان السبب فى ظهور ما يسمى « منفذ الوصية » البيزنطى ، وهى وظيفة لم تكن معروفة فى المعاملات الرومانية على الأغلب ، هو عدم الوثوق بأمانة الوارث الشرعى .

ونحن فى الواقع إنما نتبين فى بطء شديد ، عن طريق

الدراسة الوثيقة لأوراق البردى ، أن وحدة القانون الرومانى وطابعه العالمى وسريان العمل به فى أنحاء الإمبراطورية كلها ، إنما كانت مثلا عليا للأباطرة لم يُقدر لها فى حالة التطبيق أن تتحقق تحققا كاملا .

وكل ما نستطيع أن نتبيّنه الآن فى شىء من عدم الوضوح هو أن قوى العادات الموروثة كان لها رد فعل ضد مجهودات الدولة المركزية التى أرادت من ورائها فرض قانون واحد على جميع الرعايا على السواء ، وكانت تلك هى غاية جميع الأباطرة الذين خلفوا قنسطنطين .

الفصل الثالث عشر

التجـارة

للإمبراطورية الرومانيــة فضائل عدة : فهى أولى الإمبراطوريات ، وكانت أول من آمن بالمسيح . وهى تسدى خدمة لـكل فرع من فروع الاقتصاد المسيحى . ثم إن هناك شاهداً آخر على القوة التى منحها الله للرومان : ذلك أن جميع الأمم تتعامل بنقدها ؛ فهو مقبول فى طول العالم وعرضــه ، وهو موضع إعجاب الناس والممالك على اختلافها ؛ فلم يكن لمملـكة سواها مثيل له .

كوزماس (تاجر هنــدى اعتزل عمله وأصبح راهبا) : *Topographia Christ*

ص ١٤٨ .

كانت التجارة مع الشرق تحتل المكان الأول من الأهمية بالنسبة لإيطاليا فى عصور الإمبراطورية الأولى . فقـد كانت تُجلب من الشرق أسباب الترف التى كانت قد أصبحت من ضروريات الغرب . ولم تـكن صادرات أوربا بكافية تماماً لدفع ثمن الواردات من آسيا ؛ و بلغت قيمة ما كانت أوربا تدفعه نقداً فى أيام بلينى (التاريخ الطبيعى ، ١٢ : ٤١) لتصل إلى تعادل فى قائمة الحساب ، ثمانمائة ألف جنيه سنويا . وكانت التجارة مع الشرق

لا تزال تستنزف معظم نشاط التجار الرومان بعد أن نقلت العاصمة إلى القرن الذهبي . وكانت الدولة بدورها تبدى اهتماماً بشأن هذه التجارة ، إذ أن كنوز الهند والصين ، التى كانت الدولة تغدقها على أمراء القبائل المتبربرة فى الغرب ، كانت كافية للإبقاء على سيادتها الإمبراطورية حتى فى النواحى التى لم تكن جيوشها قادرة على السيطرة عليها . لقد كان لهذه القوة التى استطاعت أن تخضع عالم الشرق المحاط بالأساطير سلطان سحرى انحنى أمامه قواد الجيوش الغازية الأجلاف فى احترام .

كانت هناك ثلاثة طرق يمكن للمنتجات الشرقية أن تصل عن سبيلها من الشرق الأقصى إلى التاجر الرومانى : كان أقصرها يعبر واحات بلاد الصغد (سمرقند ، بخارى) مخترقا فارس ، ومن ثم إلى حدود الإمبراطورية . والثانى يخترق المحيط الهندى إلى البحر الأحمر . والثالث ، وهو طريق أكثر صعوبة ، يمتد من وسط آسيا إلى بحر خزر ، ومن ثم إلى البحر الأسود بعيداً عن دولة فارس . وقد ازداد الإقبال على الحرير بصورة مضطردة مع زيادة أسباب الترف . وأصبح لبس ثياب الحرير الخالص فى هذا العصر مألوفاً فى الحياة البيتية : وأخذت الكنيسة أيضاً ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة للألبسة الكهنوتية والستر والأغطية ، ولتزيين

المذابح — بعد أن كانت ترفض أول الأمر استخدام الحرير فى الأغراض الدينية ؛ بينما احتكرت الدولة صنع أشكال معينة من ثياب الحرير كانت تلبس فى مراسم البلاط . وكانت الدولة على كل حال تعتمد على القوافل التى تقطع فارس فى إمدادها بهذه المادة الجديدة ، وكان الحرير الخام نتيجة لهذا يتحمل ضرائب جمركية باهظة قبل أن يجتاز الحدود . ومن ثم نجد أنه قد ذكرت عدة مدن معينة فى المعاهدات بين فارس وروما يمر بها الحرير الخام دون غيرها مثل كالينيكوم *Callinicum* فى جنوب ناحية خسروان ، ونصيبين فى بلاد الجزيرة فى منتصف خط الحدود ، وأرتكساتا *Artaxata* ودوفن *Dovin* فى الشمال عند أرمينية . ولحق بالتجارة الرومانية ضرر كبير من جراء عرقلة المواصلات ورفع ثمن المادة الخام ، وذلك نتيجة طبيعية للحروب بين بيزنطة وفارس .

ومنذ القرن الخامس أخذت الدولة تتدخل ، فقصرت السماح بشراء الحرير على وكلاء إمبراطوريين على الحدود ، لكى لا يكون لها منافس ، ومن ثم يباع إلى الأفراد بالسعر الجارى عندئذ . وقد كانت الحرب مع فارس فى زمن جستنيان سببَ ارتفاع ثمن المادة الخام ، ومن ثم ارتفعت الأسعار التى كان تجار صور و بيروت يتقاضونها على الأشياء المصنوعة إلى حد غير

عادى . ولهذا فقد حظر الإمبراطور أن يباع الحرير بسعر يزيد عن خمسة عشر صولدياً ذهبياً للرطل الواحد : غير أن النتيجة الوحيدة التى ترتبت على هذا المنشور هى أن رفض تجار الفرس بيع بضائعهم رفضاً باتا ؛ ونتج عن ذلك إفلاس صناع الحرير ، وتوقفت تجارته توقفاً تاما . واضطرت الدولة إزاء هذه الكارثة أن تخضع لمطالب وسطاء الفرس . ولكنها احتكرت الصناعة جميعها . وعلى كل حال لم تكد تمضى فترة قصيرة حتى أفلت راهبان من سَرِ دْنا *Seridna* (فى بلاد الخطا *Khotan ?* = الصين) (بين ٥٥٢ و ٥٥٤) ، أو راهب فارسى من الصين ، وهو مبشر نسطورى على الأغلب — كما يقول ثيوفانيس البيزنطى ، من مراقبة الفرس ، وجلبا شرانق دود الحرير لجستنيان . وبدأت أشجار التوت تزرع فى سوريا ، فأخذت الإمبراطورية تنتج ما يلزمها من الحرير . ومع أن سير التجارة خلال فارس على الطريق الذى أشرنا إليه قد استؤنف بعد وقت قصير حين عقد الصلح ، إلا أن روما قد أصبحت فى الحقيقة فى غنى عن السوق الأجنبى . وظلت الإمبراطورية تحافظ على احتكارها لصناعة الحرير باهتمام ، وتستخدم ألوف العمال فى ذلك .

ولم يكشف القناع عن سر صناعة الحرير الذى كانت الدولة

تحتفظ به لشعوب الغرب إلا حين نقل روجار *(Roger)* الثانى ، حاكم صقلية النورماندى ، فى أواسط القرن الثانى عشر ، أدوات صنع الحرير من اليونان إلى پالرمو ، وذلك بعد أن احتل طيبة وكورنث .

وحاول جوستين الثانى خلال النصف الأخير من القرن السادس فتح طريق التجارة الشمالى ، ودخل لهذا الغرض فى مفاوضات مع خان *(chagan)* الأتراك ، غير أن الحروب التى قامت فى الغرب حوّلت انتباه الإمبراطور ، فانصرف عن الفكرة . وكانت موانئ القرم على كل حال (البسفور وخِرْسون) تتاجر مع الهون والآفار وجنوب روسيا ، فتجلب الجواهر وتُحف الصناعة الرومانية الفاخرة ، وتستبدل بها الجلود والعبيد من الشمال ، بينما كان أهل قبائل القوقاز يبيعون الجلد والفرو للحصول على القمح والملح والخمر .

وكان طريق التجارة الجنوبى أهمّ من ذلك بكثير ، ونجد له وصفاً ممتازاً فيما بين أيدينا من كتابات كوزماس انديكوپْليوستس Cosmas Indicopleustes ، الذى تحدث إلينا عن تجاربه الخاصة كتاجر ، وسجلها قبل أن يهجر الأشياء الدنيوية نهائياً ، وكان دافعه إلى هذا التسجيل رغبته فى أن يقنع مَن كان يأبى الاقتناع من أهل

عصره بأن الدنيا فى حقيقتها ليست كروية كما زعم بعض المارقين . فيخبرنا بأن سيلان كانت فى القرن السادس ملتقى تجار الشرقين الأقصى والأدنى : فهناك كان تجار من الهند وآخرون من الحبشة يستبدلون الحرير والمُر وخشب الصندل الواردة من الصين بالزجاج والأقمشة المطرزة من سوريا . وفى سيلان أيضا كان يحصل تبادل العنبر وحجر اليشب الآتيين من الغرب بالفلفل الوارد من ملابار وخشب السمسم والنحاس الآتى من كاليانا *Calliana* (على مقربة من بمباى) — وكانت مركزاً تجارياً عظيما .

وكان تجار الحبشة يجلبون هذه المنتجات إلى أَدُولة *Adule* على البحر الأحمر ، عاصمة مملكة أقشوم *Axum* الحبشية . وكان بعضهم يوغل فى البحر حتى يصل سيلان ، بينما يظهر أن الأكثرية منهم كانوا يحمِّلون مراكبهم في ملابار ، التى كان التجار الهنود يجلبون إليها متاجر من الشرق الأقصى والجواهر وحجر اللازورد وقواقع السلاحف من سيلان . ولم تعد السفن الحبشية تقترب من هذه الأراضى ؛ وكان الناس قد عرفوا نظام الرياح الموسميّة وانتظام أوقاتها منذ أيام الإمبراطور فِسْباسيان ؛ فكان التجار ينتفعون بهذه المعرفة ، ويخرجون إلى عرض المحيط الهندى فى جرأة .

وكانت تغادر أقشوم مرة فى كل سنتين حملة إلى داخل إفريقية يشترك فيها تجار كثيرون ، حتى لقد كان الركب يضم خمسمائة رجل ، مما كان يمكنهم من مقاومة هجمات القبائل المعادية . وكانوا يحملون معهم الماشية والحديد والملح ، حتى إذا وصلوا غايتهم ذبحوا الماشية ، وأقاموا حاجزا كبيرا من الأشواك ، وعلق التجار عليه بضائعهم ، وابتعدوا عنها . فيتقدم المواطنون ويضعون على كل سلعة قطعة ذهبية على شكل حبة الفول ويرجعون : فيتقدم التجار بدورهم ، وإذا اكتفوا بالثمن أخذوا قطعة الذهب ، وحمل المواطن الحديد أو الملح ، وإذا لم يرضهم الثمن تركوا الذهب دون أن يلمسوه . وحينئذ يضع المواطن ذهباً أكثر ، أو إذا لم ير دفع شيء بالإضافة إلى مادفعه أخذ ما وضعه من المعدن الثمين ومضى . وينتهى البيع بعد أربعة أيام أو خمسة ، وتعود الحملة أدراجها بأقصى سرعة لتفلت من أمطار الشتاء ، التى كانت تجعل عبور مخاضات الأنهر مستحيلا . وكانت تلك الرحلة تستغرق ستة أشهر فى الذهاب والإياب . ولا نعلم من هم أولئك المتوحشون الذين كانوا يقدمون قطعهم الذهبية . وقيل إنه من المحتمل أن يكون التجار الأحباش قد وصلوا إلى زمبابوى *Zimbabwe*

حيث ظن بعض الجوّالة أنهم وجدوا أوفير(١) *Ophir* الواردة في التوراة .

وكانت السفن الرومانية تأتى إلى أُدُولَة ، ومن ثم تبحر محملة بالتجارة الشرقية إلى جوتاب ، وهى جزيرة تبعد عن شبه جزيرة سينا . وكانت تصل إلى جوتاب أيضاً المراكب الرومانية التى كانت تتجر بالبهارات مع موانئ اليمن على ساحل البحر الأحمر الشرقى . فإذا دفعت السفن المكوسَ فى محطة الجمارك الإمبراطورية فى جوتاب ، تقدمت صعداً مع الفرع الغربى(٢) للبحر الأحمر إلى عيلاث *Elath* [وهى أيلَة = العقبة الحالية] أو أبحرت إلى القلزم (قريبة من السويس) حيث كانت هناك ترعة تصلها بالنيل ؛ وكانت الاسكندريّة مركز توزيع المنتجات الأسيوية فى

(١) أوفير *Ophir* : ورد فى أعمال الرسل أن أوفير هو أحد أبناء يقطان . وكانت أوفير فى زمن سليمان البلد الذى يجلب منه الذهب إلى فلسطين . وقد اختلفت الآراء فى موضع أوفير ، فيرى لاسن *Lassen* أنها على الساحل الغربى للهند قرب مصب السند . ويرى بيترز *Peters* أن أوفير هى بنت ، وأن هذه تقع فى روديسيا الحالية إذ كان يكثر فيها الذهب . ويرى بنزنجر *Benzinger* أن أوفير هى بنت ، إلا أن بنت عنده تشمل ساحل إثيوبيا على البحر الأحمر والساحل العربى . وأرجح هذه الآراء رأى جلازر *Glaser* الذى يرى أن أوفير تقع على الشاطئ الشرقى من بلاد العرب ، وأنها تتصل بالخليج الفارسى .

انظر مادة أوفير فى *Enc.Biblica*

(٢) كذا فى الأصل .

حوض البحر الأبيض المتوسط كله . وكان أعظم جانب من هـذه التجارة الغربية فى يد السوريين ؛ وقد زاد فى سيطرتهم عليها اضمحلالُ الحضارة الرومانيـة من جراء غزوات البرابرة . ولدينا شواهد على أنه كان لهؤلاء الشرقيين جاليات تعيش فى مدن الغرب بين القرنين الرابع والسادس ، وكأنها « أمم » مستقلة بنفسها ؛ وكانت تحتفظ بلغتها الخاصة فى حالات كثيرة . ولما كان أفراد هذه الجاليات يجيئون كتجار ، فقد كان من الطبيعى أن يتخذوا المراكز التجارية العظمى مكاناً لسكناهم ، ففى إيطاليا مثلا أقاموا فى نابولى وأستيا *Ostia* ، وفى « غالة» أقاموا فى نيس ومرسيليا ، التى كانت كما هى اليوم ملتقى الشرق والغرب . ومن هذا البلد الأخير ، كانوا يسيرون مع الجارون إلى بُرْدال (*Bordeau*) وصعدوا مع نهر رُدَانُه (الرون) إلى ليون ، ومع اللوار إلى أورليان وتور ؛ بل نستطيع أن نتتبع آثارهم فى انجلترا وألمانيا .

وقد نتج عن إعادة فتح إفريقية على يد جستنيان انتعاشٌ عجيبٌ فى رخائها : حتى لقد بدت تلك الأراضى ، التى تبدو اليوم كصحراء موحشة ، جنةً مبهجة فى نظر العرب[1] . وقد بذل جستنيان

---

(١) جاء فى ابن عذارى (البيان المغرب ، حـ ١ ص ٢١) فى وصف إفريقية عند ما فتحها العرب : « فذكروا أن إفريقية كانت ظلا واحداً =

وسعه فى تشجيع التجارة الصادرة من موانيه الشرقية إلى إفريقية و إيطاليا . وكانت سوريا ، وهى من أخصب بلاد العالم عندئذ ، تصدر الحرير والخمور من غزة وساربتا *Sarepta* وعسقلان ، والزجاج من صيدا ، ومواد متقنة الصنع من صور و بيروت ، بينما كانت مصر تصدر ورق البردى والبهارات التى كانت تصلها من الشرق الأقصى .

ولقد ظلت تجارة إفريقية مستمرةً مع القسطنطينية ، حتى فى تلك السنين المضطربة من أوائل القرن السابع ، بالرغم من أن الغزاة الصقالبة كانوا قد أقدموا على ركوب البحار . وكانت سفن الإسكندرية تصل حتى بريطانيا . وقد عملت الإمبراطورية خلال القرنين السابع والثامن على تنمية التأثير الشرقى فى إيطاليا كجزء من سياستها ؛ إلا أن شقى البحر الأبيض المتوسط فى القرن التاسع كانا قد انفصلا انفصالا يكاد يكون تاما — وانقطع اتصال إسبانيا مثلا بالإمبراطورية الشرقية انقطاعاً تاما .

إلا أنه قد وجد فى القرنين التاسع والعاشر منفذ جديد لمنتجات الإمبراطورية ، وذلك هو التجارة مع روسيا (انظر فصل ١٤) .

= من أنطابلس إلى طنجة : قرى متصلة ومدائن منتظمة ، حتى لم يكن فى أقاليم الدنيا أكثر خيرات ولا أوصل بركات ولا أكثر مدائن وحصون من إقليم إفريقية ... »

فكان أمير كييف يتولى تنظيم البعثة التى تحمل إلى الدولة الضريبة العينية المقررة لها ، والتى كان يجمعها أثناء الشتاء . وكان تجار الأسواق المجاورة ينضمون إلى هذه البعثة لكى تحميهم قوات كييف العسكرية من هجمات الخزر . وكانت البعثة تسير فى مراكب فى مياه نهر الدِّنْيبَر نحو الجنوب . وكان هذا الجزء من الرحلة ينطوى على أخطار ومشاق كثيرة ؛ ذلك أنه كان يتحتم على التجار أحياناً أن ينقلوا البضاعة إلى البر ويجروها ليتفادوا الشلالات التى تعترض مجرى النهر ، فتنتهز القبائل المعادية هذه الفرصة وتغير عليهم . فإذا ما وصلت السفن إلى البحر الأسود ، صارت فى أمان بفضل المعاهدات المعقودة بين كييف والقسطنطينية ، واستطاع رجالها ولوج أسوار روما الجديدة على شريطة أن يكون ولوجهم من بوابة واحدة غير مسلحين ، وألا يدخل أكثر من خمسين منهم فى المرة الواحدة : وهناك كانوا يستطيعون قضاء الصيف على ألا يطول مكثهم . وكانت الحكومة تهيئ المسكن والطعام والحمامات للتجار الروس طول فترة زيارتهم دون مقابل . وكانت تختص رسلَ أمير كييف التجاريين بمنح خاصة ، فلم تكن تحصل من التجار الروس ضرائب جمركية . وكان الروس يتعهدون فى مقابل ذلك بحماية

أرض الإمبراطورية ؛ فقد أخذ أمير « الروس *Rus* » مثلا على عاتقه ألا يسمح لبلغار القرم باجتياح مقاطعة خرسون . وكانت التجارة جميعها تقريباً تجرى على أساس المقايضة . فكان الفراء الروسى والشمع والعبيد تستبدل بالخمور اليونانية والفواكه والأقمشة الحريرية . وكانت الحكومة الرومانية تجهز التجار عند رجوعهم بالمؤن اللازمة لهم أثناء رحلتهم ، كما كانت تعطيهم أدوات لسفنهم كالمراسى والحبال الضخمة والصغيرة والأشرعة — مما كانوا فى احتياج إليه لإصلاح سفنهم . وعلى القارئ أن يرجع إلى الجزء الأول من « تاريخ روسيا » لكلوسفسكى[1] حيث يجد وصفاً رائعاً لهذه التجارة مع الإمبراطورية .

ويرجع أيضاً إلى القرن العاشر كتاب « النقيب إبارخيكون بيليون *Eparchikon Biblion* » ، أو مجموعة القوانين التى أصدرتها الدولة لنقابات القسطنطينية التجارية . ولم يُكتشف « كتاب نقيب المدينة » هذا ، وهو الرجل الذى كان يشرف على تنظيم علاقات جميع نقابات العاصمة مع الدولة — خلا بعض الاستثناءات — إلا سنة ١٨٩٣ ؛ ومهما قلنا فى تقدير هذا الكتاب فلن نعدو الواقع . وأبرز مواده المميزة ، هى تلك التى تنص

(١) KLUCHEVSKY : *History of Russia*

على منح الحماية للمستهلك والمنتج على السواء ؛ فكانت الدولة تحرم على التجار جَمْع البضاعة من السوق بقصد رفع الثمن والانتفاع من ذلك ، وكذلك كان من المحرم شراء البضائع جملة والكسب من وراء بيعها تفاريق . فكان يجب — فى حدود الإمكان — أن يُشرى كل شىء ويباع دون تدخل الوسطاء . بينما وضعت مادة تحفظ للعامل أجره الذى يستحقه ، وتكبح جشع الرأسماليين ، وتمنع احتكار أقلية غنية لصناعة ما . وكان المشتغلون بكل حرفة من الحرف يجتمعون فى نقابة خاصة بهم . وكان الجمع بين عضويّة نقابتين فى وقت واحد محرما . وفى الحالات التى تمس مصلحة الدولة ، كحالة التموين ، نجد أن القواعد ، التى كان أعضاء النقابة الخاصة بذلك الموضوع خاضعين لها ، مفصَّلة تفصيلا خاصا . فكانت الحكومة تقرر الثمن الذى تشترى به المواد الخام ، وسعرَ بيع المأكولات ، ويظهر أنه كان فى استطاعة الدولة أن تطلب بعض خدمات من النقابات دون مقابل — وربما كان هذا بقية لتقليد يونانى قديم يسمى ليتورجياى *leitourgiai* ، كانت الدولة تفرض بموجبه على مواطنيها الأغنياء أن يتطوعوا للقيام بخدمات لها . وربما كان تعيين رؤساء النقابات يتوقف فى كل حالة على موافقة محافظ المدينة ، بينما كانت الدولة تشترط

لـكى يسهل عليها مراقبة كل المبيعات أن تكون العمليات علنية . وكان من المحتم أن تتم هـذه العمليات فى أماكن معينة محددة لـكل حرفة . وكان للنقابة وحدها أن تشترى المواد ثم توزعها على أعضائها ؛ وكانت تلك الصفقات التى يقوم بهـا موظفو النقابات لا تتم إلا فى مواضع معينة . وكان انتهاك حرمة هذه النظم يعرض مرتكبه للعقاب بالفصل من النقابة ومصادرة أملاكه ، أو بتغريمه مالا أو بجلده وقص شـعر رأسه ولحيته . وإذا كانت الحـالة أكثر خطورة ، يُنفى أو تُقطع يده . وكان على التجار الأجانب ، حال وصولهم العاصمة ، أن يخطروا السلطات الحـكومية ؛ ولم يكن فى استطاعتهم أن يمكثوا فى العاصمة أكثر من ثلاثة أشهر إلا بموجب اتفاق خاص . وإذا انتهت هذه المدة دون أن يبيعوا بضائعهم ، قامت الدولة بوضع الترتيبات لبيعها . وكان كل ما يشترونه من البلدة نفسها خاضعاً لرقابة دقيقة ؛ ولم يكن يسمح لهم أن يحملوا معهم شيئاً من الأمتعة التى كان تصديرها محرماً كالمواد الحريرية الممتازة . وكانت الحـكومة تـكشف على كل البضائع كشفاً دقيقاً ، فإذا أُبيح بعدئذ تصدير بضاعة ما ، طبعت بخاتم الدولة .

غير أن التجارة البيزنطية اضمحلت فى القرنين الحادى عشر

والثانى عشر . لأن الدولة اضطرت إلى أن تمنح البندقية امتيازات شديدة الخطر فى مقابل الحصول على معاونتها ، وذلك بعد أن فشلت فى الاحتفاظ بأسطولها . وكانت البندقية ، التى أُسست على ما يُظن حوالى منتصف القرن السادس ، لا تزال معتبرة فى القرن الثامن جزءاً من الأراضى الايطالية الخاضعة للامبراطورية الشرقية ؛ غير أنها عملت على تنمية أسطول مستقل لها : وابتداء من سنة ٧٢٧ نجد هذا الأسطول يعمل فى تأييد الإجزرك البيزنطى فى ايطاليا . وأخذت هذه المدينة الجزرية مكان رافنا ، وذلك حينما وقعت عاصمة الاجزركية فى يد اللمبارد سنة ٧٥١ ، وعبثاً حاولت القسطنطينية ، فى خلال السنوات الأولى من القرن التاسع ، أن تمنع تجار البندقية من أن يتاجروا بالسفن والخشب والمواد الحربية مع حكام مصر المسلمين . وقد جرت بين القسطنطينية والغرب خلال القرن العاشر مراسلات منتظمة على يد البندقيين ، بينما كان سفراء من المانيا يسافرون من البندقية على سفن بندقية ، ومن بينهم الأسقف ليوتبراند *Liutprand* القريمونى وغيره كثيرون .

وحين عقد الإمبراطور سنة ٩٩١ معاهدة تجارية مع البندقية ، كان هذا دليلا واضحاً على أن المدينة لم تعد تُعتبر ولاية خاضعة

لروما . وتمت الخطوة الحاسمة فى هذا السبيل حينما وقع الكسيوس الأول مع البندقية فى سنة ١٠٨٢ معاهدة منح فيها تجار البندقية مطلق الحرية فى التنقل بين أنحاء الدولة دون دفع جمارك أو مكوس ؛ ومنحهم كذلك مكاناً لإقامتهم على القرن الذهبى ، وذلك فى مقابل مساعدة البندقية للدولة فى حربها مع روبرت جيسكارد النورماندى . وربما حاول يوحنا كومنينوس إضعاف البندقية بإثارة المنافسة بينها وبين جنوة ، وذلك بسحب امتيازات البندقية ، ومنح جنوة امتيازات أقل ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئاً : فلم يكن الأسطول الرومانى فى مستوى الأسطول البندقى ؛ واضطرت الدولة أن تعيد إلى البندقية امتيازاتها السابقة ؛ وقد كان دهاء البندقيين هو الذى جعل الصليبيين يهاجمون القسطنطينية فى الحملة الصليبية الرابعة . وفقدت تجارة الإمبراطورية ، بعد سقوط عاصمتها ، مكانتها إلى الأبد .

كيف نفسر اضمحلال التجارة الرومانية ؟ كانت هناك دون شك أسباب عدة : وحسبنا أن نذكر سبباً يظهر أنه قد لعب دوراً مهما ، وهو : لم يكن أغنياء الرومان على استعداد لأن يجازفوا برؤوس أموالهم فى تجارة تذهب إلى ما وراء البحار ، بل كانوا يفضلون استثمار أموالهم فى الأراضى ، لأن الأخطار كانت عظيمة

فى الواقع . والحقيقة أن السفن لم يعد يباح لها الإبحار فى الشتاء ؛ وقد كانت تقاليد الملاحين فى العصور القديمة تحرم ذلك ، فجاءت القوانين البيزنطية ومنعته قانوناً . فكانت قوانين المدن الإيطالية تقرر إيقاف الملاحة على الجملة من أول نوفمبر حتى أول مارس . وكانت هناك أخطار شبوب النار فى السفن ، كما كان هناك ناس كثيرون يتربصون بالسفن على الشواطئ لإغراقها ، وكانت هناك أخطار لصوص البر وقرصان البحر. وكانت السفن تتعرض لما يسمى القصاص ، وذلك أن دولة من الدول تمنح لرعاياها ، الذين أُنزل بهم حيف من دولة أخرى ، الحقّ فى أن ينتقموا لأنفسهم بمهاجمة كل سفينة تابعة للدولة التى اعتدى أهلها على رعاياها . وهناك خطر الوقوع فى يد القرصان ، وكانوا ناسا ذوى إيمان مثالى ، يكسبون عن هذا الطريق المال الذى يعينهم على الخروج للحج تعظيما لمقام السيدة العذراء ؛ وكانوا إلى جانب ذلك على درجة من حرية الكلام تدعو إلى الدهشة ، ومن أمثلة كلامهم ما يخبرنا عنه «مستر اشبرنر» أنه عندما سأل البيزيون فى ١١٦٥ قرصانا جنويا بارزا إلى أين هو ذاهب ، كان جوابه : «إننى ذاهب لكى آسركم ، وأستولى على بضائعكم وأشخاصكم ، وأقطع أنوفكم» ، ومن هنا كانت السفن تسير جماعات لتتبادل المساعدة . وكانت تحمل على

ظهورها رجالا مسلحين . وكان قانون الملاحة يقضى بأنه إذا أقرضت نقود على ظهر سفينة ، وضاعت السفينة ، فلا يمكن استعادة النقود المقترضة ؛ ولهذا لم يكن الرومان من أهل الإمبراطورية المتأخرة على استعداد لمجازفة من هذا النوع : فكانوا يستغلون أموالهم فى شراء الأرض وتثميرها ، ثم يوصون بها عند وفاتهم لدير من الأديرة كزاد ينفع أرواحهم . أما الرجل من أهل البندقية فكانت هباته الخيرية تدفع نقداً على شريطة أن يستخدم رأس المال فى التجارة .

إن النزاع بين القسطنطينية والبندقية هو نزاع بين أرستقراطية من ملاك الأراضى وأرستقراطية من التجار ؛ وهو نزاع تكرر فى زمننا نحن ، ونشأت مأساة الإمبراطورية من أن أولئك المستثمرين الذين حرصوا على أن يؤمنوا أنفسهم ، خسروا المعركة .

غير أن النقود البيزنطية التى امتدحها كوزماس قد كُتب لها من العمر أطول مما كتب لتجارة الدولة . وظلت بيزات الدولة جارية فى المعاملات بين الناس حتى أواخر العصور الوسطى فى الشرق والغرب .

الفصل الرابع عشر

دَيْن الصقالبة لبيزنطة

« شعب له تراث مثلكم اليوم »
Deut. IV. 20.

فى سنة ٨٦٤ م على ما يُظن بارح القسطنطينيةَ قنسطنطينُ ، أو لنسمه باسمه الكنسى الأخير « سيريل » (كِيرُلس) مع أخيه مثوديوس فى بعثة إلى صقالبة موراڤيا . وكان ذلك — كما تؤكده الرواية — إجابة لرجاء أميرهم روستسلاڤ حين طلب أن يُبعث إلى شعبه من يعلمهم الحق كله . وليس لدينا شاهد قبل هذا التاريخ على أنه كان للصقالبة أى أدب خاص بهم ، أوأنهم استعملوا حقاً أية حروف مكتوبة تصح أن تكون وسيلة للتعبير الأدبى . وكان قنسطنطين ملماً باللسان الصقلبى ، فقد اشتغل قبل ذلك حاكما إمبراطوريا فى مقدونيا . وهو الذى اخترع الكتابة الصقلبية الجديدة التى ترجع فى أصولها آخر الأمر إلى الحروف اليونانية الصغيرة ، وترجم أجزاء من العهد الجديد وكتاب مختارات من الإنجيل لتقرأ أثناء الصلاة ، على ما يظن ، إلى لهجة الصقالبة المقدونيين . وقد حمل هذه الترجمات معه إلى موراڤيا . ولسنا

نستطيع الإجابة على سبيل التأكيد عما إذا كان قد قصد فى الأصل التبشيرَ بالمسيحية فى بلغاريا من وراء ذلك . وكانت هذه الكتابة الجديدة ، التى استخدمتها بعثة التبشير هذه إلى موراڤيا ، هى التى تدعى جلاجوليتك *Glagolitic* ، أو اللغة السلاڤونية القديمة ؛ التى كانت تستعملها الكنيسة : ولا نستطيع أن ننفى أو نؤكد أن سيريل قد اخترع حروف الهجاء التى تحمل اسم « السيريلية » التى قامت على أساس من الحروف الكبيرة اليونانية ، والتى يستعملها اليوم الروس والصرب والبلغاريون . ولكن يظهر أن هذه الكتابة البسيطة ترجع إلى عصر متأخر(١) عن ذلك . وظل الأخوان يعملان معاً ثلاث سنين ؛ وعند ما عادا إلى روما سنة ٨٦٧ ب . م . حملا معهما رفات القديس كليمنت التى كان سيريل قد اكتشفها بأعجوبة قبل ذلك ببضع سنين ، وحملها معه من خِرسون فى نهاية رحلة تبشيرية قام بها إلى أراضى الخزر . وكان من المهم الحصول على موافقة روما على إقامة الطقوس الكنسية باللسان الصقلبى ؛ فقد كان يظن أن العبادة المسيحية لا تؤدى إلا بثلاث لغات : وهى العبرية واليونانية واللاتينية —

(١) يستطيع القارئ أن يقارن صور هذه الكتابات بالاطلاع على الجدول الذى أورده الدكتور مينز *Minns* فى مقال "*Slavs*" فى دائرة المعارف البريطانية فى المجلد ٢٥ صفحة ٢٣٢ .

التى استعملت فى الكتابة على صليب المسيح . ونهجت روما حول هذا الموضوع نهجاً حرا ، فسمحت باستعمال اللغة الصقلبية فى كتاب الصلوات . غير أنه بعد وفاة سيريل (٨٦٩ م) انتصر رجال الدين الرومانيون ، وحظر استعمال اللغة الوطنية (فيما عدا بعض الاستثناءات) فى الطقوس الكنسية بين الصقالبة الذين كانوا تابعين للكنيسة الرومانية ، هذا مع أن مِثوديوس كان قد عاد إلى ميدان تبشيره . وهكذا فشلت البعثة المورافية فى النهاية ، إلا أن جميع الصقالبة اليوم — سواء من يدين منهم بولائه للكنيسة الغربية أم للشرقية — يزعمون لأنفسهم حقا فى مجد هذين المبشرين ، اللذين أرسلهما فوتيوس بطريق القسطنطينيّة إليهم . وسنحاول فى هذا الفصل أن نحدّد فى إيجاز مقدار دَيْن البلغار والصرب والروس لحضارة روما الشرقية :

(١) حينما استقرّ البلغاريون — الذين يرجعون إلى أصل فِنًى تركى — فى أراضى الدانوب تأثروا أولاً برعاياهم الصقالبة ، واقتبسوا اللغة الصقلبية . وفى أثناء القرن السابع أسس أبناء كوبرات *Kubrat* أولَ مملكة بلغارية ، واتخذوا أبوبا *"Aboba"* عاصمة لهم . وقد قام نفر من الأثريين الروس بحفائر فى منطقتها أخيراً . غير أن منازعات الحرس الملكى *Boyards* أضعفت

سلطان الملوك . ولم تتحد بلغاريا مرة أخرى إلا فى عهد المحارب الكبير كروم "*Krum*" (٨٠٢ — ٨١٥) وخلفه أومرتاج *Omortag* (٨١٥ — ٨٣٠) . ويعزى لأومرتاج تأسيسُ العاصمة الجديدة فى برسلاف *Preslav* . وقد ترك بوريس *Boris* (٨٥٢ — ٨٨٨) عقيدة آبائه واعتنق المسيحية . وتبعاً لهذا التحول أصبحت المسألة الكبيرة التى ارتبط بها تاريخ المملكة فى المستقبل هى مسألة الولاء الكنسى : فقد زعمت كل من روما والقسطنطينية أن ذلك الملك إنما قد تنصر على يدها . وعلى كل حال فقد فشل بوريس فى الحصول من البابا على تعيين فورموسُس *Formosus* أسقفاً أو بطريقاً لبلغاريا ، فألقى بنفسه نتيجة لهذا فى أحضان الكنيسة الأرثوذكسية . وقد قرر رجال الدين الشرقيون فى مجمع دينى عقد سنة ٨٧٠ م ، وأيدهم باسيل الأول ، أنه لمّا كانت أراضى بلغاريا داخلة فى زمام الإمبراطورية الشرقية فيما مضى فمن الطبيعى نتيجة لذلك أن تكون الكنيسة البلغارية تابعة لبطريق القسطنطينية . وبدأ بوريس حكمه بغزو الأراضى البعيدة على حدوده الغربية : فلما تنصر بوريس وقعت بلغاريا تحت سلطان روما الشرقية بدلا من أن توجه همها إلى إخضاع الصرب والصقالبة . [ولقد صدق أحد المؤرخين حينما قال] : « لقد

كان فى مقدور الملوك البلغاريين أن يؤسسوا إمبراطورية صقلبية عظيمة : لكنهم احتقروا ذلك ، ولم يعودوا يحلمون إلا بإزالة الدولة البيزنطية والحلول محلها » . وكانت بلاد بوريس تقع بين الدولة الفرنجية المسيحية فى الغرب والمسيحيين الرومان فى الشرق . وكان على بوريس أن يختار بين الاثنتين ، فانتهى إلى قراره الهام الذى ذكرناه : ولم ترتدَّ بلغاريا عن ولائها للكنيسة الأرثوذكسية بعد ذلك أبداً ، على الرغم مما كان يدور بينها و بين البابوية من مفاوضات بين حين وحين ، ولم يكن لهذه المفاوضات إلا أهداف سياسية عابرة .

و بالرغم من أن السهوب ، لا روح الإنجيل ، هى التى أضفت طابعها على مسيحية بوريس ، فإن خلفه سيميون الكبير (٨٩٣ — ٩٢٧) كان « نصف يونانى » وأطلق عليه لقب « بطليموس الجديد » بفضل ما أصابه من علم فى القسطنطينية ، حتى لقد أصبح ملما بجميع علوم عصره . وقد درس فلسفة أرسطوطاليس ، لكنه ظل رغم ذلك محاربا يُخشى بأسه . و بعد أن هزم جيوش الإمبراطورية فى انخيالوس *Anchialos* (٩١٧) اتخذ ذلك اللقب الرفيع « إمبراطور البلغار والإغريق وحاكمهم المطلق » . وكان بلاط برسلاف قد تكوّن على النهج

البيزنطى فى أثناء تلك الفترة الطويلة التى ساد السلام خلالها بين البلغار وروما الشرقيـة ، والتى سبقت الحرب فى ٩١٣ . وحالَ البشناقُ دون توسع البلغار شمـالا . وحينما استقر المجر على الساف والدانوب أصبحوا كالوتد الحاجز بين الصقالبة الشرقيين والغربيين وفصلوا ما بين موراڤيا وكارنثيا *Carinthia* . وقد اضطرت بلغاريا ، بعد أن انحصرت فى شبه جزيرة البلقان ، إلى توثيق علاقاتها بروما الشرقية ، فبنيت فيها الـكنائس والقصور ، وملئت بالصور والرخام والفضة والذهب ، وكان ملـكها إذا جلس على عرشه رفل فى حلل الارجوان ، تكسوه الجلابيب المرصّـعة بالجواهر ، وحوله حاشية من رجال البلاط تبهر الأعين . وقد كتب يوحنا الإجزرك يقول : « إذا سئل غريب عما رأى فى برسلاف بعد رجوعه منها ، لم تزد إجابته على ما يأتى : لست أدرى كيف يتأتى لى أن أصفها ؛ إذ لا تعطيك فـكرةً عن مثل هذه الأبهة إلاَّ عيناك » .

وقد تم الصلح مع روما الشرقية عند ما اعتلى عرش البلغار بطرس بن سيميون (٩٢٧—٩٦٩) الذى تزوّج أميرة بيزنطية ، بينما وافقت القسطنطينية فى ٩٤٥ على الاعتراف ببطريركية بلغاريا المستقلة ، ومنحت بطرس لقب الإمبراطور الذى تمناه من زمن

بعيد . وقد ظهر إلى الوجود أدب بلغارى بفضل تشجيع سيميون وابنه . وقد تكوّنت شبهُ جامعــة تحت إشراف « كليمنت » الذى جُعل فيما بعــد مطران بلغاريا . و بين العلماء الذين جعلوا الــكنيسة الصقلبية الفَتِيّة تستسيغ كنوز اللاهوت الإغريقى نجد أسماء رجال عظام مثل قنسطنطين والراهبَ هرابر *Hrabr* و يوحنّا الإجزرك . وكان هذا الأدب أدبَ ترجمة ؛ ولمـا كان القائمون بأمره هم رجال الدين فقد كان معظمه أدباً كنسيا يتألف من أبحــاث مثل مواعظ كريسوستُم ومقالات أثَناسيوس ورسالات يوحنّا الدمشقى اللاهوتيــة . وكان فيها كتب فى التاريخ أظهرها «مدوّنة يوحنّا ملالاس» ، بينما كان الــكتاب المسمى «سبورنك *Sbornic* سيميون » موسوعة عامة للمعارف البيزنطية فى ذلك الزمن . وكان هذا الأدب كله نثراً وخطابة فى معظم الأحيان ، كالأصول اليونانية التى استقى منها ، وقد ظل إنتاجاً أجنبيا لأنه كان يقتبس موضوعات أجنبية وشرقية ، مثل قصص من ألف ليلة وليلة ، وأساطير طروادة والإسكندر الأكبر . وليس لبلغاريا تواريخ كالمدوّنة الروسية القــديمة التى تعرف باسم « مدوّنة نسطور » . وحتى رجال الطوائف الدينية المتشددة مثل جماعة

البوجوميل *Bogomil*[١] نقلوا عن المقالات اليونانية الشائعة مؤلفاتهم المشكوك فى أصالتها . ومن المرجح أن تكون قد وضعت ترجمات لمجموعات القوانين البيزنطيـة فى هذا الوقت مثـل الإكلوجا والبروخيرون ، بينما جمعت كذلك مصنفات قانونية مأخوذة من مصادر بيزنطية وعبرية . وهكذا تسربت الأفكار الرومانية إلى القانون السارى بين الصقالبة الجنوبيين ، وأثرت فيه أثراً يظهر فى حالات كثيرة ، مثل وضع المسئولية على عاتق المذنب وحده بدلا من جعلها فى عنق أسرته بأجمعها .

وقد نتج عن انتصارات نقفور فوقاس و يوحنا تسيمسكيس (٩٦٣ — ٩٧٢) سقوط إمبراطورية بلغاريا الشرقية . وحينما نهض الششمانيون *Shishmanids* وغزوا بلغاريا الغربية لم تكن نتيجة ذلك إلا الحملات المروعة التى قام بها باسيل الثانى ضدهم ، وأزال استقلال دولتهم . واحتل رجال الدين الذين كانوا يتكلمون اليونانية المناصب الدينية الرئيسية فى بلغاريا ، واضمحل الأدب الصقلبى . ولم يكن هناك سيميون آخر يبشر بنهضة أدبية حتى

(١) البوجوميل *Bogomil* : وهم أتباع بوجوميل *Bogomil* الذى كان يشرح للناس تعاليم الرسول بولس التى انتشرت فى بلغاريا .

انظر : BAYNES and MOSS : *Byzantium*, pp. 353—354.

عنـدما أسس يوحنا و بطرس آسن *Peter Asen* الإمبراطورية البلغارية المتأخرة فى ترنوفو *Trnovo* (١١٨٦ — ١٢٥٨) ؛ ولم ينتعش ذلك الأدب إلا فى القرن الرابع عشر . وأعظم ممثل لهذا العصر البلغارى المتوسط هو يوثيميوس *Euthymios* آخر بطارقة ترنوفو (انتخب سنة ١٣٧٥ تقريبا) . وسادت الترجمات من اليونانية مرة أخرى . وقد كان النفوذ البيزنطى فى الواقع يزداد فى كل ناحية من نواحى الإمبراطورية البلغارية التى أعيـد إنشاؤها ؛ وكثر الاتصال بين الدولتين : وكما أن القسطنطينية كانت المركز الدينى والدنيوى للإمبراطورية الرومانية ، فكذلك احتشدت الأديرة حول ترنوفو ، العاصمة البلغارية ، وحُفظت فيها تلك المخلفات التى أوحت ليوثيميوس كتابه عن حيـاة القديسين . لقد ظلت بلغاريا صدى وظلا لروما الجديدة ، وظلت كذلك بلداً يسوده الفكر والحضارة البيزنطية على صورة أقوى مما نشاهدها فى أى بلد صقلبى آخر . وقد كتب سيجل *Sigel* الأستاذ فى ڤارسوفيا يقول « لقد كان لعصر سيميون بالنسبة للعالم الصقلبى الأرثوذكسى أهمية غير عادية . ففى خلال ذلك العصر مُهد الأدب اليونانى للصـقالبة . وفيه أيضا تجمعت تلك الثروة الأدبية التى غذت حياة الصرب ورومانيا وروسيا طيلة قرون » .

(٢) لا نجد ما بين أيدينا من معلومات عن حياة الشعب الصربى وتنظيم الدولة الصربية كافياً إلا أثناء فترة التوسع القومى الصربى فى ظل الأسرة التى أسسها ستيفن نيمانيا *Stefan Nemanya* (الملقب زوبان *Zupan* الكبير ، وقد حكم من سنة ١١٧١ تقريباً إلى سنة ١١٩٥ ومات ناسكا على جبل آثوس سنة ١٢٠٠ متخذاً اسم الراهب سيميون) . فقد وسعت الأسرة الجديدة سلطانها من مركزها فى نوفى — بازار *Novi-Pazar* ؛ ولقد بدأ ستيفن حياته كتابع إقطاعى لمانويل الأول كومنينوس ، ولم يظفر باستقلاله التام إلا بعد وفاة مانويل فى سنة ١١٨٠ . وقد تسلم ابنه التاج من مندوب البابا فى سنة ١٢١٧ ، وكان أولَ من توج من هذه الأسرة ، إلا أن تبعيته لروما كانت قصيرة الأجل . وكان العمل الأساسى الذى أنفق فيه نيمانيا وأولاده حياتهم هو نشر سيادة الحضارة البيزنطية والكنيسة الشرقية فى مملكتهم . ولم تبدأ المملكة الصربية فى النمو إلا عند نهاية القرن الثالث عشر : فقد مكّن ستيفن أوروش *Stefan Urosh* الثانى (ملوتن *Milutin*) بلاد الصرب من أن تأخذ مركز القيادة بين دول شبه حزيرة البلقان : وغزا ستيفن أوروش الثالث أراضى بلغاريا ، وحكم شمال مقدونيا ، حتى تمكن ستيفن دوشان

Stephan Dushan القوى بين سنتى ١٣٣١ و ١٣٣٥ من إخضاع جميع مقدونيا حتى سالونيك ، و بسط سلطانه على ألبانيا وتساليا و إبروس *Epirus* وأكارنانيا . وتُوج فى سـنة ١٣٤٦ فى سكو بجى *Skopje* (أوسكوب *Uskub*) قيصراً على أهل رومانيا (الحالية) *Romaioi* والصرب بينما جعـل أسقف پك *Pec* (إبك *Ipek*) بطريق الصرب واليونان مجتمعين . وانتهت أيام هذه الأسرة بوفاة ابنه أوروش فى سنة ١٣٧١ ، وقضى الأتراك على مجد الدولة الصربية فى معركة كوزوڤو — بولجى *Kosovo-polje* الهائلة سنة ١٣٨٩ ، حيث سقط لازار *Lazar* ، أمير الصرب ، هذا على الرغم من أن النهضة الأدبية بلغت أوجها فى الصرب فى زمن الطاغية ستيفن لازاريفك *Stephan Lazarevic* (١٣٨٩ — ١٤٢٧) . وأصبحت بلادالصرب ولاية تركية سنة ١٤٥٩ بعد معركة ڤارنا *Varna* سنة ١٤٤٤ ، وسقوط القسطنطينية .

وكما أن سياسة الصرب الأجنبية كانت تقوم فى أساسها على علاقتها بالإمبراطورية البيزنطية ، التى أعيد إنشاؤها بعد إخراج اللاتين منها ، فإن نفوذ القسطنطينية فيها كان عظيم الأثر طيلة تاريخ المملـكة . ولما كانت الأراضى الصربية تمتد على ساحل بحر الأدرياتيك (من مصب نهر الدرن *Drin* إلى شمال نارنتا

Narenta ، فيما عدا أراضى جمهورية راجوزا *Ragusa*) فقد تمهدت طرق اتصالها مع الغرب . ولهذا كان يقيم فى البلاد عدد كبير من الغربيين ، تجاراً وعمالا فى المناجم أو مرتزقة أجانب ، بينما حرصت الصرب على أن تستمر علاقاتها بالبندقية وراجوزا . ولما كان اختيار الناس يقع على كنيسة القديس ستيفن لحفلات التتويج البيزنطية فى العادة — لأن لفظ ستيفانوس معناه التاج — فقد اتخذ الملوك من أسرة نيمنجيكى *Nemanjici* اسم ستيفن ، وجعلوا ستيفانوس القديس الراعى للدولة . وكان الملك لهذا يحكم بموجب حق مقدس ، وأدخلت الصيغ والألقاب البيزنطية الإمبراطورية كلمة كلمة فى اصطلاحات البلاط الصربى . وتكونت الهيئة الحاكمة الإدارية على النهج الرومانى الشرقى ، حتى أن جامع الضرائب كان يعرف باسم « فراهتور » (= فى اليونانية *Praktor* براكتور) . وكما أن ديوان الرسائل البيزنطى كان ينقسم إلى قسمين ، أحدهما للمراسلات اللاتينية والآخر لليونانية فكذلك كانت مراسلات ديوان الرسائل الصربى مع روما الشرقية باللسان اليونانى ، ومع الغرب باللاتينية . وكانت الوثائق الإمبراطورية تحمل أسماء بيزنطية ، واتبعت كذلك القواعد الديبلوماسية البيزنطية . وكان الجيش الصربى مقسما إلى وحدات

على أساس عَشرى على الطريقة البيزنطية . وكان الجنود يمنحون قطعاً من الأرض ليتعيشوا منها كما كان الحال فى النظام العسكرى فى روما الشرقية (كان نظام برونيا معروفاً فى الصرب منذ سنة ١٣٠٠ مع أن تاريخ إدخاله ليس ثابتاً) .

لقد استطاع الأستاذ بايسكر *Peisker* أن يُرجع ما كان الصرب يجرون عليه من العيش أو السكنى عائلات مختلفة مع ذراريهم فى رَبع واحد (*Zadruga*) إلى أثر ضريبة الموقد (*Kapnikon*) البيزنطية ، التى كانت السبب فى نمو مثل هذه العائلات الكبيرة . ويستلفت نظرنا أكثر من ذلك اعتمادُ الصرب على الإمبراطورية الشرقية فى المسائل الدينية . ويبدو بوضوح فيما بقى لنا من آثار العهد الذهبى لفن العمارة الصربى (١٢٨٠ — ١٦٣٠) مقدارُ التأثير البيزنطى وتفوقه فى هذه الناحية : فكانت الكنائس تبنى على طرز كنائس سالونيك وأديرة آثوس . وكان خلوها من التماثيل ، ووجود الأيقونات المرسومة على الخشب مغطاةً بالذهب والفضة فيها ، شاهداً آخر على تأثير روما الشرقية . وقد ازدادت الأديرة زيادة سريعة . وصاحَب هذا نمو الميل إلى الاعتزال عن هـذا العالم المحمل بالآثام ، فطوردت الكاثوليكية الرومانية ، واستؤصلت شأفة

البوجوميلية . وكان الأدب الصربى الذى ترعرع فى الأديرة — خصوصاً دير شيلاندار *Shilandar* على جبل آثوس — يعتمد طيلة الوقت على بيزنطة ، وأخذت أبحاث فى الصوفية والزهد — وهى دراسة الرهبان — المكانَ الأول . ولما كان هذا الأدب الصربى يكيف حسب حاجته الخاصة ما يقتبسه من الترجمات البلغارية التى وضعت فى عصر سيميون وفى الدور البلغارى المتوسط ، فقد كانت مميزاته شبيهة بمميزات هذا الأدب الصقلبى الذى سبقه ، مع أننا ، كما يرينا سترزيجوفسكى *Strzygowski* ، نلحظ هنا اتصالا مباشراً مع الشرق الأدنى ، وخاصة سوريا وفلسطين والدير الذى كان قائماً على جبل سيناء . وقد نقلت الصور الصغيرة التى كانوا ينقشونها على الملاط فى القرن الخامس عشر ، والموجودة الآن فى مكتبة ميونيخ ، عن أصل سورى . واستطاع الصرب بفضل هذه الترجمات من الآداب الأجنبية أن يرتقوا بلغتهم إلى هذا المستوى الذى يبدو فى أنضج صوره فى الملاحم التى تدور حول الصراع مع الأتراك ، وهى مجد الصرب القومى اليوم . ومن الجائز أن تكون مجموعة القوانين التى أصدرها القيصر دوشان *Tsar Dushan* صادرة عن رغبة مؤلفها فى مجاراة الأباطرة البيزنطيين ، بينما ظلت تسمية عيد الربيع الصربى

المسمى روساليا *Rosalia* شاهداً على أصله البيزنطي ؛ فقد كان البيزنطيون يسمونه « عيد الورود » (*Rosalia*) . وكان الشباب يجوبون القرى وهم يرقصون في هذا العيد .

بيد أن المدين لايحب دائنه إلا نادراً : ولهذا كان الصربيون يكرهون خصيان بيزنطة ؛ ولقد كانت مراوغة اليوناني ودهاؤه — (*astutia*) — مضرب المثل عندهم ، وهم يصورونه في هيئة ثعلب في القصة الشائعة التي تتحدث فيها العجماوات . وكان الإغريقي بدوره يحتقر ما يشاهده من تقليد الأبهة البيزنطية وغيرها من الأشياء في البلاط الصربي ؛ ويعلق نقفور جريجوراس *Nicephorus Gregoras* على ذلك بقوله : « إن الناس يقولون إن القردة تقلد بطريقة قردية » . وكان البيزنطي لايرى في الصربي في غالب الأمر إلا قاطع طريق أو سارق ماشية . وكم من كاتب رثا لمن يقسم له حظ السفارة إلى بلاد الصرب . ولكن بالرغم من أنه نتجت عن الاختلافات في الشئون السياسية عداوة متبادلة في تاريخ الصرب المتأخر ، فإن هذا لم يقلل دينَ بلاد الصرب الجسيم لروما الشرقية .

(٣) بالرغم مما يبدو هناك من تناقض ، فإننا لا نبالغ إذا أكدنا أن الدولة الروسية الأولى تدين بوجودها ذاته

للقسطنطينية . فإن مولد روسيا التي يعرفها التاريخ إنما وقع حينما انتقل الورَنك *Varangians* ، المقبلين من الأراضي الإسكندناوية ، من نوفجورود *Novgorod* إلى كييف ؛ وتقوم أهميّة كييف على تحكمها فى حوض نهر الدنيبر ، مما جعلها تتحكم أيضاً فى الطريق المؤدى إلى البحر الأسود وبيزنطة . وكانت المساحة الواقعة بين كييف والبحر الأسود تشغلها دولة الخزر ، ثم دولة البشناق بعدها . وكان أمراء كييف فى حاجة إلى قوة عسكرية لحماية تجارتهم ؛ فلما حصلوا عليها ، ضموا لبلادهم ولايات روسية أخرى كان مركزها بلدة كانت بمثابة سوق تجارى . وقد طمع التجار فى حماية مصالحهم التجارية عن طريق السير مع قوافل كييف المحروسة ؛ وهكذا عملوا على نشر نفوذ أميرها الورنكي . وقد كانت الحياة الاقتصادية جميعها فى هذه الدولة الفتيّة تعتمد فى واقع الأمر على تجارتها مع الإمبراطورية الشرقية ؛ فكان الأمراء يقضون الشتاء فى جمع الضرائب من رعاياهم الذين كانوا يؤدونها عينا . فاذا أقبل الربيع سارت سفن أمراء كييف بالبضائع إلى القسطنطينية ، ولم تكن هذه البضائع إلا مجموع الضرائب العينية التي جُمعت أثناء الشتاء ، بينما كانت حياة الناس ، الذين يعيشون فى الغابات الواقعة فى أعالى النهر ،

تقوم على بناء هذه السفن . وكانت الحروب والمعاهدات بين روما الشرقية وكييف حروبا تجارية ومعاهدات تجارية ، هدفها حمل الرومان الشرقيين على قبول التجار الروس والتجارة الروسية . وقد أثبت فازلييفسكى *Vasilievski* أن السفن الروسية كانت تجوب البحر الأسود فى السنين الأولى من القرن العاشر .

ويرجع إلى القسطنطينية الفضل فى نشر المسيحية فى روسيا ، فقد يبدو أن تنصُّر الأميرة أولجا سنة ٩٥٧ لم يكن ذا أثر بعيد . إلا أن ڤلاديمير *Vladimir* حينما احتل خِرسون فى سنة ٩٨٨ تنصّر وعُمِّد فى كنيسة باناجيا *Panagia* — أمّ الإله للقدّسة — فى تلك المدينة ، وتزوّج من الأميرة البيزنطية أنّا *Anna* ؛ ولما تم له ذلك فرض الدين الجديد على رعاياه الوثنيين ، وأصبحت كييف دولة مسيحية ، وحليفة للإمبراطورية . إن تنصُّر سيد كييف القوىّ فى الواقع ليُعدّ أحد الحوادث البارزة فى التاريخ العالمى .

أُدخلت المسيحية إلى روسيا كنظام كامل التكوين : ومن ثم كانت الكنيسة الروسية صورة من الكنيسة البيزنطية ، ووُضع نظام حياتها الدينية الداخلية والخارجية فى القسطنطينية . وهكذا حددت هيئة طقوسها وعباداتها ونظامها ، وأخذت من

القسطنطينية دستورها وقانونها . فكان يقوم على رأس الكنيسة الروسية مطران واحد يعيّنه بطريق القسطنطينية ، وكان إغريقيا فى العادة ، وكانت الشكايات من المطران ترفع فى بعض الأحيان إلى البطريق ، وكان هذا يستطيع أن يستدعيه للحضور إلى محكمته ليقرر ما إذا كانت أعماله قانونية أو من الممكن تنفيذها . وهكذا كان فى استطاعته أن يشرف بصورة مستمرة على الكنيسة الروسية . وكان المعماريون الرومان يضعون التصميمات للكنائس الجديدة فى روسيا . وكان الفنانون الرومان الشرقيون يقومون بزخرفتها . ويظن أن أقدم كتب القانون الروسية التى وصلت إلينا ، وهو الكتاب المسمى روسكايا برافدا (الحقيقة الروسية) ، قد صنفه رجال الدين لاستعماله فى المحاكم الكنسيّة ، وقد وضع على نهج موجزات القانون البيزنطية — كالإكلوجا والبروخيرون — وحين أخذ القانون المدوّن يحل محل العرف فى المحاكم المدنيّة على مر الزمن ، كان هذا الموجز القانونى الكنسى بمثابة سابقة سارت الدولة على منوالها فى تشريعها الخاص .

ونتج عن هذه العلاقة المتينة مع الكنيسة الشرقية أن شعرت شعوب الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى الغرب بنفور حيال روسيا ، واضطرت هذه الأخيرة لذلك السبب إلى أن توثق

علاقاتها أكثر من ذى قبل مع الصقالبة الشرقيين والإمبراطورية الرومانية . وبالرغم من أن أساس العقيدة لم يتغير فى روسيا إلا أن التقاليد الكنسية تغيرت بسبب الاعتراف بعادات الروس الوطنية وعُرْفهم . وقد أيد هذا الشعور القومى فى داخل الكنيسة أنه حدث فى روسيا أن شعر كل من الحاكم والبطريق أنهما فى حاجة أحدهما للآخر ، كما كان الأمر فى الإمبراطورية البيزنطية . ولم تكن هنا خصومة بين الكنيسة والدولة ، كما كان الحال فى الغرب ، وازدادت كل من الدولة والكنيسة قوة أثناء الحرب الصليبية ضد المغول ، لأنهما اشتركتا معاً فى محاربة أولئك الغزاة الأسيويين . ولما كان الأمير يلبس تاجه وسط احتفال دينى ، فقد كان يعتبر حامياً للكنيسة الأرثوذكسية — دون الهراطقة — وكان معتبراً خادماً لله ، وكان عليه أن يستمع إلى نصائح قسسه الأخلاقية . ولما كان القسس هم الطبقة المتعلمة الوحيدة فى الدولة ، فقد كانوا معلمى الأمة ؛ ولهذا السبب عينه كانوا يستخدمون باستمرار فى مسائل الدولة .

وقبست روسيا بالطريقة ذاتها تَدَيُّنَ الرهبان عن روما الشرقية : فقد اقتبس ثيودوسيوس ، رئيس دير بيشرسكى *Pechersky* العظيم فى كييف ، النظامَ الذى وضعه ثيودور

الاستُودى ، بينما استعملت الأديرة كسجون للأمراء المقهورين والمخلوعين جرياً على تقليد جرت عليـه الدولة البيزنطية فى هذا الشأن . وعندما تقبلت الدولة الروسية الديانة المسيحية كانت العقيدة الأرثوذكسية قد تحـددت نهائيا ، ولهذا لا نسمع عن خصومات دينية كبيرة حول العقيدة خلال الفترات الأولى من تاريخ الكنيسة الروسيّة ، إلا أن الحاكم الروسى وقف موقف الإمبراطور البيزنطى من رجال الدين وجعل لنفسه الحق فى التدخل فى حكومة الـكنيسة ؛ فكان التّزارُ يعقد المجامع الدينيّة ويخلع الأساقفة ، حتى انه كان يفصل فى الخصومات التى تقوم بين رجال الدين حول مسائل تتعلق بنظام الكنيسة ، كما وقع فى مسألة اشـتدّ حولها الجدل وهى : هل من واجب المسيحى أن يصوم فى أيام الأربعاء والجُمعة إذا حدث أن أتى عيد الـكنيسة فى أحد هذين اليومين ؟

وحينما سقطت القسطنطينية فى يد الأتراك أصبحت الكنيسة الروسيّة وارثةً لـكنيسة الإمبراطورية على مقياس واسع : لقد منحها البطارقة الشرقيون استقلالها ، وأصـبح من حق الهيئة الـكنسية الروسيَّه أن تنتخب مطرانها ، الذى أصبح أعلى مركزاً من أى مطران غيره ، وكانت مرتبته تأتى بعد البطارقة مباشرة ،

بل اعتُرِف به بطريقاً عند نهاية القرن السادس عشر .

وبالقياس على هذا نستطيع القول بأن حاكم روسيا وريثُ الأباطرة البيزنطيين . وقد أوضح لنا عالم روسى مؤخراً أن حفل تتويج أمراء موسكو كان يجرى على منوال حفل تتويج «القيصر» البيزنطى ، وكان القيصر عند البيزنطيين هو خليفة الإمبراطور المتربع على العرش . ولقد ألغى بطرس الكبير البطريركية الروسيَّة ووضع مكانها المجمع الدينى المقدس سنة ١٧٢٣ ؛ ولم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك إلا اعتماداً على وجهة نظر روما الشرقية فيما يتصل بعلاقة الكنيسة بالدولة . ولم يكن مثل هذا ليحدث فى الغرب ، لأن الإمبراطور كان يستطيع أن يؤيد أحد بابوين متنافسين لكنه لم يكن يحلم بإلغاء البابوية . ولم يكن أهل الغرب ليتصوّروا كنيسة بلا بابا . ومن ثم يَعتبر أهل العالم الصقلبى اليوم التاريخَ البيزنطى تاريخاً حديثاً ، لأن الصرب وبلغاريا حينما بلغتا أَوجهما كانتا تدينان بكل شىء عندهما لروما الشرقية ، ولا يمكن أن يفهم تاريخ روسيا فهماً صحيحاً إلا عن طريق تعرف أحوال تلك الإمبراطورية البيزنطية التى أورثتها ميراثاً عظيماً كهذا .

خاتمـــة

بقى أن نجيب على سؤال واحد : ما هو الطابع الأساسى لهذه الحضارة البيزنطية ؟ ذلك سؤال احتدم حوله الجدل . فطالما قيل إن دولة روما الشرقية كانت « إمبراطورية شرقية على وجه التحديد » . ولقد قررنا صراحة خلال هذه الدراسة الإجمالية أن روما الشرقية تشرّبت عناصر شرقية كثيرة ، سواء أكان ذلك فى الفن أم في القانون الجنائى ، وحتى فى نظريتها عن الحكم . إلا أن كاتب هـذه السطور يعتقد أن الشرق لم يكن هو الذى أكسب الحضارة البيزنطية طابعها الأساسى : إذ يرجح أن ذلك الطابع تولد عن امتزاج عنصرين موروثين — العنصر الهلينستى الذى اتسمت به مدن شرقى البحر الأبيض المتوسط الإغريقية ، والعنصر الرومانى الذى تلقته روما الجديدة من الإمبراطورية الأولى . وقد كان امتزاج هذين العنصرين الموروثين تاما إلى حد لا نستطيع معه تمييز عناصر أحدهما عن عناصر الآخر . على أنه يمكننا أن نقول بوجه عام إن روما الشرقية كانت يونانية فى اللغة والأدب وعلم اللاهوت والديانة ، و إن إحساسها بذلك كان

تاماً واعياً . أما فيما يتصل بقانونها وتقاليدها العسكرية وديبلوماسيتها وسياستها المالية وتمسكها الدائم بسيادة الدولة ، فقد كانت رومانية .

وليس هذا مجالا لبحث المسألة بالتفصيل . ولا يتسع المقام أمامنا إلا لتقرير المبادئ الأساسية ؛ وفصول هذا الكتاب المتفرقة كفيلة بتبيان وجهة نظر كاتبها . ويمكن إيجاز وجهة نظره فيما يلى :

إذا أردنا أن نفهم الإمبراطورية البيزنطية فهماً حياً ، فلا مندوحة لنا عن أن ندرك أن حضارة تلك الإمبراطورية لم تكن خلال تطورها إلا استمراراً لماض إغريقى ورومانى معاً . وأيا كانت العناصر التى ورثها غرب أوروبا عن الإمبراطورية فإنها لا تكوّن فى مجموعها ما يمكّننا من القول بأنه كان هناك استمرار حضارى . وهذا على الرغم مما ذهب إليه دوبش *Dopsch* أخيراً من أن تلك العناصر كانت أكثر عدداً وأهم شأناً مما جرى عليه المؤرخون فى اعتقادهم . فهناك فترة انقطاع فى مجرى تطور غرب أوروبا ، ولسنا نجد ما يقابلها فى الإمبراطورية الشرقية . ولسنا بحاجة هنا إلى أن نؤكد موضوع استمرار التقليد الهلينستى فى الفكر واللغة والأدب فى العالم البيزنطى ، فذلك فى غير حاجة إلى بيان .

أما ما كان من احتفاظ الإمبراطورية البيزنطية بالفكرة الرومانية عن سيادة الدولة ، فلا بأس من توضيحه هنا توضيحاً مجملا . وهذا يمكننا من أن نضم أطراف ما أصبح مألوفا لدينا الآن من مظاهر الحياة فى روما الشرقية بعضها إلى بعض ، ويعيننا على أن نربط بينها .

إن أهمية بقاء الفكرة الرومانية عن سيادة الدولة وعن الحكومة المركزية لا تقتصر فى الواقع على إعطاء التاريخ البيزنطى وحدته ، بل تقرر أيضاً تطور حضارة روما الشرقية كله . وفى هذه الناحية يتجلى لنا الفارق الأساسى بين تطور روما الشرقية وتطور غرب أوروبا . فإننا نجد فى الشرق حكومة واحدة تجمع فى قبضتها كل السلطات ؛ بينما نجد فى غرب أوروبا فى العصور الوسيطة مزيجاً من الدويلات ، حتى لقد قيل : « إن عالم الدول الصغيرة هو العصور الوسطى[1] » . وكانت السلطتان الإدارية والقضائية فى هذه الدول الصغيرة لا مركزيتين . إذ كان فيها عدد لا يحصى من المحاكم المحلية والهيئات الإدارية التى كانت تبذل أقصى وسعها لإبعاد القوى الملكية ورجال الملوك . وكان

(١) ذكر المؤلف هذه العبارة بنصها الألمانى وهو *Kleinstaaterei ist Mittelalter* وترجمته الحرفية هى « إن تدويل الدويلات الصغيرة هو العصر الوسيط » .

على المشرع الأوسطيني[١] فى الغرب أن يضع أكداساً من القوانين المختلفة بعضها فوق بعض — حتى أصبحت وكأنها جبل بليون *Pelion* فوق جبل أُسّا *Ossa*[٢] — قبل أن يتمكن من بناء مثل تلك السيادة التى كانت نفسه المنظمة تتلهف عليها .

إن روما الشرقية إنما كانت الجنة التى تاقت إليها نفس المشرع الأوسطيني الغربى . فقد قلدت بيزنطة إمبراطورَها ، وهو الرمز القديم الدينى للسيادة ، السلطانَ الأعلى بكامله ؛ وكان ذلك السلطان المطلق (*imperium*) بمثابة العمود الفقرى فى التاريخ الرومانى الدستورى ؛ إذ أن هذه الفكرة ذاتها هى التى كانت تربط ما بين الملك الرومانى فى العهد الأول والقنصل الجمهورى ؛ وكذلك كانت

---

(١) نسبة إلى *John Austin* المشرع الإنجليزى الذى عاش بين سنتى ١٧٩٠ و ١٨٥٩ ، وأهم مؤلفاته الكتاب المسمى *Province of Jurisprudence Determined(1832)* ، وله محاضرات أخرى فى القانون نشرت فى سنة ١٨٦٣ . وله فى التشريع نظريات تعادل فى الأهمية نظريات معاصريه *Jeremy Bentham* و *John Stewart Mill* أهمها تلك التى يشير إليها المؤلف هنا والتى ذهب فيها إلى أن الحكم الملكى المركزى نظام طبيعى .

(٢) *Pelion* و *Ossa* : جبلان فى تساليا من بلاد اليونان مشهوران فى الأساطير الإغريقية القديمة . ويريد المؤلف بعبارته تلك أن يقول إن مشرعى الغرب كان عليهم أن يجهدوا أنفسهم فى الدراسة والتأليف لكى يقنعوا الناس بصلاحية الحكم المركزى وضرورته ، حتى أصبحت مؤلفاتهم وكأنها جبال بعضها فوق بعض .

هى التى تربط القنصلَ الجمهورى بحكم أغسطس الفردى ؛ وأخيراً هى التى كانت تربط بين سلطان أغسطس و بين سلطان الحاكم الأوتوقراطى البيزنطى المؤيد من عند الله .

كان قنسطنطين ، كما رأينا ، أول إمبراطور مسيحى . وكان فى نفس الوقت الحاكم الذى أعاد تثبيتَ سيادة الدولة الرومانية . وأصبحت تلك السيادةُ محورَ الحياة السياسية فى روما الجديدة . وكانت كنيسة الإمبراطورية البيزنطية أعجزَ من أن تحطم تلك السيادة ، ولم يسعها إلا احتمال ما ترتب على ذلك الأمر الواقع . وأمّنتْ مكانتها بأن أثبتت بالفعل أن الحكومة المدنية لا تستطيع أن تستغنى عن مناصرة الكنيسة لها . إلا أنها بقبولها ذاك الوضع اضطرت إلى تقييد حريتها فى أعمالها ، إذ كان صاحب السلطان المطلق — آخر الأمر — قادراً على عزل أى بطريق مشاكس . وفشل كيرولاريوس عندما حاول أن يخلق بابوية رومانية شرقية . وظل البطريق بمثابة « وزير الدين » . أما فى الغرب فلم تعمّرْ سيادةُ الدولة المركزية بعد غزوات البرابرة . ولما لم يكن هناك مثل ذلك التقليد البيزنطى عن سيادة الدولة كقوة جوهرية ، فقد استطاعت الكنيسة أن تطالب لنفسها بالاستقلال ، وأن تسعى

لتأييد حقها فيه . ولا يوجد أمثال إنوسنت الثالث وجريجورى السابع فى تاريخ روما الشرقية .

وعندما تدهور النظام المالى فى الإمبراطورية ، لم يكن فى مقدور أى ملك متبربر أن يعيد بناء ذلك النظام المعقد الذى كانت تجرى عليه الإدارة الرومانية . فتحول الغرب مضطراً إلى الاقتصاد القائم على الأرض . أما روما الشرقية فقد احتفظت باقتصادها القائم على النقد ، واحتفظت لنفسها بحق فرض الضرائب على رعاياها كما تريد ، لأن احتفاظ الدولة بهذا الحق إنما هو ناحية وجزء من ذلك الاقتصاد القائم على النقد . ورفضت أن تقبل الخدمات القائمة على التعهدات المحددة التى كانت شائعة فى الإقطاع الغربى بدلا من حقها المطلق هذا . ولم يحدث أن احتج واحد من أهل بيزنطة وطالب الحاكم بأن « يعيش على موارده الخاصة » . وكان يتوقف على حصيلة هذه الضرائب قيامُ الجيش والدبلوماسيةُ والإدارةُ المدنية فى الإمبراطورية الشرقية ؛ ولم يكن الإمبراطور يحصل على هذه الموارد الرئيسية للعرش عن طريق رحمة الشعب به ، بل كان الاستيلاء عليها حقّه المشروع .

وكان نظام الإمبراطورية القانونى الموحد — الذى صدر عن مصدر كل سلطان وهو الإمبراطور — بعضَ تراثها عن

سيادة الدولة ، وكان كرُّ القرون يخلع عليـه قدسيةً ومهابة . وكما كانت الـكنيسة عاجزة عن تقويض سلطان الدولة ، فقد كانت كذلك أعجز من أن تحدث تعديلا فى قانونها ؛ ويرجح أنها على ما يظهر لم تفكر فى ذلك مطلقاً بصورة جدية . فهى لم تحاول أبداً أن تعيد النظر فى ذلك المجموع من القوانين الذى نشأت جذوره وترعرع فى جو وثنى صرف لا ينُكر روح الأنانية الوثنية . ولم تفكر هذه الـكنيسة فى تطبيق مبادئ المسيحية الأساسية على هذا القانون تطبيقاً يغير روحَه تغييراً تاماً .

ولم توفق هذه الـكنيسة إلى ما وفق إليه المسلمون [من صياغة قوانينهم صياغة جديدة مبنية على أساس عقيدتهم الدينية وحدها] بل تركت حكامَها اللاإيقونيين الهراطقة يقومون بمهمة وضع قوانينها الجديدة ، ثم أنكرت هذه القوانين إنكاراً تاماً ، ورجعت فى عزيمة إلى القانون الرومانى . أما فى الغرب فكان كل قانون يزول بزوال الدولة التى أنشأته : فكان القانون فى انجلترا خلال العصور الوسيطة قانوناً محلياً قائماً على العرف وتقاليد الشعب . ولم يوفق السلطان إلى فرض فكرة القانون الموحد على الناس إلا بعد جهاد عنيف . ولما لم يكن هناك قانون مدنى موحد موروث عن دولة وثنية ، فقد كان من الميسور قيام « قانون

مسيحى » يقول بأن الشهادةَ الإنسانيةَ ليست ضرورية لإثبات أى جناية ، لأن هذه الشهادة إنما هى دليل ضعيف لا مندوحة عن الاستعاضة عنه بحكم الله ، و يقول كذلك بأن تعذيب المتهم لاستخراج الحقيقة منه أفضل من شهادة الناس .

كان انتصار الدولة انتصاراً لفكرة السلطة المركزية . وكان السلطان كله مركزاً داخل أسوار القسطنطينية . فقد يمتلك النبلاء مقاطعات واسعة فى الولايات ، ولكنهم لم يكونوا لينفقوا ثرواتهم إلا فى العاصمة . ونلاحظ أن الإمبراطورية الشرقية لم تشجع نظام النبلاء الإقطاعيين المحليين الذى كان يسود الغرب لأنها تمسكت بفكرة الدولة المركزية . ولم يستطع النبلاء الإقطاعيون فى الإمبراطورية البيزنطية أن يقاوموا جاذبية الحياة فى العاصمة ، فكانوا يجمعون أموال ممتلكاتهم فى الولايات ليشتروا بها الأسبقية فى البلاط . وكان هدفهم الدائم — على هذا — هو أن يَنْظِموا أنفسهم فى سلك طبقة من نبلاء الوظائف . وكانوا يشعرون أن مكانهم الطبيعى إنما هو القسطنطينية ؛ ومن هنا كان من الطبيعى ألا يعارض النبلاء الإقطاعيون السلطان المركزى فى روما الشرقية كطبقة موحدة ، لأن كل نبيل قوي كان يهدف إلى الحصول لنفسه على أوسع الوظائف سلطاناً ، وهى

أن يصبح إمبراطوراً فى مدينة قنسطنطين . ولما كان هذا هو المغناطيس الأكبر ، فقد يكون النبلاء فى بعض الأحيان متضامنين ، ولكنهم كانوا فى قلوبهم متنافسين . وكان الإمبراطور يستطيع أن يهزم أى ثائر بتأليب بارون منافس عليه .

ولقد استولى السلاجقة على آسيا الصغرى لأن القواد العسكريين العظام كانوا متجهين بأبصارهم صوب هدف واحد وهو القسطنطينية : لأن من كان يوفق إلى السيادة فى القسطنطينية كان يستطيع التحكم فى مصائر الرجال ، إذ أنه كان سيّدَ الإدارة والمتحكم فى المال الذى كان يتدفق من جميع الولايات على مركز الإمبراطورية . وكان التقليد الذى يقضى بسيادة الدولة وسيادة الهيئة الحاكمة التى تدعمها هو الذى صاغ أشكالَ الحياة فى الإمبراطورية . وكانت روما الشرقية مثل روما الغربية شديدة المراعاة لمذهبها الدينى فى تحديد موقفها من الأجانب الذين ينزلون بلادها : فإذا قَبِلَ الأجنبى عقيدةَ الإمبراطورية الدينية كان حقيقاً بأن يجد لنفسه مكاناً فى خدمتها سواء أكان فارسياً أم أرمنياً ، صقلبياً أم بلغارياً ، روسياً أم بريطانياً . وكانت الإمبراطورية تستمِدُّ الرجالَ ذوى الكفايات اللازمة لها من أصول كثيرة . ولكن هؤلاء الأجانب والمجازفين كانوا يأتون

فرادى ، وكانوا دائماً يدخلون فى فرع من فروع خدمتها [فيندمجون فى التيار العام] . نعم ، إنهم كانوا يُمِدُّون العمل الذى يدخلون فيه بقوة جديدة ، ولكن نظام الدولة كله كان عتيقاً إلى حد لا يصدق ، ولهذا كان أقوى من أولئك الرجال فلم يغيروا شكله ، بل كانوا أعجزَ من أن يفعلوا ذلك . وعلى هذا فقد بقى هيكل الحياة البيزنطية على ما هو عليه فى أساسه ، وكان كل انتعاش فى الدولة الرومانية الشرقية ينتهى بأن يُصبح قوة جديدة تؤيد التقاليد القديمة الراسخة . وذلك هو ما يوهم المتأمِّلَ السطحى لتاريخ الإمبراطورية بأن تاريخها كان يرزح تحت عبء فادح من التزمت الذى لا يتغير . فإذا تعمق المتأمل فى هذا التاريخ لم يلبث ذلك الشعور أن يزايل نفسه . بيد أننا ينبغى أن نقرر أنه من الصحيح أن الحياة البيزنطية كانت تميل دائماً إلى أن تعبر عن نفسها فى صور تقليدية ، بالرغم من أن أى قرن فى تاريخ الإمبراطورية لا يكاد يشبه غيره . وقبل أن يغزو الصليبيون القسطنطينية سنة ١٢٠٤م لم يشهد العالم الرومانى الشرقى أى تغيير شامل جوهرى فى نظام حياته . فلم يحدث أن أدخل أى فاتح إلى الإمبراطورية ثقافةً أخرى وأساليب جديدة للحكم كما فعل النورمانديون عندما غزوا انجلترا فى العصور الوسيطة . ولم يحدث

إلا فى ظل اللاتين أن قامت إمارات اقطاعية كثيرة على أنقاض تلك الدولة الموحدة التى ظلت إلى آخر لحظة متشبثة بتراث العالم القديم . وكان هذا نتيجة محتومة لانتصار غرب أوروبا . وهكذا نعود إلى حيث بدأنا [وننتهى إلى تلك الفكرة التى قرناها بين يدي بحثنا هذا] وهى أن الإنسان لا يستطيع أن يفهم روما الشرقية فهما حياً إلا إذا وضع نصب عينيه أن حضارتها كانت متصلة اتصالا مستمراً بماضيها اليونانى والرومانى .

* * *

أ

إنما كانت الإمبراطورية البيزنطية مزيجاً من التراث الهلينستى والتراث الرومانى .

ملحـــق ١

عرض عام لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية

وهو ترجمة للفصلين الأولين من كتاب

CHARLES DIEHL, *Byzance, Grandeur et Décadence* (Paris 1919).

وهما : *La formation de l'empire oriental.*

تكوين الامبراطورية الشرقية

و

De l'apogée de l'empire à sa chute (867 — 1453)

من أوج الدولة الى سقوطها (٨٦٧ — ١٤٥٣)

الفصل الأول

تكوين الإمبراطورية الشرقية

من تأسيس القسطنطينية إلى نهاية القرن التاسع

(٣٣٠ — ٨٦٧)

— ١ —

تكوين الإمبراطورية الشرقية (٣٣٠ — ٥٦٥) — الإمبراطورية منذ تأسيس القسطنطينية الى أول القرن السادس (٣٣٠ — ٥١٨)

بدأ تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فى ذلك اليوم الذى اختط فيه قنسطنطين القسطنطينية ، وجعلها العاصمة الثانية للإمبراطورية الرومانية ، وهو الحادى عشر من مايو سنة ٣٣٠ م . وكانت القسطنطينية ، بطبيعة موقعها الجغرافى فى ذلك الموضع الذى تلتقى فيه آسيا بأوروبا ، مركزاً طبيعيا يمكن أن يلتف حوله

العالمُ الشرقى . وكانت هذه العاصمةُ الناشئة ، أو « روما الجديدة » ، كما كانت تسمى ، تختلف اختلافاً بيِّناً عن العاصمة القديمة ، وكانت تجمع فى شخصها الآمالَ الجديدة والطوابعَ الجديدة للعالم الشرقى ، وذلك بفضل هذا اللون الهلينى الذى كان يغلب عليها ، و بفضل الشخصية الجديدة التى خلعتها عليها المسيحيَّة . ومن ثم ، وعلى الرغم من أن الإمبراطورية الرومانية استمرت قائمة فى الوجود قرناً ونصفاً بعد إنشاء القسطنطينيّة — إذ لم تغرب شمسُها إلا فى سنة ٤٧٦ — وعلى الرغم كذلك من أنه حتى نهاية القرن السادس ظل التقليد الرومانى حيًّا قويًّا حتى فى نواحى الشرق ، على الرغم من ذلك كله أخذت أطرافُ الجزء الشرقى من الدولة تتجمع حول مدينة قنسطنطين ، وانتهى الأمر بأن دب فى هذا الجزء الشرقى وعىٌ بشخصيته المستقلة . نعم لقد حدث ابتداء من القرن الرابع أن انفصل شطرا الدولة أحدُهما عن الآخر — على الرغم من الوحدة النظرية — وحكم كلاًّ منهما إمبراطور خاص ، ولكن عندما توفى الإمبراطورُ ثيودوسيوس الكبير سنة ٣٩٥ ، مخلِّفاً لولديه أركاديوس وهنوريوس تراثاً ضخما مشطوراً إلى إمبراطوريتين ، تأكد ذلك الانقسام الذى كان يعمل منذ زمن طويل على فصل الشرق

عن الغرب ، وأصبح أمراً واقعاً نهائيا .

وفى خلال الفترة التاريخية الطويلة التى تمتد من سنة ٣٣٠ إلى ٥١٨ مرت الدولة بأزمتين خطيرتين زعزعتا كيانها ، ولكنهما تمخضتا عن إعطاء جزئها الشرقى وجهه الصحيح . فأما الأولى فأزمة الغزوات المتبربرة : وقد حسب الناس أول الأمر أن بيزنطة لن تستطيع مقاومةَ هـذه الغزوات إلا بمثل ما قاومتها به روما ، وأنها لن تصمد أمام الصدمة المروّعة التى حلت بها خلال القرن الخامس على يد قوطِ ألرك الغربيين ، وهونِ أتلا ، وقوطِ ثيودوريك الشرقيين على التوالى . ولكن الذى حدث هو أنه فى حين كان زعماء القبائل المتبربرة يقتطعون لأنفسهم من حطام الدولة الغربية ممالكَ ، وفى حين اختفى آخرُ الأباطرة الغربيين فى سنة ٤٧٦ ، كانت غزوات المتبربرين تمر بحذاء حدود الدولة الشرقية دون أن تجتاحها إلا اجتياحاً عابراً : وكانت النتيجةُ أن روما الجديدةَ ظلت قائمة وكأنما ازدادت رقعتُها سعةً بسبب هذه الكارثة التى هوت روما القديمة تحت ثقلها . ومن هنا ازداد اتجاهها نحو الشرق .

وأما الأزمة الثانية فهى الأزمة الدينية ، فقد ولدت فى الشرق كل الهرطقات الكبيرة التى زعزعت كيانَ الكنيسة خلال

القرنين الرابع والخامس وهى : الأريوسية والنسطورية والمونوفيزية .
ولم تكن هذه المذاهب إلا مساجلات معقدة وقفت فيها الروح الإغريقية الحافلةُ بالدهاء الميتافيزيقى الثيولوجى وجها لوجه فى تباين ظاهر أمام العبقرية الصافية الرزينة التى امتاز بها العالم اللاتينى ، واحتدم فى أثنائها صراع عنيف بين أسقفية الشرق المرنة الخاضعة لإرادة السيد الحاكم و بين رؤساء الكنيسة الرومانية وما امتازوا به من ترفع يشو به العناد ، وحزم يزيده الطموحُ ثباتا . وفى خلال الثلث الثانى من القرن الخامس أدى هذا الشقاقُ الدينى إلى فصل روما عن بيزنطة للمرة الأولى . وكلما مرت الأعوام بعد ذلك تجلت حقيقةُ إمكان قيامِ دولة شرقية خالصة تعيش مستقلةً بنفسها ، وأخذت تبدو على هذا القسم الشرقى بعض السمات المميزة لما ستكون عليه الإمبراطورية البيزنطية ، وأظهرها الحكومة الاستبداديةُ المطلقة على طراز الحكومات الشرقية ، والإدارة الشديدة المركزية ، والكنيسة ذات اللغة اليونانية — تلك اللغة التى ستجعلها هيئة مستقلة — والتى تعتمد — أى الكنيسة — اعتماداً شديداً على الدولة التى تهيمن عليها . وحينما اكتملت لهذا القسم الشرقى هذه الصفات المميزة بلغ هذا التطور ، الذى ألقى بالدولة البيزنطية فى أحضان الشرق ، نهايتَه .

حكم جستنيان (٥١٨ — ٥٦٥) — وفى خلال القرن السادس توقف سيرُ هذا التطور الذى كان يبدو فى ذلك الحين وكأنه طبيعى لا مندوحة عنه ؛ ذلك أن الإمبراطور جستنيان (٥١٨ — ٥٦٥) الذى تطغى شخصيته القوية على تلك الفترة كلها ، أراد أن يكون إمبراطوراً رومانياً ، وكان فى الواقع آخر الأباطرة الرومان العظام . ولقد حمل هـذا الريفى الذى ولد فى مقدونيا لواء فكرتين عظيمتين : الأولى فكرة الإمبراطورية ، والثانية الفكرة المسيحية ، فكان حملُه لهذا اللواء سبباً فى بروز اسمه فى صفحات التاريخ : كان يرى نفسه وارث القياصرة ، وكان وجدانه يصخب بأصداء العظمة الرومانية . وكان ذلك يزدهيه ويملأ نفسه بالطموح البعيد . كان يحلم بإعادة الوحدة الرومانية ، وكان يصر على استعادة الحقوق الواسعة التى كان ينبغى أن تكون لروما على ممالك المتبربرين فى الغرب ، وكان يشعر أن بيزنطة هى وارثةُ تلك الحقوق ، ومن ثم اندفع فى غزو إفريقية و إيطاليا وقورسيقة وسردينية والجزائر الشرقية (البليار) وجزء من إسبانيا ، واضطرّ ملوكَ الفرنجة ، أصحاب غالة ، إلى قبول سيادته . وكان يشعر أيضاً أن حكمه إنما هو استمرار لحكومة أباطرة روما العظام . فكان لهذا يرى نفسه — مثلهم — رمزَ

القانون الحى والصورة الكاملة للسلطان المطلق ، ومن هنا أيضاً اعتبر نفسه المشرِّعَ الذى لا يخطئ ، والمصلحَ الحريصَ على نظام الدولة . ثم أراد بعد ذلك كله أن يزين العظمة الإمبراطورية بكل ألوان الفخامة ، فكانت كنيسةُ سنتا صوفيا (آيا صوفيا) — التى شيدها وأفرغ عليها رواءً رائعاً — أثراً لا يضارَع رمى من ورائه إلى تخليد عصره واسمه .

ولا زالت كنيسة القديس ڤيتالى فى راڤنا بفسيفسائها البراقة ، التى تتلألأ فى حنيّتها المنعزلة ، تصور على هيئة تأخذ بالألباب الفخامةَ الرائعةَ التى كان سادةُ « القصر المقدس » فى بيزنطة يحيطون أنفسَهم بهما .

بل استرسل جستنيانُ مع الأحلام إلى أبعد من ذلك : كان يرى نفسَه ممثلا لله على الأرض ، ولهذا جعل نفسَه حامى الأرثوذكسية فى العالَمين ، وتكلف مشقةَ نشر الديانة الحقة فى نواحى الكون . ولكن عظمةَ هذا الطموح البعيد ربما كانت ظاهريّة أكثر منها حقيقية . وربما كانت ثيودورا — تلك الطارئة التى أصبحت إمبراطورة — أصدقَ نظراً من زوجها صاحب التاج . فبينما أسرف جستنيان فى الاسترسال مع أحلام الطموح الواسع المبهم المعالم ، وقَصَرَ اهتمامه على الولايات الغربية ، وتمادى فى خداع

نفسه بإمكان إقامة الدولة الرومانية مؤيَّدَةً بقوة البابوية تأييداً متيناً ، بينما كان جستنيان مسترسلا فى تلك الأحلام كانت ثيودورا توجه نظرَها والتفاتَها نحو الشرق مدفوعةً إلى ذلك بإحساس واضح دقيق للحقائق السياسية الواقعة . كانت ترمى إلى القضاء على المنازعات الخطرة على كيان الدولة ، وكانت تريد أن تستعيد إلى حظيرتها الأمم التى روّعَ أمْنَها روحُ المخالفة والعصيان . وكانت ثيودورا لاتتردد فى التنازل عن الكثير لهذه الأمم طمعاً فى كسب ودّها ، بل ذهبت فى استرضائها إلى حد إغضاب روما ومخاصمتها على أمل إعادة وحدة الدولة الشرقية قويةً متينة . وإن الإنسانَ ليتساءل عما إذا كانت الإمبراطورية المتماسكة المتجانسة ، التى كانت ثيودورا تسعى إلى تحقيقها ، أقوى وأقدرَ على مقاومة الفُرْس والعرب من الإمبراطورية التى أقامها جستنيانُ بعد العناء ، بل إننا لنستطيع أن نقول إن حكم جستنيان ، الذى أوقف التطوّرَ الطبيعى للإمبراطورية الشرقية ، قد أنهكها واستنفدَ قواها فى تحقيق آمال مسرفة فى الخيال ، وأنزل بها من الضرر أكثر مما أتاها به من الخير على الرغم من الرواء الذى أفرغه عليها . إن ذلك الشرق الذى أهمله جستنيان إهمالا شديداً لن يلبث أن يثأر لنفسه على أروع ما تكون صور الثأر والانتقام .

— ٢ —

تحول الدولة البيزنطية إلى دولة شرقية — نظام هذه الدولة : بيد أن الدولة رغم هذه الدوافع التى كانت تدفعها نحو الشرق ظلت إلى ذلك الحين تبدو مُواصِلةً لتاريخ روما . فبقيت اللغة اللاتينية لغتها الرسمية ، رغم ما كان فى ذلك من غرابة ؛ وأقامت التقاليد الرومانية فيها قويةً مرعية ؛ وظلت الإدارة تحتفظ بأسماء الوظائف ودرجاتها التى قررها لها القياصرة . ومن أوائل القرن السابع إلى منتصف القرن التاسع أسرعت الدولة فى تحوّلها إلى دولة شرقية ، بل تم ذلك التحوّل .

تحول الإمبراطورية إلى دولة شرقية خلال القرن السابع (٦١٠—٧١٧) : كلف طموح جستنيان الدولةَ ثمناً غالياً ، ثم إنه لم يكد ينتقل إلى الدار الأخرى حتى أخذت ثمرات جهوده تُصفَّى تصفيــة مخرّبة ، فأعلنت الدولةُ فى الداخل إفلاسَها ماليًّا وحربيا ، وعاد الخطرُ الفارسى يجثم على صدرها بصورة مخيفة . وما هو إلا قليل حتى انثال على الدولة طوفان الغزو العربى . ولم تكذّبْ المنازعاتُ الدينية أن أقبلت مسرعةً تزيد الفوضى سوءًا على سوء . فهذا القرن السابع (٦١٠—٧١٧) يعــدّ من أسوَد

عصور الدولة ، عصر أزمة قاسية وفترة حاسمة بدا مصير الدولة خلاله وكأنه فى كفة القدر .

وليس إلى الشك سبيل فى أننا نصادف خلال هذا القرن شخصياتٍ عظيمة جديرة بالاهتمام ، فقد استطاع هرقل (٦١٠ — ٦٤١) أن يوقف تيار الفرس المنتصرين ويزيحهم خارجَ حدود بلاده . وسار على رأس جنوده الذين أثار نخوتَهم بحماسته ، وتوغل مظفّراً فى قلب آسيا ، وانتصر على الفرس عند نينوى بل عند أبواب كتزيفون (*Ctesiphon* = المدائن) وثأر للمسيحية ، وغسل الإهانات التى ألحقها بها الفرس ، وسجل اسمه على رأس قائمة الصليبيين . وكانت سياستُه الدينية مكملة لجهوده الحربية ، إذ كان جهده منصرفاً إلى إعادة الوحدة المعنوية إلى المملكية التى أعاد بناءها ماديا . ولكن الدولةَ بدأت تتفكك فعلا قبل موته : فتحَ العرب الشام ومصر والمغرب وأرمينية ، وغزا الأنكبرديون (اللمباردُ) أكثرَ من نصف إيطاليا . واقتصرت أراضى الدولة على آسيا الصغرى وشبه جزيرة البلقان واكزركية رافنا . وكانت هذه المساحة الضيقة مهددةً من كل ناحية بغارات اللمبارد والصقالبة والعرب والبلغار . ولقد ظلت الدولة إلى مطالع ذلك العصر إمبراطوريةً ذاتَ طابع عالمى . أما خلاله فقد

أصبحت إمبراطورية بيزنطية خالصة تتركز قواها كلها حول القسطنطينية .

وكانت نتيجة ذلك كله أن عانت الدولة تغيراً عميقا شاملا : فتغيرت الأجناس التي كانت تسكن أراضيها وتخضع لها . فقد استقر الصقالبة في البلقان ، ونزل الصربيون والكرواتيون في الشمال الغربي ، والبلغارُ في الجنوب الشرقي . وتغير نظامُها الإداري فوُضعت السلطات كلها في يد القادة الحربيين ، وذلك تيسيراً لأمر الدفاع ، وبدأت ترتسم الخطوط الرئيسية لنظام الإدارة الحربية في ولايات الحدود التي أصبح كل منها يسمى *thema* (= ولاية يحكمها قائد عسكري) وسيدوم هـذا النظام ما بقيت الدولة . وتغيرت الإمبراطورية كذلك تغيراً اجتماعيا على وجه الخصوص ، فأخذ العنصر الهليني يرقى إلى مقام الصدارة في الدولة يوماً بعد يوم ، واختفت اللغة اللاتينية أمام اليونانية ، وأخذ الأدب يستلهم أفكاره ونماذجه من الأساليب الجديدة ، وكذلك اصطبغت العادات ، التي كان الناس يتبعونها في حياتهم ، بصبغة يونانيـة . وفي نفس الوقت أخذ سلطان المسيحية يسود كل شيء يوما بعد يوم وذلك بسبب الدور الذي كانت الكنيسة تلعبه في الشؤون السياسية ، و بسبب

انتشار الديرية فى بلاد الدولة انتشاراً واسعاً . وتغيرت بيزنطة — آخر الأمر — تغيراً سياسيا ، ذلك أن المنافسة مع روما ازدادت مع الزمن حدةً بسبب الخلافات المستمرة ، وتمهَّد السبيل للقطيعة التى ستقع وتفصل بين الغرب و بيزنطة فصلا تاما . وكانت نتيجة ذلك أن أخذ اهتمام حكام بيزنطة يتركز فى الشرق وحده . وليس إلى الشك سبيل فى أن ذلك التحول ، الذى جدد الإمبراطورية تجديداً شاملا ، لم يكن خيراً خالصا فى كل حالة أو من كل وجه . ذلك أن انتشار الخرافات بين أهل الدولة صاحبه توحُّشُ أخلاق أهلها ، وتوالت الثورات العسكرية ، ونتج عن ذلك هبوط معنوى متزايد ، وأخـذ الولاء للدولة والإخلاص لها يقلان . ولـكننا ينبغى أن نلاحظ حقيقة هامة ظهرت وتجلت بشكل واضح فى نهاية تلك المدة المضطربة التى سادها التغير والحركات العنيفة ؛ وهى حقيقة لم يُحُلْ دون ظهورها ذلك الانهيارُ المتصل الذى كانت تعانيه الدولة بسبب ماحاق بها من الضعف فى الخارج ومن التهديد المستمر لحدودها فى كل ناحية ، و بسبب الاضطراب الداخلى الذى نشأ عن فوضى شملت الدولة كلها خلال عشرين سنة متوالية (٦٩٥—٧١٧) . تلك الحقيقة هى أننا نشهد بعد ذلك البـلاء كلِّه إمبراطوريةً بيزنطية أشد

تماسكا مما كانت عليه قبلا رغم انكماش حجمها . وقد تخصلت من حمل ولاياتها الغربيـة الثقيل ونجت تبعاً لذلك من خطر حركات الانفصال الشرقية ، وأصبحت إمبراطورية يسهل تنظيم أمورها تنظيما كاملا ويسهل تمهيد سبل الحياة أمامها إذا وفقها الله إلى حكام قادرين يتولون أمورها .

أعمال الأسرة الإيسورية (٧١٧ — ٨٦٧) —

وقد وفقها الله إلى هؤلاء الحكام فى أشخاص الأباطرة الإيسوريين (٧١٧ — ٨٦٧)[1] وهم الأباطرة الأمجـاد الذين أعادوا تنظيم الدولة تنظيما نهائيا بمهارة الصانع الماهر .

ولقـد تعوّد الناس أن يشتدوا فى الحـكم على الأباطرة اللايقونيين وأساءوا تقديرهم فى أحيان كثيرة ، إذ أنهم يذكرون لهم قبل كل شىء سياستهم الدينية التى لا يفهم الناس أهدافهم من ورائها ولا أهميتها إلا فهماً ناقصاً ، وهم ينسون الحـالة التى وجَد أولئك الأباطرةُ الدولةَ عليهـا ، ولا يعرفون ذلك الجهد العظيم الذى قاموا به لإعادة تنظيمها تنظيما كاملا . فلقد كان ليو

(١) حكمت الأسرة الإيسورية من ٧١٧ إلى ٨٠٢ ، ولـكن خلفاءها الذين حكموا من ٨٠٢ — ٨٦٧ واصلوا الجهود التى بدأتها وأكملوها . (المؤلف)

الثالث وقنسطنطين السابع إمبراطورَيْن عظيمين ، وكان فيهما عنف واستبداد ، وكانت لهما أهواء جامحة ، وكانت فيهما قسوة ، ولكنهما كانا إلى جانب ذلك كله قائدَيْن عظيمين استطاعا أن يكسرا حدَّة الإسلام[1] و يقضيا على مطامع البلغار . وكانا إداريين ماهرين نهضا بعمل تشريعى و إدارى واجتماعى ضخم ، ولم يملك حتى أعداؤهما أنفسهم من أن يقدروهما حق قدرهما .

وليس هناك شك فى أن سياسة هؤلاء الأباطرة كان لها بعض النتائج السيئة : فقد اضطربت أحوال الدولة فى الداخل بسبب ما أثاروه من نزاع حول الصور ، وتعرضت الدولة كذلك لأخطار خارجية أصابها من ورائها بلاء كبير ، فوقعت القطيعة بينها و بين روما ، وفُقدت إيطاليا ، وأنشأ شارلمان إمبراطوريته سنة ٨٠٠ ، وكانت كل تلك عوامل ساعدت على إتمام عملية

(١) كان توفيقهم [فى حروب المسلمين] حاسماً يختلف فى كثير عن انتصار شارل مارتل عليهم فى بلاط الشهداء . لأن الظروف أعانتهم على ذلك بما حدث فى الدولة الإسلامية من انتقال الدولة إلى العباسيين مما أدى إلى تحول مركز الخلافة من دمشق القريبة من حدود الدولة البيزنطية إلى بغداد البعيدة على الفرات . وكذلك أعانتهم الخلافات التى أشاعت الفوضى فى الإمبراطورية العربية ، وأضعفتها خلال النصف الثانى من القرن الثامن . (المؤلف)

تحوّل الدولة إلى دولة شرقيــة خالصة . ولقد استطاع هؤلاء الأباطرة الإيسوريون الأقوياء أن يشدوا دعائم سلطان الإمبراطور بعــد أن خرجوا منتصرين من الصراع العنيف مع الـكنيسة ، وتمكنوا بعد ذلك من تحرير أنفسهم من سلطانها تحريراً كاملا وثبّتوا سلطانَهم تثبيتاً عظيما وعلى الرغم من الأخطار الخــارجية التى تهددت الدولة خلال القرن التاسع كالخطر البلغارى فى أوائل هذا القرن وغزو العرب لجزيرة كريت (٨٢٦ م) الذى حرم الدولة من كل شعور بالأمان فى شرقى البحر الأبيض المتوسط على الرغم من ذلك كله قامت الدولةَ فى منتصف ذلك القرن التاسع قوية باهرة .

وفى أيام الإمبراطور ثيوفيــل (٨٢٩ — ٨٤١) عظم أمر البلاط البيزنطى حتى نافس بلاط الخلفاء فى بغداد وذلك بفضل الفخامة التى امتاز بها القصرالمقدس ، والنور الذى كانت الحضارة البيزنطية تفيضه على ماحولها . وفى ذلك الحين الذى خرجت فيه الإمبراطورية من فترة طويلة من الاضطراب بدا الأدب والفن البيزنطيان وكأنما قد بَثَّت فيهما الويلاتُ قوة جديدة . ومن ثم بدت طلائع نهضة فنية أدبية واسعة المدى ، وأصبحت جامعةُ القسطنطينية ، التى أعاد إنشاءها قيصرُ بارداس (حوالى ٨٥٠)

من جديد مركزاً لثقافة فكرية جديرة بالإعجاب ؛ وامتد سلطانُ الدولة حتى بلغ العالم الصقلبي الذى حمل إليه القديسان سيريل ومثوديوس ، الملقبان برسولى الصقالبة ، العقيدةَ الأرثوذكسيةَ والأبجديةَ ولغةَ الأدب والكتابة . واستطاع هؤلاء الأباطرةُ منذ سنة ٨٤٢ أن يعيدوا الوحدة الدينيــة فى الإمبراطورية . وأخذت الكنيسةُ اليونانية تكتسب طابعاً وطنيا يوماً بعد يوم . وكان هذا الطابع القومى من أسباب القوة والحدة اللتين اتصفت بهما فتنةُ فوتيوس ، وزادتاها ظهوراً .

وهكذا نجد أنفسنا عند ختام هذه الفترة أمام قومية بيزنطية حقيقية تكوّنت على مهـل أثناء الحوادث الجسيمة التى مرت بالدولة . ووقفت الإمبراطورية ، بعد أن تحوّلت إلى دولة شرقية خالصة ، على أعتاب ذلك الأوج المجيد الذى هيأ لها قرناً ونصفاً من العظمة والرخاء والمجد من أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الحادى عشر .



بعض أباطرة الدولة البيزنطية (انظر أسماءهم ص ٤١٩)



الفصل الثانى

من أوج الدولة إلى سقوطها

(٨٦٧ — ١٤٥٣)

— ١ —

الامبراطورية فى أوجها تحت حكم الأسرة المقدونية (٨٦٧ — ١٠٨١) — ارتفعت الدولة البيزنطية فيما بين سنتى ٨٦٧ و ١٠٢٥ إلى أوج من العظمة لا يُضارع . وفى خلال هذا القرن ونصفه توالت على عرشها سلسلة من الحكام البارزين ، منهم باسيلُ الأول ، مؤسسُ الأسرة ، ونقفور فوقاس و يوحنا تسيمسكيس ، وكان كلاهما غاصبا للعرش ذا حظ من المجد ، وقد قاما بأمر الملك باسم الأمراء الشرعيين ، ثم باسيلُ الثانى الذى امتد حكمه نصفَ قرن كامل من ٩٧٦ — ١٠٢٥ . وكان هؤلاء جميعا حكاما يختلفون اختلافا عظيما عن هذا الطراز الذى يتصور الناسُ الأباطرةَ البيزنطيين عليه عادة : كانت لهم نفوس متحفزة قوية الشكيمة . وكان يغلب عليهم جميعا الميلُ للاستبداد

والعنف ، فكانوا يتصرفون فى كثير من الأحيان دون رحمة ودون اعتبار للحرمة . وكان همُّهم الأول موجها إلى إيقاع الهيبة فى قلوب رعاياهم لا مجرد التحبب إليهم . وكانوا رجالَ سياسة تنزع بهم نفوسُهم دائما إلى ما فيه عظمة الدولة . وكانوا إلى ذلك قادة حربيين مبرزين تقضّت حياتُهم فى ميادين القتال بين جنودهم ، وكانوا يحبون هؤلاء الجنود ، ويرون فيهم مصدرَ قوة الدولة . وكانوا – آخر الأمر – إداريين قادرين يعمر نفوسَهم نشاطٌ لا يهدأ ولا ينثنى . ولم يكن شىء ليستطيع ردَّهم عما يعتزمونه إذا كان فى الوصول إليه تأمين لسلامة الدولة . ولم يكونوا ليعرفوا انفاق الأموال فيما لا يجدى . وكان همُّهم الوحيد هو زيادة الثروة القومية ، فلم يكونوا ليهتموا بفخامة القصور ولألائها ولا بأبهة المواكب والحفلات إلا بالقدر الذى يخدم أغراضَهم السياسيّة ، ويزيد فى جاههم كحكام . وكانوا — وأولئك الذين ذكرتهم على الأقل — حريصين على سلطانهم إلى درجة حالت بينهم وبين المبالغة فى تقريب الندماء : فكان نصحاؤهم فى غالب الأمر رجالاً خاملى الذكر يستخدمونهم ويسيطرون عليهم . وكان النزوع إلى المجد يملك عليهم نفوسَهم ، وكانت قلوبهم تفيض بالطّماح البعيد ، فعوّلوا على أن يجعلوا الدولة البيزنطية أقوى دول

العالم الشرقى . وانعقد عزمهم كذلك على أن يجعلوها رأسَ « الحضارة الهلينية » وأمَّ العقيدة الأرثوذكسية فى وقت واحد ، وتمكنوا من تحقيق أحلامهم تلك بعد معاناة حروب طويلة ، و بفضل سياسة ماهرة مرنة وحكومة قوية محكمة .

ولقد نهضت الدولة منذ أواخر القرن التاسع وأوائل الثلث الأول من القرن العاشر حاملة لواء الحرب تشن الهجوم فى عنف ، فتقهقر العرب أمامهم فى آسيا من نهر هاليس *Halys* إلى الفرات ، واجتاحت الجيوشُ الإمبراطورية كيليكيا والشام وفلسطين موفقة مظفرة ، بل استطاع يوحنا تسيمسكيس أن يتوغل فى بلاد المسلمين حتى أبواب بيت المقدس . أما فى الناحية الأوروبية فقد انهارت الإمبراطورية البلغارية القوية وجرفها تيارُ الدماء التى سالت على ظبى جنود باسيل الثانى بعد أن كان إمبراطوراها سيميون وصمويل قد نهضا بها إلى درجة جعلتها منافساً خطراً للدولة البيزنطية ، وقد بلغ من إسراف باسيل الثانى فى قتال البلغار أن أطلق عليه رعاياه ذلك اللقب الرهيب « سفاح البلغار » "*Bulgaroctone*" وقامت أساطيل الدولة البيزنطية بحراسة أمواه البحار من (قراصنة) المسلمين . وقد بلغ من بُعد همتهم أن استطاعوا أن يمدوا جاههم حتى وصلوا به إلى إيطاليا البعيدة حيث

كانت التقاليدُ الرومانية القديمة لاتزال حيَّة تستثير الهمم ، فجدّد هؤلاء الأباطرةُ البيزنطيون المطامحَ القديمة التى لم يُدركها النسيان أبدا . وقام جاههم الجليل الخالد هناك يناهض سلطان قياصرة الدولة الرومانية المقدسة الجرمانية .

استطاع هؤلاء الأباطرة أن يوسّعوا رقعةَ دولتهم إلى درجة لم تبلغها منذ أيام جستنيان ، فرفرفت ألويتُها على البلاد الواقعة بين الشام والدانوب ومن أرمينية التى ضموها إلى سلطانهم إلى جنوبى إيطاليا الذى استطاعوا فتحه . واستطاعت السياسةُ الماهرة التى جرت عليها الدولة أن تجمع حول هذه المساحة الواسعة موكباً حافلا من الأتباع الإيطاليين والصقالبة والأرمن والقوقازيين ، وبواسطة هؤلاء جميعاً انتشر تأثير بيزنطة انتشارا واسعاً فى آفاق الأرض . وتعتبر بيزنطة — كما كانت روما من قبل — المعلمة الكبرى للمتبربرين من الكرواتيين والصربيين والبلغار والروس ، فهم مدينون لها بِدينهم ولغتهم الأدبية وفنّهم وأشكال حكوماتهم ؛ وإلى الحضارة البيزنطية يرجع الفضل فى تهذيب حواشيهم والارتقاء بمجتمعهم وتعليمهم . وفى خلال عصر الأسرة المقدونية كانت القسطنطينية بحق ملكةَ المدن تجتمع فيها كل أساليب الظرف ولطائف الترف وألوان المتعة

العقلية وغررُ الصناعة القائمة على أسس العلم وروائع العمارة وملاهى السرك (الملعب والمسرح) ؛ إنها « باريس العصور الوسطى » التى كان غناها وفخامتها يثيران مطامعَ العالم المتبربر وإعجابه .

وأخذ الأمن يستتب داخل الدولة رويداً رويدا بفضل جهود أباطرة ذوى همة ، وشاع فى رحابها الأمانُ الذى يعتبر أساسَ الرخاء ، واستقرت دعائم سلطانها . وعلى عرش هذه الدولة الشرقية ، التى أُعيد بناؤها ، تربع أباطرةُ البيت المقدونى وأخذت تراودهم الآمال التى راودت جستنيان فيما قبل فى أن يَبْلُغوا مجداً مزدوجاً كمشرّعين وحكام إداريين . وحينما توفى باسيل الثانى سنة ١٠٢٥ كانت الدولة البيزنطية فى أوج سطوتها ورخائها ومجدها ، وقد أصبحت رقعتها ضعف ما كانت عليه قبلا ، وقُضى على كبرياء البارونات الإقطاعيين ، واحتوت خزانة الدولة على احتياطى زاد على المليار ، وانتشر صيت الدولة فى العالم الشرقى كله وامتد جاهها .

ولم يكن لينقصها إلا أمراء ذوو همة وسياسات حازمة حتى يدوم لها ذلك الجاه وتلك القوة . ولكن سوء حظ بيزنطة أراد لها أن يحكمها نساء ورجال مهملون ذوو مواهب قليلة ، فكان ذلك

مبدأ أزمة جديدة . فاستطاعت الأرستقراطية المنهزمة أن ترفع رأسها من جديد فى عصور الأباطرة الضعاف ، وخاف رجال الدولة من ثورات رجال الجيش فعملوا على إضعاف قوته ، وصارت الدولة إلى أيدى حكام مدنيين من كتاب الدواوين ورجال الفكر ، فكان ذلك تمهيداً للفوضى . فلما ضربت أطنابها أصبحت خطراً ماثلا يتهدد الدولة كلها لأنها واجهت فى ذلك الحين خطرين داهمين : هما النورمان فى الغرب ، والترك السلاجقة فى الشرق . ولم يكن هذان الخطران أشد ما واجهت الدولة قبل ذلك ، بل لقد كانت الدولة مستطيعة أن تصبغهم بصبغتها الهلينية وتمثلهم فى كيانها كما فعلت بغيرهم ، أو تخضعهم لسلطانها فتجعلهم تابعين لها . ولكنها كانت فى ذلك الحين أضعف من أن تنهض بمثل هذا العمل .

ولنضف إلى ذلك مصائب الانقسام الدينى والقطيعة النهائية بينها وبين كنيسة روما ، وكانت هذه الأخيرة سبباً قويا من أسباب الفوضى . ويبدو أن البيزنطيين لم يهمهم من ذلك شىء ، فظلوا يعمنون فيما كانوا منصرفين إليه إذ ذاك من مؤامرات القصر والحروب الأهلية والثورات فى القسطنطينية والفوضى فى الولايات ، وظلت الدولة على هذا الحال قرابة خمس وعشرين سنة . بل

حدث فى سنة ١٠٨١ أن كان عرش الدولة متنازعاً بين أباطرة ثلاثة فى حين كان الترك — الذين انتصروا على الإمبراطور رومانُس الرابع فى يوم ملاذكرد الأسود (١٠٧١) — معسكرين أمام القسطنطينية ، وبدا وكأن الدولة على وشك الانهيار .

— ٢ —

نهضة الإمبراطورية فى عصر آل كومنين (١٠٨١ — ١٢٠٤):

ورغم ذلك كله استطاعت الدولة أن تنجو من الخطر المحيق وتنهض من جديد نهضةً لم يكن يتوقعها أحد بفضل الجهد الذى بذلته أسرة كومنين (١٠٨١ — ١١٨٥) : كان آل كومنين فى أصلهم أسرةً إقطاعية كبيرة ، مثلهم فى ذلك مثل آل كابيه فى فرنسا ، واستطاعوا مثلهم إعادةَ السلطان المركزى المنهار وتعاقب منهم على العرش أربعة أمراء مبرزين : ألِكْسيوس ويوحنا ، وكانا قائدين عظيمين وإداريْين ماهرين وسياسييْن عبقريْين ؛ ثم مانويل وهو شخصية تغرى الباحثَ بدراستها وتفهمها أكثر من أى شخصية أخرى فى هذه الأسرة ، إذ كان فى نفس الوقت شجاعا إلى حد التهور ولاهوتيا ماهرا ، وكان إلى ذلك شديدَ العناية بمظهره ، واسعَ الكرم ، حريصاً على

الاستمتاع بالحياة ، آخذاً بأطراف من الأدب ؛ وكان على الجملة مزاجاً غريباً من صفات الفروسية الغربية والعقلية البيزنطية التقليدية ، وربما كان آخرَ الحكام العظام الذين تربعوا على العرش الإمبراطورى ، إذ كانت نفسه تفيض بالمطامح البعيدة ، وكانت حياته فيّاضةً بالجهد المتصل الذى بذله لتحقيقها . وأخيراً اندرونيكوس أذكى رجال هذه الأسرة الذى شغل أهل القرن الثانى عشر بأخبار مغامراته العاطفية وفضائحه ورذائله قبل أن يرقى إلى العرش ، فلما تربع عليه أظهر من عالى الخصال ما جعل معاصريه يقولون : « إنه ليقارَنُ بأعظم الأباطرة » ، وكانت له شخصية قوية جميلة تجمع فى وقت واحد بين العبقرية والفساد : كان مستبداً بغيضاً ورجلَ دولة ممتازاً . ولقد كان فى إمكانه أن ينقذ الدولة ولكنه لم يفعل إلا أن ساقها إلى حتفها . وفى هذا المقام أيضاً تتجلى لنا الحقيقة التى أشرنا إليها وهى أن تاريخ بيزنطة لم ينقصه الرجال . وليس إلى الشك سبيل فى أن أيام سعود الدولة كانت قد ولّت مع أمس الدابر ، ولم يكن فى استطاعة آل كومنين أن يعيدوا إليها عزّها الغابر : فقد كان الترك قد وصلوا إلى ايقونيوم (اسكى شهر) ولم يتراجعوا عن هذا الحد بعد ذلك أبداً . وكانت شعوب الصقالبة فى نواحى

البلقان تتجمع دُولات كل منها شبه مستقلة ، وكانت تشد أزرَها في ذلك السبيل الدولة المجرية الناهضة . وعلى الرغم من ذلك كله فقد استطاع آل كومنين أن يخلقوا للدولة لوناً أخيراً من العظمة . وفي خلال غياهب العصور التالية كانت ذكرياتُ آل كومنين تطوف بأذهان شعوب الدولة ضمن ما كان يطوف بها من ذكريات الأعصر السعيدة الزاهية .

ففي خلال هذا العصر أقامت جيوش الدولة البيزنطية مرة أخرى على كل الحدود نشيطة ، ومظفرة في بعض الأحيان ، صامدة أمام نورمان إيطاليا الذين كان الجشع يترامى بآمالهم نحو الشرق واستطاعت ردَّهم على أعقابهم ؛ وثبتت جيوشُ الدولة كذلك للأتراك وأوقفتهم عند حدهم ، وأعادت ميزان الأمور إلى نصابه . وصمدت كذلك للصرب والمجر ، وتمكنت من استعادة هيبتها في الغرب فثبتت للملوك النورمان في صقلية وللأباطرة الألمان . وأخذت ديبلوماسيةُ الأباطرة تمد أحابيلها الماهرة المرنة ومؤامراتها المدبرة في كل ناحية من نواحي العالم في ذلك الزمان من إيقونيوم (اسكي شهر) إلى البندقية والمجر وألمانيا وفرنسا و إيطاليا والشام ؛ وارتفع شأن بيزنطة في عالم القرن الثاني عشر حتى أصبحت مركزاً من المراكز الهامة للسياسة

المسيحية . وصاحب ذلك الصعودَ فى عالم السياسة الخارجية قيامُ الدولة بعمل جليل فى الداخل كانت نتيجتُه إعادةَ تنظيم الإدارة والمجتمع .

وبدا هذا المجتمع البيزنطى فى القرن الثانى عشر مهذبا مصقولاً مشغوفاً بشؤون الفكر ، مفتوناً بطُرَف الفن . وكانت القسطنطينية ، عاصمةَ هذا المجتمع ، لا يُضَارعها فى فخامتها ولا فى غناها بلد آخر . ولقد حدَّثَنا عنها مَن زارها من الرحّالة أحاديث عجيبة ، وظلوا بعد ذلك يحملون لها فى نفوسهم ذكريات باهرة . ومن أمثلة هؤلاء اودون الدويى *Eudes de Deuil* و بنيامين التطيلى *Benjamin de Tudela* وروبرت الكلارى *Robert de Clari* وفيلهاردوان *Villehardouin* . وكان ذلك الرخاء العظيم الذى تمتعت به الدولة وبالاً عليها آخر الأمر ، لأنه أثار مطامع الناس فيها ، وانتهت تلك المطامع بضياعها .

وفى خلال ذلك القرن الكومنينى حدث حادث بارز جعل له طابعاً مميزاً ، ذلك هو عودةُ بيزنطة الشرقيــة إلى الاتصال المباشر بالغرب فى أيام الحروب الصليبية . وإذا نظر الإنسانُ إلى الحروب الصليبية من وجهة نظر الإمبراطورية الإغريقية لا يسعه إلا أن يتبين أن هذا المجهود العظيم الذى بذلته المسيحية لتخليص قبر المسيح المقدس إنما كان شرُّه على الدولة أكثر من خيره ؛

فهذه الحروب قاربت بين عالمين عاجزين عن التفاهم ، فكانت النتيجة أن زادت فى حدة الضغائن وأسباب الكراهية بينهما ، وأطلعت كذلك أهل الغرب — والبندقيين منهم خاصة — على غنى الدولة والميادين التجارية الفسيحة التى تضمها ، فأثارت بذلك نيرانَ الطمع البالغ فى نفوسهم . واضطرت هذه الحروب أهلَ الدولة البيزنطية إلى أن يأخذوا حذرَهم من ضيوفهم المعادين لهم والذين لم يكن ليُطْمأن إلى جانبهم (١) . ونتج عن هذا أن انصرف أباطرة الدولة البيزنطية عن سياستهم الطبيعية ، فكان ذلك من أسباب ضعفهم أمام الأتراك . وكذلك كانت تلك الحروب سبباً فى توريط الدولة فى مشاكل الغرب ، فاستيقظت فى نفوس أهلها المطامعُ القديمة ، فأبعدها ذلك عن سبيل الرشاد المعقول . ثم إن مطامعَ التوسع ، التى شغلت مانويل كومنين ، أثارت مخاوف اللاتين وأضعفت الدولة فى نفس الوقت . فكان ضعفها وثراؤها فى الوقت نفسه سبباً كافياً لإثارة مطامع اللاتين فيها . وتكفلت السياسة القصيرة النظر ، التى جرت عليها الدولة ،

---

(١) فكر جود فروا دِ بويون ولويس السابع وفردريك ذو اللحية الحمراء (بربروسا) كل بدوره فى أن يستولى على القسطنطينية بالقوة .
(المؤلف)

بإكمال الباقى ، إذ أن بيزنطة مازالت تثير مخاوف الغرب و تكابره حتى أججت نيرانَ الكراهية فى قلوب أهله .

وعادت الإمبراطورية فى أيام مانويل كومنين تسترسل مع المطامع الواسعة كما فعلت فى أيام جستنيان ، وكانت التصفية فى هذه المرة أيضاً عسيرة قاصمة . و بينما كانت القوميات البلقانية كالصرب والبلغار آخذة بسبيل النهوض والتكوُّن أخذت عداوة اللاتين تزداد كل يوم خطورة ، وتعرّضت الدولة لخطرين شديدين هما مطامع البابويّة وجشع أهل البندقية . أما فى الداخل فقد ضربت الفوضى بجرانها : خلف آلَ كومنين أباطرة الأسرة الإنجيلية الضعفاء ؛ وأخذ عِقد الدولة ينفرط تحت حكمهم فى نهاية القرن الثانى عشر . وكانت نتيجة ذلك كله ضياع أمرها جملةً ؛ وكان ذلك فى أوان الحملة الصليبية الرابعة التى بارحت بلادَها لكى تخلص بيت المقدس وانتهت بالاستيلاء على القسطنطينية وذلك بسبب سياسة البنادقة تؤيّدها البابويّة ، مما انتهى بالقضاء على الإمبراطورية اليونانية و إقامة أحد أكناد بلاد فلاندر على عرش آل كومنين بين إعجاب المسيحيين جميعاً .

— ٣ —

الإمبراطورية فى عصر آل باليولوجوس (١٢٦١ — ١٤٥٣) : كانت الكارثة التى حلت بالدولة البيزنطية فى سنة ١٢٠٤ ضربة قاصمة لم ترفع رأسها بعدها أبداً . صحيح أن الإمبراطورية اللاتينية التى قامت فى القسطنطينية كانت قصيرةَ العمر ، وأن الإغريق استطاعوا منذ سنة ١٢٦١ أن يعودوا إلى عاصمتهم ، ولكن بقى فى الشرق بعد ذلك عدد كبير من الدويلات اللاتينية ، وكان البنادقة والجنويون يتصرفون فى هذه الدويلات تصرّف صاحب الأمر ، ولم تسكن مطامع الغرب فى بيزنطة .

ومن المؤكد أيضاً أن الكارثة التى حلّت بالدولة فى سنة ١٢٠٤ أيقظت فى نفوس أهلها العاطفة الوطنية إيقاظا عابراً ، وكان أشهر ممثلى هذه اليقظة هم أباطرة نيقية (١٢٠٤ — ١٢٦١) . بيد أن أسرة باليولوجوس تولت عرش الدولة طوال قرنين من الزمان (١٢٦١ — ١٤٥٣) . وكانت مساحة الإمبراطورية التى تربعوا على عرشها قد انكمشت انكماشاً ظاهراً ، وكانت ماليتها قد نضبت . وكلما مرّ الزمن كلما زاد هذا الانكماش وهذا

النضوب . وكانت دول ناشـئة قد قامت إلى جانب الدولة تنافسها وتهددها : كتلك الدول البلقانية المسيحية التى اشتد شعورها بنفسها ، ونهضت تنافس الإمبراطورية البيزنطية فى السيادة على البلقان : ففى القرن الثالث عشر قامت الإمبراطورية البلغارية الثانيـة ، وفى الرابع عشر نهضت الصرب بقيادة ستيفانوس دوشان ، واشتد ساعد الأتراك بعد أن سادوا آسيا الصغرى كلها ، وجعلوا عاصمتهم فى بروسة التى تكاد تكون على أبواب القسطنطينية ، ولم يلبثوا أن نقلوا عاصمتهم إلى أدرنة فى أوروبا حوالى منتصف القرن الرابع عشر ؛ ولم يعد ينفع الدولة أو ينقذها من مصيرها المحتوم أن يوجد فيها رجال من طراز ممتاز مثل يوحنا كانتا كوزينوس أو مانويل باليولوجوس الذى قيل فيه « إنه كان يستطيع إنقاذ الدولة لو أنه عاش فى زمان أحسن ولو أن إنقاذ الدولة كان ممكناً » ولـكنه أصبح مستحيلا .

فلنلق الآن نظرة على أحوال الدولة خلال هـذه الحقبة الأخيرة : رزحت بيزنطة تحت ثقل المتاعب المالية التى زادها « اللاتين » شـدة بسبب استغلالهم لها استغلالا خسيساً . واجتاحت الدولة الخصوماتُ الداخلية ، وأخذ أهلها يستغيثون بالأجنبى من غير خجل ، حتى لقد استغاثوا بالصرب والترك ؛

وأضعفتها كذلك منازعاتُ الطبقات ، فتخاصم الفقراء والأغنياء والنبلاء والسوقة ، وظهرت حِدَّة هذه الخصومات بصورة غريبة محزنة دامية فى تاريخ ولاية سالونيك خلال القرن الرابع عشر . واشتدت كذلك المنازعات الدينيـة التى ثارت ضد الأباطرة السياسيين الذين أرادوا أن يكسبوا تأييد البابوية بالمفاوضـة فى مسألة توحيد الكنيستين ، فثارت ضـدهم العاطفة القومية الإغريقية . واستنفدت هذه الخصومات المحزنة كل ما بقى فى كيان الدولة من نشاط . وهكذا عدمت بيزنطة جيشَها ومالَها وشعورَها الوطنى ، وأخذت مساحتها تنكمش يوما بعد يوم ، واشتد الحصار الأرضى حول القسطنطينية فلم تعد تستطيع الاتصالَ ببقايا دولتها إلا عن طريق البحر . و بعد قليل ستصبح القسطنطينية فحسب هى الإمبراطورية كلها . وهنا لم يعد عن السقوط النهائى محيص .

ومع ذلك فإن حيوية تلك الحضارة كانت من القوة بحيث ظهرت عليها مخايل نهضة أدبية فنية أضاءت عصر آل باليولوجوس المحتضر بشعاع مجيد من النور . فقد كانت مدارس القسطنطينية زاهرة ما تزال ، وكان فيها فلاسفة وخطباء ونحويون على جانب عظيم من الاقتدار ؛ و إذا تأمل الإنسان أعمالهم بدا له وكأنها إرهاص بأعمال المفكرين الإنسانيين الذين سيظهرون فى عصر

النهضة . وظهر كتّاب ذوو قدر ومؤرخون وأخلاقيون وشعراء ومؤلفون وعلماء قدّموا إلى العلم خدمات لا تقل عما قدّمه له فيلسوف مثل روجر بيكون فى الغرب . ودبت الحياة من جديد فى كيان الفن البيزنطى حينما عاد الاتصال ، أو بالأحرى المنافسة ، مع إيطاليا فأصبح فنا حيا جميلا تشوبه العاطفة وروح الحزن ، ويبدو ساحراً بين الحين والحين . وكانت المراكز الهامة لتلك النهضة فى طرابزون ومِستْرا وآثوس ، فضلاً عن القسطنطينية . وعن طريق هـذه المراكز كان سلطان بيزنطة ينتشر فى نواحى العالم الشرقى كلها ، بين الصرب والروس وأهل رومانيا .

وفى التاسع والعشرين من مايو سنة ١٤٥٣ وقعت القسطنطينية فى يد الأتراك ، وسقط آخر الأباطرة البيزنطية سقوطَ الأبطال وسيفه فى يده وهو يحاول إيقاف الأعداء المندفعين من ثغرات السور . ولكن ، أليس مما يستوقف النظر أن نشهد فى عشية هذا السقوط الحضارة الهلينية تتجمع لكى تلقى على العالم شعاعا أخيراً يضم كل نشاطها الفكرى ، كأنما أرادت أن تعيد بذلك إلى الأذهان ذكرى مجدها الذاهب ، أو كأنها أرادت أن ترمز بذلك إلى ما سيحدث فى المستقبل وتبشر به ؟ وإنه لمن الغريب أن نلاحظ كيف ظهرت فجأة إلى الوجود مرة أخرى

فى بيزنطة المحتضرة الأسماء اليونانية الجليلة القديمة مثل بركليس وثمستوكليس وإبامِنُنْداس ، وكيف أخذ الناس يستعيدون ذكريات أجدادهم العظماء الذين أنفقوا حياتهم فيما خلا من الأعصر « فى سبيل الناس وفى سبيل الوطن » ، وإنه لمن الفريد فى بابه أيضاً ومما لا يخلو من مغزى أن نجد كبراء ذلك العصر يطلبون إلى الإمبراطور أن يترك لقبه التقليدى القديم وهو « بازيليوس الرومان » ، ويستبدل به لقب « ملك الهلينيين ، الذى يكفى وحده لضمان سلام الهلينيين الأحرار وتخليص إخوتهم الذين أراد لهم القدر مصير العبيد » : خيالات ربما بدت لنا غير ذات معنى فى لحظة كان محمد الفاتح فيها على الأبواب ، ولكنها لا بد وأن تستوقف نظرنا لأنها إنما كانت يقظة الوعى الهلينى الذى كان يأبى الموت ، وكان يمهد السبيل بصورة غامضة لمستقبل أحسن فى نفس اللحظة التى وقعت الكارثة فيها .

* * *

ذلك فى إيجاز هو تطور التاريخ البيزنطى منذ تأسيس القسطنطينية فى سنة ٣٣٠م إلى سقوطها فى سنة ١٤٥٣م . وكم من فترة مجيدة عبرت بهذه الدولة بين هذين التاريخين ، خلال هذه القرون الأحد عشر ! ففى القرن السادس فى أيام جستنيان عادت

الدولة الرومانية إلى الوجود للمرة الأخيرة ، وأصبح البحر الأبيض بحيرة رومانية من جديد . وفى القرن الثامن استطاع الإيسوريون أن يكسروا حدة الإسلام و ينظموا الحكومة المطلقة على أساس جديد . وفى القرن العاشر استطاع أباطرة الدولة المقدونية أن يجعلوا بيزنطةَ الدولة الكبرى فى الشرق . وفى القرن الثانى عشر بدت الإمبراطورية البيزنطية فى ظلال آل كومنين ذات شخصية متألقة فى العالم الأوربى ؛ ومن ثم فليس من الصواب أن نقصر حديثنا ، عندما نتكلم عن بيزنطة ، على الانهيار ، بل لابد أن نضمنه أخبارَ الصعود كذلك . بل إن البحث عن أسباب هذه العظمة ليستحق من عنايتنا أكثر مما نوقفه عادةً على دراسة أسباب الاضمحلال . ولا ينبغى ، قبل كل شىء ، أن ننسى الخدمات التى أدتها هذه الحضارة التى كانت أزهر ما فى أوروبا طوال العصور الوسطى . و ينبغى أن نقدر الدَّين الذى يدين به الشرق والغرب لبيزنطة ، و ينبغى كذلك أن نتعرف ذلك التراث الذى خلفته لنا بيزنطة ولا زال قائماً إلى اليوم .

ملحـــق ٢

بيزنطة والإسلام

Byzantium and Islam

وهو الفصل الحادى عشر من كتاب

BYZANTIUM,

An Introduction to East Roman Civilization

Edited by

NORMAN H. BAYNES *and* H. St. L. B. MOSS

ص ٣٠٨ — ٣٢٥

الإسلام وبيزنطة

كانت الدولة البيزنطية والإسلام خلال قرون كثيرة على اتصال وثيق فيما يتعلق بتاريخهما الخارجي والداخلي. وكان العرب منذ القرن السابع حتى منتصف القرن الحادي عشر يمثلون الإسلام، ومنذ منتصف القرن الحادي عشر حتى سقوط بيزنطة فى سنة ١٤٥٣ م أصبح يمثله الأتراك: السلاجقةُ منهم أولاً ثم تلاهم العثمانيون.

ولم تكد تمضى سنوات قليلة على ظهور الإسلام فى قلب الجزيرة العربية حوالى سنة ٦٢٢ م، وعلى وفاة محمد (ص) فى سنة ٦٣٢ م/١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ حتى استولى العرب على حصن بُصرى (بُثرا *Bothra*) البيزنطى فيما وراء الأردن؛ وكان استيلاء العرب على ذلك الحصن «حادثاً تافهاً لو لم يكن مقدمة لثورة عظمى(١)». وكانت انتصارات العرب الحربية تبعث على الدهشة: ففى سنة ٦٣٥ م/١٤ هـ سقطت دمشق، وفى سنة ٦٣٧ أو ٦٣٨/أواخر سنة ١٥ هـ أو سنة ١٦ هـ

(١) انظر GIBBON, *The History of the Decline and Fall of the Roman Empire*, Chap. XIV, ed. J.B. Bury, Vol. I. (London, 1898) p. 95. (المؤلف)

قائد بيزنطي يتفاوض مع العرب



سلمت بيتُ المقدس . وأصبحت فلسطين ولاية عربيــة ؛ وفى الوقت ذاته فُتحت دولة الفرس ؛ وفى سنة ٦٤١ أو ٦٤٢ م / ٢٠ هـ استولى العرب على الاسكندرية . وبعد ذلك بسنوات قلائل اضطرّت الإمبراطوريةُ البيزنطية إلى التخلى عن مصر للأبد . وقد تلا فتحَ مصر تقدمُ العرب إلى أبعد من ذلك على سواحل شمال إفريقية . وباختصار ، لم تحلّ سنة ٦٥٠ م / ٢٩ هـ حتى كانت سوريا والقسم الشرقى من آسيا الصغرى والعراق وفلسطين ومصر وجزء من الولايات البيزنطية فى شمــال إفريقية قد دخلت تحت الحكم العربى . وعند نهاية القرن السابع فتح العرب شمالى إفريقية كله ، وبدأوا عند مطلع القرن الثامن فتحفهم المظفر لشبه الجزيرة الايبيرية .

وهكذا أصبح العرب مُهَيْمنين على سواحل طويلة تتطلب الحمــاية من عدوان السفن البيزنطية . ولم يكن للعرب أسطول ، ولم يكن لهم كذلك أى خبرة بالشؤون البحرية . ولــكن أهل الشام من السوريين الإغريق ، الذين كان العرب قد فتحوا بلادهم إذ ذاك ، كانوا متمرسين فى الشؤون البحرية ، ولعبوا دوراً فى غاية الأهمية فى التجارة البيزنطية . ولهذا السبب شحن العرب سفنَهم الحربية الأولى ببحّارة من أهل الولايات البيزنطية

التي افتتحوها . ومنذ منتصف القرن السابع كانت سفن العرب قد احتلت جزيرة قبرص ، وكانت هذه محطةً بحرية هامة ؛ ثم هزموا الأسطول البيزنطى ، ووصلوا إلى كريت وصقلية وعبروا البحر الإيجى والدردنيل . وبعد سنة ٦٧٠ م / ٥٠ هـ (١) بوقت قصير ظهروا أمام القسطنطينية . وعلى أى حال فقد فشلت جميع محاولات الأسطول العربى للاستيلاء على المدينة ، واضطر العرب إلى الارتداد عنها فى سنة ٦٧٧ م (٢)

---

(١) راجع ابن الأثير ج ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) بعد أن حاصر العرب القسطنطينية حصارهم الأول فى سنة ٥٠ هـ بقيادة سفيان بن عوف وأبى أيوب الأنصارى ارتدوا عنها من غير توفيق وعسكروا فى ميناء كيزيكوس *Cyzicos* واتخذوه مركزاً لأعمالهم الحربية ضد القسطنطينية مدى السنوات السبع التالية . وإلى ذلك يشير ابن الأثير فى قوله فى حوادث سنة ٥٤ هـ : « فيها كان مشتى محمد بن مالك بأرض الروم وصائفة معن بن يزيد السلمى ، وفيها فتح المسلمون ومقدمهم جنادة بن أبى أمية جزيرة أرواد قريب القسطنطينية فأقاموا بها سبع سنين ، وكان معهم مجاهد بن جبر . فلما مات معاوية وولى ابنه يزيد أمرهم بالعود فعادوا » (الكامل ج ٣ ص ٢٤٦) مما يُفهم منه أن المراد بأرواد هو جزيرة كزيكوس . وقد فصل فازلييف ما أجمله فى هذه العبارة التى وردت فى النص فى تاريخه الكبير للدولة البيزنطية فذكر أن العرب بعد أن فشلوا فى الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٦٧٠ م فى عهد قنسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥) بسبب استعمال الروم للنار الإغريقية التى اخترعها إذ ذاك رجل سورى يسمى جالينيكوس ، ظلوا يترددون على القسطنطينية كل عام حتى سنة ٦٧٧ م ؛ =

ولا شك فى أن تذمر أهل سوريا ومصر كان من الأسباب الرئيسية فى الانتصارات العربية العسكرية التى تبعث على الدهشة. وكان هـذا التذمر ذا طابع دينى ؛ لأن الإمبراطورية البيزنطية اعتبرت المذهب المونوفيزى ، الذى كان سواد أهل هذه الولايات يتبعونه، خروجا على القانون . وربما كان أثر المذهبين النسطورى والمونوفيزى على الإسلام فى أيامه الأولى أقوى بكثير مما يُظن عادة : فقد نظر علماء اللاهوت البيزنطيون إلى الإسلام فى بادئ الأمر على أنه فرع من الآريوسية ، ووضعوه فى نفس المستوى مع المذاهب المسيحية الأخرى . وفى القرن الثامن نظر يوحنا الدمشقى ، الذى عاش فى البلاط الإسلامى ، إلى الإسلام على أنه ليس إلا ضربا من ضروب الانشقاق عن العقيدة المسيحية الحقة ، وهو من هذه الناحية يشبه الهرطقات الأخرى التى سبقت ظهوره . وقد بيّن « ف. و. بكلر » أخيرا أن نطاق سلطة البطريركية

= وقد منى الأسطول العربى بكارثة كبيرة ، إذ هبت عليه عاصفة عنيفة فتحطمت معظم سفنه على الشاطئ الشمالى لآسيا الصغرى . وفى نفس الوقت فشلت كل المحاولات البريه التى قام بها العرب إذ ذاك ، فاضطر الخليفة إلى استرجاع جنده ، وعقد معاهدة مع الدولة البيزنطية تعهدت الدولة بمقتضاها بأن تدفع له ضريبة سنوية .

انظر : VASILIEV : *Hist. de l'Empire Byzantin,* I. pp. 283—284 :

النسطورية . التي تأسست في بابل (بغداد فيما بعد) في سنة ٤٩٩م ، كان يشمل الإمبراطورية الساسانية والهند والصين والجزيرة العربية ، وكان يشمل مصر من حين لآخر ، وقال : « وبعد أن فشل نسطوريوس في إحياء مذهبه في البلاد الداخلة تحت سلطان الكنيسة المسيحية لم تبق له مندوحة عن أن يحاول إحياءه في بلاد الإسلام » . ويقول في موضع آخر : « ويرجع الفضل إلى عبقرية محمد في عودة مذهب نسطوريوس إلى رحاب الدين[1] » ومن ناحية أخرى علّق الأستاذ جريجوار *Grégoire* أهمية خاصة على التقارب بين الإسلام والمونوفيزية . وعندما تصدى لشرح قول بيرين *Pirenne* « إن محمدا هو الذى صنع شرلمان » — وهى مقالة شديدة الوقع ولا زالت موضع مناقشة — قرر أن يوتيخيوس (أوطيخا) ، أحد مؤسسى المذهب المونوفيزى ، صنع محمداً[2] . وقد أصبحت المسيحية البيزنطية

(١) *F.W. Buckler, "Barbarian and Greek-and Church History", Church History,* Vol. XI (1942), p. 17 ; *"Regnum et Ecolesia", ibid.,* Vol. III (1934), p. 38. (المؤلف)

(٢) هذه الآراء التى يتناقلها ديل وفازلييف و ﻫ . جريجوار وهنرى بيرين كلها افتراضات لا تقوم على أساس صحيح من المعرفة بالإسلام والتوحيد وأصولها . وقد ذهب كارل هاينريخ بكر إلى أبعد من ذلك فى مقاله عن النصرانية والإسلام ، ورد خير ما فى العقيدة الإسلامية إلى مذاهب =

في صورتها المونوفيزية أحد أسس الإسلام الرئيسية[١] .

ولقد وجد العرب في الولايات التي افتتحوها أنظمة إدارية قائمة . ولم يحملوا معهم حينما أقبلوا من صحرائهم إلى هذه الولايات

= نصرانية خارجة عن الكنيسة ، ومن هذا الطراز أيضا ما ذكره مرجوليوث عند ما أراد تحقيق لفظ « حنيف » إذ ذهب إلى أن حنيف وصف لأتباع مذهب مسيحي منشق عن الكنيسة . وقد غاب عن هؤلاء جميعا أن التوحيد مذهب قديم وجد قبل النصرانية بزمن بعيد . والروايات الإسلامية صريحة في أن التوحيد الإسلامي إنما يرجع إلى عقيدة إبراهيم عليه السلام . ولا نزاع عند مؤرخي العقيدة الإسلامية ، الذين يعرفونها حق المعرفة ، في أن التوحيد الذي آتى به الأسلام إنما هو توحيد ابراهيم غير متأثر بأي مؤثرات مسيحيه . ومن المعروف أن العقيدة الإسلامية لم تتغير أي تغير بعد وفاة محمد ، ومن ثم فلا معنى للقول بتأثيرات مسيحية جدت عليها تحت تأثير اتصالها بالمسيحية فيما بعد ، بل العكس هو الصحيح . ومن الواضح أن عقيدة الدولة البيزنطية قد تأثرت بالإسلام تأثرا كبيرا في مسائل كثيرة كتحريم وضع الصور في الكنائس وما إلى ذلك .

أما عبارة المؤرخ هنرى بيرين المشار إليها في النص فهي عبارة فريدة تجدها مفصلة تفصيلا طويلا في كتابه عن « محمد وشرلمان » الذي قرر فيه عددا من النظريات الخاصة بسيادة الإسلام على حوض البحر الأبيض المتوسط وأثره في التوجيه التاريخي للدولة البيزنطية وللدول الجرمانية التي قامت في غرب أوروبا بين القرنين السابع والعاشر . وقد أثارت آراؤه كلها موجة من المعارضة من مؤرخي العصور الوسطى ، ولكن أحدا منهم لم يستطع أن يدحضها بشكل بات .

(١) *H. Grégoire, "Mahomet et le Monophysisme", Mélanges Charles Diehl*, Vol. I (Paris, 1930), pp. 107—19.
(المؤلف)

شيئا من هذا القبيل ، ولهذا اقتبسوا الأنظمة البيزنطية ، ومن هنا سارت الأنظمة الإدارية للخلافة الأولى على نهج الأساليب والأنظمة التى ورثت معظمها من بيزنطة و بعضها الآخر عن دولة الفرس الساسانيين .

وكانت الولايات البيزنطية والفارسية التى دخلت فى حوزة العرب على اتصال وثيق بالثقافة الهلينستية . ودخلت فى رحاب الدولة العربية المراكز الثقافية الزاهرة مثل انطاكية فى الشام ، وقيصرية وغزة فى فلسطين ، ثم الإسكندرية بوجه خاص ، وصارت — بكتابها ومدارسها ومتاحفها و بيئتها العامة المشبعة بالحياة الفكرية القوية والتقاليد الهلينستية القديمة — جزءاً من الدولة الإسلامية . وحينما اتصل العرب بثقافة متينة الأسس من هذا الطراز وقعوا بالطبيعة تحت تأثير هذه الحضارات القديمة ، إذ لم تكن لهم ثقافة خاصة بهم . وكان ذلك حافزاً قويا أعان على تقدمهم الحضارى . وعن طريق الحضارة الهلينية — التى كانت قائمة فى الولايات البيزنطية التى افتتحوها — عرفوا آثارَ القدماء فى ميدان العلم والفن ، ودخلوا فى عداد الأمم ذات الثقافات الموروثة .

وكان فتح القسطنطينية هدف السياسة العربية النهائى خلال النصف الأول من القرن الثامن بصورة أوضح . وفى سنة ٧١٧م

اعتلت عرش بيزنطة الأسرةُ الإيسورية الفتية ، ووجد أول أباطرتها ، وهو ليو الثالث ، نفسَه فى موقف من أحرج ماعرفته الدولة البيزنطية فى تاريخها : ذلك أن جيوش العرب أوغلت فى آسيا الصغرى ووصلت إلى أسوار العاصمة ، بينما حاصرها فى البحر أسطول عربى قوى . وفى سنة ٧١٨م انتهت هذه المحاولة الجريئة بالفشل التام . وبعد تلك الهزيمة لم يعد العرب إلى مهاجمة المدينة « التى يحرسها الله » ، ولكن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية بقيت ماثلة : ففى سنة ٨٣٨م كان الخليفة المعتصم ، بعد انتصاراته العسكرية فى آسيا الصغرى ، يحلم بالزحف على القسطنطينية .

وقبل ظهور الأتراك السلاجقة وتوطيد أقدامهم فى آسيا الصغرى فى القرن الحادى عشر [الخامس الهجرى] كانت الحروب تكاد تكون دائمة متصلة بين البيزنطيين والعرب . وتذكر المصادر العربية ، فى كل سنة تقريبا ، حملات حربية كانت على الأغلب سرايا لا غرض لها إلا الفوز بالغنائم ، وكان يصاحبها تبادل الأسرى [الذى يعرف فى الروايات الإسلامية بالأفدية ومفردها فداء] . وكان التوفيق يخون بيزنطة فى بعض الأحيان ، فقد اضطرت الإمبراطورية مثلا قبيل نهاية القرن الثامن ، حسب شروط الصلح ، إلى أن تدفع للعرب مبلغا كبيراً من المال « كان

على الإمبراطورة إيريني أن تؤديه في شهري إبريل ومايو من كل عام[١] » . وكان هـذا الاتفاق هو السبب في نشوء تلك الفـكرة الخاطئة التي تقول إن الخليفة الذائع الصيت هرون الرشيد كان في سـنة ٨٠١ م سيّد الإمبراطورية الرومانية[٢] . وربما كان الخليفة يسمى هذا المال جزية ، ولـكنه « لم يكن بالنسبة للإمبراطور إلا استغلالا حكيما للمال ، إذ أنه لم يكن ليتأخر عن التوقف عن الدفع كلما أحس من نفسه القُدرة على القتال[٣] »

(١) تقررت الجزية على الروم بعد غزو الرشيد لآسيا الصغرى في سنة ١٨١ هـ واستمرت تدفع حتى سنة ١٨٧ هـ حينما نقض نقفور ، الذي خلف الإمبراطورة إيريني في سنة ١٨٧ هـ ، المعاهدة القائمة بين الروم والمسلمين وتجد تفاصيل ذلك عند ابن الأثير (ج ٥ ص ١٨٤) .

(٢) على هذا النحو فسر ف . و . بكلر المعاهدة التي تم الاتفاق عليها بين هرون الرشيد وإيريني في كتابه « هرون الرشيد وشرلمان » (كمبردج ، مساشوستس ، ١٩٣١) ص ٣٦ .

F. W. Buckler, Harun'l — Rashid and Charles the Great (*Cambridge, Massachusetts,* 1931), p. 36.

(المؤلف)

(٣) S. RUNCIMAN : *Byzantine Civilization* (London, 1933) p. 162. (المؤلف)

وإليك نص رونسيمان الذي يشير إليه المؤلف : « وحتى في بعض الأوقات التي لم تكن بيزنطة فيها تريد القيام بإحدى الحروب ، لسبب ما ، كانت ترسل مبلغا سنويا من المال إلى بغداد أو برسلاو . وربما كان الخليفة أو القيصر يعتبر هذا المبلغ جزية إذا أراد ، ولـكنه لم يكن في الواقع إلا مجرد استثمار حكيم له » .

وفى ميدان البحر الأبيض المتوسط دخلت قبرص تحت سلطان العرب فى القرن السابع ، وكذلك إقريطش وصقلية فى القرن التاسع ، واستولى العرب كذلك على بعض المدن فى جنوب إيطاليا وعندما فتح العرب المغرب فرّ كثير من الإغريق الذين كانوا فيه إلى صقلية ، ثم غادروها إلى جنوب إيطاليا حينما غزا العرب صقلية شيئا فشيئا ، فزادت بذلك أعداد العنصر الهلينى بين سكان جنوب إيطاليا . ويؤكد بعض العلماء أن البحر الأبيض المتوسط أصبح بحيرة إسلامية ، وهذا قول لا يخلو من مبالغة .

ويبدو للمتأمل لأول وهلة أن مصالح هذين العدوّين اللذين فرّقت بينهما السياسة والدّين لم يكن من الممكن أن تلتقى ، إلا أن الأمر لم يكن فى الواقع كذلك ، فإن الأعمال الحربية لم تحل دون قيام العلاقات الثقافية . وقد حفلت هذه الفترة بسلسلة متتابعة من أعمال الحرب والسلم والتخريب والإنشاء ، والعداوة والصداقة . ولم يكن هناك حقد عنصرى ، إذ أن الإمبراطور نقفور الأول (٨٠٢ — ٨١١ م) كان ، كما تقول المصادر الشرقية ، من أصل عربى [1] وربما كان من أهل

---

(١) والمراجع العربية بدورها ترد هذا القول إلى الروم : فيقول ابن الأثير فى حوادث سنة ١٨٧ هـ : « وكان يملك الروم حينئذ امرأة اسمها رينى ، فخلعتها الروم وملكت نقفور ، وتزعم الروم أنه من أولاد جفنة ابن غسان » (الكامل : ابن الأثير ج ٥ ص ١١٨) .

شمال العراق . وفى عهد ليو الثالث بُنى جامع فى القسطنطينية ، ومن هنا وصَفَ أحد أصحاب المدوّنات الإغريقية هذا الإمبراطور بأنه كان « ذا عقلية عربيـة » . وكتب بطريق القسطنطينية نيقولا ميستيكس *Nicholas Mysticus* فى النصف الأول من القرن العاشر إلى أمير إقريطش يخـاطبه بقوله : « إلى الأمير الأشهر الأشرف الأدنى إلى المحبـة » ثم مضى يقول : « إن دولتى العرب والروم ظاهرتان على العـالم كله ، وهما تمتازان وتتألقان كالشمس والقمر فى القبة الزرقاء . ولهذا وحده لامندوحة لنا عن أن نعيش معاً كإخوة بالرغم من اختلافنا فى الطبـائع والعادات والدين » .

ولمـا كانت العلاقات السياسية مع العرب فى الشرق والغرب أمراً أساسيا بالنسبة لبيزنطة ، فقـد كانت مراسم استقبال السفارات العربية ، التى كانت توفَد إلى القسطنطينية فى فترات الصلح ، تجرى على أسلوب دقيق محكم . وكانت بيزنطة تستقبل السفراء وترحب بهم بكل مظاهر الاحتفال الباهرة فى البلاط والمجاملات الدبيلوماسـية وعرض القوات العسكرية إظهاراً للقوة . وقد حفظت لنا الـكتب التى صُنِّفت تحت إشراف قنسطنطين بورفيروجينيتوس فى القرن العاشر فى موضوع « مراسم

البلاط البيزنطى [*De Ceremoniis*] أوصافاً للاستقبال الودى البالغ الذى كان البيزنطيون يستقبلون به سفراء بغداد والقاهرة . وكان « الأصدقاء » العرب يحتلون على المائدة الإمبراطورية مقاعد أعلى من مقاعد « الأصدقاء » الفرنجيين . وكان عرب المشرق يجلسون فى أمكنة أشرف من أماكن عرب المغرب . ثم إن سفراء الروم حينما كانوا يفدون على بغداد — كما حدث مثلا فى سنة ٩١٧ م — كان الخليفة يستقبلهم استقبالاً رسميا فى أبهة شرقية بالغة ، ويقيم عرضاً عسكريا شاملا . وفى سنة ٩٤٧ — ٩٤٨ م ظهر سفراء الإمبراطور قنسطنطين بورفيروجينتوس فى بلاط الخليفة الأندلسى الذائع الصيت ، عبد الرحمن الناصر ، واستقبلوا بترحيب باهر . وكان بين الهدايا التى قدمها السفراء البيزنطيون إلى الخليفة باسم إمبراطورهم مخطوط إغريقى جميل يحتوى على مؤلَّف طبى ونسخة لاتينية من تاريخ أوروسيوس *Orosius* (١) ؛ ولما لم يجد الخليفة بين المسيحيين فى

(١) راجع وصف سفارة قنسطنطين بورفيروجينتوس فى نفح الطيب للمقرى (ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها طبعة أوروبا) وابن خلدون ، العبر (طبعة بولاق، ج ٤ ص ١٤٢ — ١٤٣) . وقد وجدنا فى وصف ابن حيان لهدية « صاحب القسطنطينية العظمى » ما يلى : « ودفعوا كتاب ملكهم صاحب قسطنطينية العظمى قسطنطين بن ليون وهو فى رق مصبوغ لونا سماويا مكتوبا بالذهب بالخط الإغريقى ، وداخل الكتاب مُدْرجة مصبوغة

إسبانيا من يعرف اليونانية فقد ظل المخطوط اليونانى فى مكتبته دون أن يُترجم .

وكانت معاهدات الصلح بين بيزنطة وجيرانها ، بما فيهم العرب بالطبع ، تُعقد للأبد ، وكانوا يقولون فيها : « طالما تشع الشمس ويظل العالم ثابتاً » أو : « طالما تشع الشمس ، وما بقى الكون بعد ذلك وإلى الأبد » ؛ وقد بقيت المحسنات البديعية الشرقية (١) مستعملة حتى فى القرن التاسع عشر . فقد جاءت

أيضا مكتوبة بفضة بخط إغريقى أيضا فيها وصف هديته التى أرسل بها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه ثلاثة مثاقيل ... » المقرى ، نفح الطيب ج ١ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ . وربما كانت هذه إشارة إلى مخطوط أوروسيوس .

(١) إصرار المؤلف هنا على عبارات مثل «أبهة شرقية» و « محسنات بديعية شرقية » لا يخلو من غمز غير لائق ، وهو هنا ينبع كافة المؤرخين والمفكرين الأوروبيين الذين يضيفون هذا الوصف إلى مظاهر الترف فى بلاد الشرق ولا يريدون به إلا الحط من قيمة الشرق جملة . ولا بد من أن ننبه أولا إلى أن مايذهب إليه هؤلاء المؤرخون من إسراف الشرقيين فى احترام ملوكهم والخضوع لهم إنما هو ظاهرة يشترك فيها الشرق والغرب على السواء . ومهما بلغت مظاهر التعظيم لملوك الشرق فى القديم ، ومهما بلغت أبهتهم فهى لا تبلغ مظاهر التعظيم والأبهة التى كانت تحيط بملوك فرنسا ، وهم غربيون . هذا ولا نحب الإشارة إلى مظاهر الولاء المطلق والخضوع الأعمى الذى كان يحيط بأباطرة الدول الرومانية المقدسة وهم غربيون . أما إشارته إلى « المحسنات البديعية » ووصفها بالشرقية فمغالطة لأن هذا الأسلوب كان أسلوب الشرق والغرب على السواء فى الكتابة فى العصور الوسطى . والموضوع كله يحتاج إلى رد مطوّل حاسم قائم على التدليل التاريخى حتى تزول هذه الفكرة الخاطئة من أذهان الناس .

العبارة التالية فى نص المعاهدة التى أُبرمت بين إمارة مسقط (فى الجزيرة العربية) وبين بريطانيا العظمى فى سنة ١٨٠٠ م :
« إن صداقة الدولتين سوف تبقى دون أن تتزعزع حتى نهاية الزمن وحتى ينتهى القمر والشمس من سيرهما الدائرى » .

وفى معاهدة الصداقة والتجارة التى عقدت فى سنة ١٨٣٣ م بين الولايات المتحدة الأمريكية وسيام نجد العبارة التالية :
« سوف يحافظ السياميون وأهل الولايات المتحدة الأمريكية بإخلاص على اتصالها التجارى فى موانئ أمتيهما المبجّلتين طالما بقيت السماء والأرض » .

وقد ترتب على فتوح العرب فى القرن السابع والثامن والتاسع تغير لا يُستهان به فى التجارة البيزنطية . وقد تقوضت دعائم الرخاء الاقتصادى الذى كانت تتمتع به الإمبراطورية الرومانية الأولى بسبب الفوضى الداخلية التى سادتها خلال القرن الثالث ، وبسبب هجرات البرابرة إلى الولايات الغربية فى القرنين الرابع والخامس . وقد كُتبت لتجارة الإمبراطورية الخارجية خلال القرن السادس على يد جستنيان ، وخاصة فى الشرق ، حياة جديدة . ولكن العرب وجهوا ضربة قاضية إلى نفوذ بيزنطة الاقتصادى فى الشرق والجنوب ؛ وذلك باقتطاعهم من الإمبراطورية أغنى ولاياتها

وأكثرها انتعاشاً وأكثرها رقياً من الناحية الاقتصادية . وقد أصبح البحر الأبيض غير آمن للملاحة بسبب أعمال (القراصنة[1]

(١) قوله « قراصنة العرب » عبارة خاطئة ينبغى أن تصحح ، وقد وقع فيها معظم المؤرخين الأوربيين عن قصد ، وإصرارهم عليها لا يخلو من روح التعصب . وتبدو لنا هذه الروح على أوضح صورها فى المقال الذى كتبه كارل هاينرخ بكّر فى تاريخ كمبردج للعصور الوسطى عن الفتوح الإسلامية ج ٢ . فقد ألقى هذا المؤرخ على أكتاف المسلمين تبعة كل أعمال القرصنة التى كانت تقع فى البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين ، مع أن المعروف أن العرب لم يكونوا فى يوم من الأيام قراصنة وإنما الذى حدث هو أن القرصان انتشروا فى حوضى البحر الأبيض الشرقى والغربى عقب اضمحلال الدول الإسلامية وعجزها عن السيطرة على البحار من أوائل القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) . وكانت جماعات القرصان تتكوّن من جنسيات مختلفة ، فكانت فيهم أعداد عظيمة من أهل إيطاليا والبلقان وجنوب فرنسا والمغرب . وربما كان المغاربة أقل عدداً من غيرهم . ولكن البابويّة جعلت القرصان كلهم عرباً أو مغاربة لكى تزيد فى سخط الناس عليهم . ولا يتسع المجال هنا لإثبات براءة العرب والمغاربة من كثير مما ينسب إليهم من أعمال القرصنة ، ولكن يكفى أن يطلع الإنسان على المراجع التالية لكى يتبين الحقيقة التى نشير إليها هنا :

ابن جبير : الرحلة (طبعة رايت) .

Le Baron M. L. de Mas Latrie : Traités de Paix et de Commerce et documents divers concernant les Relations des Chrétiens avec les Arabes de l'Afrique septentrionale au Moyen âge. Paris 1866.

SISMONDI : *Histoire des Republiques Italiennes. Lausanne* 1940.

ولا بد على أى حال من دراسة هذه النقطة من وجهة نظرنا لإثبات خطأ هذه النظرية الشائعة .

العرب) الذين جعلوا مراكزهم فى جزيرة كريت إلى حد اضطر التجار معه إلى ترك سفنهم والمجازفة بالقيام برحلات برية طويلة لم تكن مأمونة الجانب ولا مريحة كل الراحة ، وذلك لكى يفلتوا من «البربر الموريتانيين»[١] الذين نجد ذكرهم فى « حياة القديس جريجوار الديكابوليتى »[٢] .

وقد يُظن لأول وهلة أن كيان الشرق الأوسط الاقتصادى كله قد انهدم ، وأن العلاقات التجارية مع الشرق قد انتهت . ولكن الأمر لم يكن كذلك : فقد عاش فى الجزيرة العربية قبل ظهور محمد صلى الله عليه وسلم — عدا البدو الرحل — أقوام مستقرون فى المدن ، وقامت قرى ومنازل للقوافل على طول الطرق التجارية ، ولا سيما ذلك الطريق الذى كان يسير من الجنوب إلى الشمال ، من اليمن إلى فلسطين وسوريا وشبه جزيرة سيناء . وكانت أغنى المدن الواقعة على هذا الطريق هى مكة (ماكورابا فى الكتابات القديمة) ، وكانت ذات شهرة قبل الإسلام بزمن

---

(١) يسميهم سانت جريجوار "Mavrosii" ولفظ *Mavrosii* تحريف للفظ *Mauritanii* نسبة إلى *Mauritania* التى تعرف فى النصوص العربية بمرطانية .

(٢) *La Vie de Saint Grégoire Le Décapolite et les Slaves Macédoniens au* IX[e] *Siècle, ed. F. Dvornik* (Paris, 1926), p. 53 (par. 9). (المؤلف)

طويل . وكان بين التجار العرب كثير من النصارى فى الجزيرة العربية . وقد بلغ من انصراف أهل مكة إلى شؤونهم التجارية أن وصفهم أحد العلماء بقوله إن مكة « اكتسبت طابعاً ماديا ، وتركزت السلطة فيها فى يد جماعة متغطرسة[١] » وبعبارة أخرى كانت سوريا وفلسطين قبل الإسلام مرتبطتين اقتصاديا بالجزيرة العربية . وحتى فى القرآن — لو صح تفسير الآية — نقرأ أن رجال قريش كانوا يرسلون قوافلهم للخارج فى الشتاء والصيف[٢] . وكانت قريش تعنى عناية كبيرة بتأمين قوافلها التجارية التى كانت تتجه في الصيف شمالا إلى سوريا ، وفى الشتاء جنوباً إلى اليمن . ثم إن الحياة الاقتصادية المحلية فى الولايات البيزنطية الشرقية كانت لا تزال قائمة على أسس متينة قبل أن يستولى عليها العرب ، ومما يؤيد هذا أن الصناع البيزنطيين واصلوا عملهم تحت الحكم العربى .

---

(١) *Goldziher, Die Religion des Islams,* p. 103, *in Die Kultur der Gegenwart, ed. by P. Hinneberg, Teil I, Abt.* 3, *Die Religionen des Orients* (1913) Part I, ed. 2. (المؤلف)

(٢) القرآن الكريم ، سورة ١٠٦ ، آية ٢ . انظر مادة مكة بقلم الأب لامنس فى دائرة المعارف الإسلامية . (المؤلف)

وكان من الطبيعى ألا تجنى بيزنطة — بعد أن فقدت ولاياتها الشرقية — فائدة مباشرة من النظام الاقتصادى الذى قام هناك حين انتهت فترة العداء. ولكن الفائدة كانت عظيمة من ناحية غيرمباشرة، لأن الحياة الاقتصادية التى قامت على أسس متينة فى سوريا وفلسطين [بعد أن فتحهما العرب] كانت تساعد الإمبراطورية مساعدة لا بأس بها، طالما كان فى استطاعة بيزنطة أن تجدد علاقاتها التجارية مع الشرق. وعلى الرغم من كثرة الحروب فى آسيا الصغرى وشدة وطأتها فإنها لم تكن مستمرة. وقد أُتيح للإمبراطور والخلافة الإسلامية من فترات السلام ما أعانهما على تبين أهمية قيام العلاقات التجارية بينهما. فقد ظهر التجار البيزنطيون فى كثير من المدن العربية، وكان التجار كذلك يفدون على بيزنطة لإنجاز أعمالهم. وأصبحت طرابزون فى القرن العاشر أهم مركز للاتصالات التجارية بين بيزنطة وتجار المسلمين. وقال عنها المسعودى: « لها أسواق فى السنة يأتى إليها كثير من الأمم للتجارة من المسلمين والروم والأرمن وغيرهم »[(١)]. وفى سنة ٩٦١ م أفلحت الدولة البيزنطية فى استعادة جزيرة كريت

---

(١) المسعودى، مروج الذهب ج ٢ ص ٣ (طبعة باربييه دِمايينار باريس ١٨٦١) (المؤلف)

بعد أن فشلت فى ذلك مرتين ، ومن هنا استطاع الإمبراطور نقفور فوكاس أن يخاطب السفير الإيطالى ليوتبراند Liutprand بقوله : « وليس لسيدك أى سفن فى البحر ، ولدى وحدى حقا بحارة أشداء[١] » .

وكانت العلاقات الاقتصادية مع العرب غايةً فى الأهميـة لبيزنطة ، ولم تكن أهميتها لتقتصر على الناحية التجارية فحسب بل كانت تعزز مكانتها الدولية كذلك بالنسبة لغرب أوروبا . فـكان أكثر تجارة الشرق الإسلامى يُنقل قبل فترة الحروب الصليبية عن طريق بيزنطة ، وكانت هذه تجنى دخلا عظيما بفضل قيامها بدور الوسيط بين الشرق والغرب . ولـكن الصليبيين أقاموا علاقات تجارية مباشرة بين أوروبا والشرق ، حتى إن ازدهار بيزنطة الاقتصادى تلاشى بعد ذلك بقليل . وانتقل دور السيادة الاقتصادية إلى المدن الإيطالية وعلى رأسها البندقية وجنوة .

فإذا انتقلنا إلى ناحية العلاقات الثقافية المتبادلة بين بيزنطة والإسلام لم تكن لنا مندوحة عن أن ندخل فى حسابنا ما أخذته الحياة الفكرية العربية عن شعوب أجنبية عنها ؛ فعند ما انتقلت

---

(١) *Liutprand, Legatio, ch.* XI.

(المؤلف)

الخلافة من الأمويين إلى العباسيين ، وانتقلت عاصمة الدولة من الشام إلى بغداد ، بدأ الفرس يلعبون دورا هاما فى نشاط الخلافة الثقافى . ثم عرف العرب كنوز الثقافة الهلينية عن طريق الآراميين . ونقول باختصار إن التطور الثقافى عند العرب كان يرجع فى الغالب إلى نشاط أجنبى ومادة دخيلة . ويقول واحد من كبار المستشرقين الألمان : « كان على اليونان وفارس والهند ضريبة شفاء العقل العربى من عقمه[1] » .

وفى أثناء العصور الوسطى قبـل الحروب الصليبية كانت هناك ثلاثة مراكز ثقافية عالمية ، أحدها فى بلاد النصرانية والآخران فى بلاد الإسـلام ، وهى القسطنطينية على البسفور ، وبغداد وقرطبة على طرفى العالم الإسـلامى المتقابلين . وكانت القسطنطينية «المدينة التى يحرسها الله» «فخر اليونان» أغنى المدن وأبرزها فى العالم الوسيط . وكانت بغداد ، المدينة التى بُعثت فى الوجود « كما لو قامت بعصا ساحر » فى منتصف القرن الثامن ثانيةَ المدن بعـد القسطنطينية . وكان البلاط العبّاسى حديقـة حقيقية للمعرفة والعِلم والفنون . وكانت قرطبة فى إسبانيا فى القرن

---

(١) *Ed. Sachau, Alberuni's India*, Vol. I (London, 1888), p. XXVIII. (المؤلف)

العاشر أكثر المدن حضارة فى غرب أوروبا ، و « كانت تثير دهشة العالم وإعجابه » ؛ وكانت تضم سبعين مكتبة وتسعمائة حمّام عام .

وكانت الثقافة الهلينية المِلْكَ المشترك الذى استطاع أن يقرب ما بين بيزنطة ودولة الخلافة بعد فتح العرب لسوريا ومصر . ففى أديرة سوريا كان صغار الرهبان منكبّين على ترجمة المؤلفات الدينية وغير الدينية . وكان أرسطو يحتل بين الفلاسفة مكاناً رفيعاً ، وكان أبقراط (هبوكراتيس *Hippocrates*) وجالينوس يحتلاّن مكانة مشابهة بين أصحاب المؤلفات الطبية . ووجد النسطوريون ، الذين اضطهدتهم الحكومة البيزنطية وأدانهم المجمع الدينى العالمى الثالث فى سنة ٤٣١ م ، ملجأ فى فارس الساسانية ، وحملوا إليها علوم الإغريق . وقد قام كثير من العلماء زمن العباسيين بالاشتغال بالترجمات من اليونانية والبحث عن مخطوطات جديدة ، ووُجِّهت عناية خاصة نحو ترجمة المؤلفات الفلسفية والرياضية والطبية .

وعندما انتصرت الحركة اللاإيقونية فى القرن الثامن فى بيزنطة ، كان أحد المدافعين المتحمسين عن الإيقونات ، وهو يوحنا الدمشقى ، يعيش فى ظل الخلافة الإسلامية . ومع أن

الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ — ٧٢٤م / ١٠١ — ١٠٥ هـ) ، المعاصر للإمبراطور ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١م) ، كما تؤكد المصادر الموثوق بها ، كان قد أصدر[1] منشوراً قبل منشور ليو الثالث بثلاث سنين يأمر فيه بتحطيم جميع الصور فى كنائس رعاياه المسيحيين ، إلا أن يوحنا الدمشقى واصل عمله الأدبى دون أى إزعاج . ومن بين كتاباته المتعددة فى ميادين العقيدة والجدل الدينى والتاريخ والفلسفة والخطابة والشعر نجد ثلاث مقالات مشهورة عنوانها « الرد على الذين يحطون من شأن الصور المقدّسة » كتبها فى ظل الخلافة ، وأصبحت أمضى سلاح للمدافعين من البيزنطيين عن الإيقونات .

ولم يكن التسامح الدينى أحد مميزات الأنظمة البيزنطية . فمنذ عهد قنسطنطين الكبير ، الذى أعلن فى زمنه لأول مرة أن المسيحية ديانة شرعية ، يقدم لنا التاريخ البيزنطى أمثلة كثيرة

---

(١) أشارت الى ذلك الموضوع الأستاذة سيدة اسماعيل الكاشف فى كتابها « مصر فى فجر الإسلام » بقولها : « وقد أمر الخليفة يزيد ابن عبد الملك (١٠١ — ١٠٥هـ) فى سنة ١٠٤هـ بكسر الصلبان فى كل مكان ، ومحو الصور والتماثيل التى فى الكنائس ؛ وقد شمل هذا القرار اللاإيقونى (أو حركة كسر الصور) جميع بلاد الدولة الإسلامية » .

انظر سيدة اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، ص ٢٠١ .

بارزة من عدم التسامح الديني . ولقد كان أي انحراف عن عقيدة الأباطرة الحاكمين يُحارب وتُدينه المجامع ، حتى إن كثيراً من الطوائف والمذاهب التي ظهرت داخل الكنيسة المسيحية خلال العصور الوسطى اضطُهدت واعتُبرت خارجة على القانون ، رغم ما كان لها من أهمية من الوجهتين الدينيّة والسياسية . وأدّت سياسة عدم التسامح هذه إلى مشكلات سياسية خطيرة ، وخسرت الدولة بسببها كثيراً من الأراضي . ولكن موقف الحكومة البيزنطية من الإسلام كان مختلفاً . حقا ، لقد كانت المصادر البيزنطية في بعض الأحيان تهاجم الإسلام ، ومن هذا ما وصف به أحد المؤرخين البيزنطيين الإمبراطورَ ليو الثالث لميوله اللاإيقونية ، كما رأينا سابقاً ، بأنه « ذو عقلية عربية » . وكانت إحدى التهم التي وجهها المجمع اللاإيقوني في سنة ٧٥٤ م إلى يوحنا الدمشقي هي أنه « يميل إلى الإسلام » ، بيد أننا رأينا كيف أُنشيء جامع في القسطنطينية زمن ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) .

وفي سنة ١٠٠٩ م أمر الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي المختل العقل في مصر — وكانت فلسطين في طاعته — بهدم كنيسة القيامة في بيت المقدس . وبعد موته (١٠٢٠ م) عاد التسامح

مع المسيحية على عهده القديم خلال فترة طويلة ، فقد أبرم خلفه الخليفة الظاهر فى سنة ١٠٢٧ م اتفاقاً مع الإمبراطور قنسطنطين الثامن يُعدُّ تصويراً للعلاقات الدينية بين الإسلام والإمبراطورية ؛ فقد اتُّفق على أن يُدعى للخليفة الفاطمى فى جميع مساجد الدولة البيزنطية ، وأُذن بإعادة جامع القسطنطينية الذى كان قد هُدم ردًّا على هدم كنيسة القيامة فى بيت المقدس ، وعُين له مؤذِّن . ووافق الظاهر بدوره على السماح بإعادة بناء الكنيسة فى بيت المقدس .

ولم يكن البيزنطيون مولعين بالرحلات ، فليست هناك أوصاف لبغداد وانطاكية والقدس وقرطبة ، أو لعدد من الأماكن الأخرى الخاضعة للعرب كتبها رحّالة بيزنطيون . وكان عدد الرحالة المسلمين الذين زاروا القسطنطينية أو أماكن أخرى فى الإمبراطورية قبل الحروب الصليبية قليلا جداً .

وأول رحّالة عربى وصف القسطنطينية هو هرون بن يحيى — فيما نعلم — فقد زار القسطنطينية إما فى زمن الإمبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦م) أو فى زمن الإسكندر

(٩١٢ — ٩١٣ م[1]) ، ولم يكن تاجراً ولا سائحاً وإنما كان أسيراً وقع فى أيدى البيزنطيين فى مكان ما فى آسيا الصغرى ، وأتى به عن طريق البحر إلى العاصمة ، فوصف ما رآه بعينيه من أبواب المدينة والهبدروم والقصر الإمبراطورى ، واستلفت نظره الأرغن الذى سمعه هناك ، ووصف كذلك موكبَ الإمبراطور المهيب إلى الكنيسة الكبرى « أياصوفيا » وتمثالَ جستنيان ، وقناطر المياه ، و بعض الأديرة القائمة حول القسطنطينية وغيرها من الأشياء . وفى طريقه من القسطنطينية إلى روما زار مدينة أخرى هامة فى الإمبراطورية وهى سالونيك « تسالونيكا » . ويعطينا وصف هرون بن يحيى مادة شيقة جداً لطوبوغرافيــة القسطنطينية ولبعض احتفالات البلاط والاحتفالات الدينية التى قد تعوّضنا عن دراسة مفصّلة .

وقد زار القسطنطينية فى القرن العاشر مسلم آخر وهو المسعودى ، الجغرافى والمؤرخ المشهور الذى أنفق معظم حياته فى

---

(١) *A. Vasiliev, "Harun — ibn — Yahya and his description of Constantinople". G. Ostrogorsky, "Zum Reisebericht des Harun — ibn — Yahya". Both Studies in Seminarium Kondakovianum,* Vol. V (1932), pp. 149—63, 251—7. (المؤلف)

الرحلات. ولما كان متلهفا على رؤية عاصمة «ملوك الروم النصارى»[(١)] فقد زار المدينة أثناء عهد الأسرة المقدونية الباهر، وترك وصفا موجزا لها، ويقول: «ولم تزل الحكمة باقية عالية زمن اليونانيين وبرهة من مملكة الروم تعظم العلماء وتشرف الحكماء»[(٢)].

وعلى رغم الحروب التى كانت مستمرة غالبا بين بيزنطة والعرب فى المشرق، كان الاتصال الثقافى مستمرا بين هذين العدوين اللذين يبدو لأول وهلة أن التقريب بينهما كان مستحيلا. ولما كان الخلفاء يدركون تفوق الثقافة البيزنطية من عدة وجوه فقد كانوا يلجأون إلى الأباطرة فى طلب المساعدة فى المشاريع الثقافية. ومن ذلك ما فعله الخليفة الوليد الأول (٧٠٥ — ٧١٥م) عندما طلب من الإمبراطور أن يرسل له بعض الصناع لتزيين جوامع دمشق والمدينة وبيت المقدس بالفسيفساء. وحدث خلال القرن العاشر الميلادى أن كتب الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٧٦م)، خليفة قرطبة الأموى، إلى إمبراطور بيزنطة يرجوه أن يرسل له أحد صناع الفسيفساء لتزيين مسجد قرطبة

---

(١) الروم هم الرومان، ويستعمل كُتاب العرب هذا اللفظ للدلالة على البيزنطيين الإغريق فى العصور الوسطى. وكان لفظ «الروم» يطلق أيضاً على آسيا الصغرى. (المؤلف)

(٢) انظر المسعودى ج ١ (طبعة بولاق) ص ١٥٣ — ١٥٤.

الجامع . وقد « أمر » الحكم المستنصر ، كما يقول مؤرخ عربى ، الإمبراطورَ بأن يبعث له صانعا قديرا ليقلد ما فعله الوليد لإتمام جامع دمشق . وقد اصطحب رسل الخليفة عند رجوعهم إلى الأندلس خبيرا بأعمال الفسيفساء من القسطنطينية ، وعددا لا بأس به من مكعبات الفسيفساء التى أرسلها الإمبراطور هدية منه . وقد جعل الخليفة عددا من الرجال مع هؤلاء الصناع ليأخذوا هذه الصناعة عنهم ، وذلك ليكون عند الحكم بعد رجوعهم عدد من الماهرين فى هذا الفن . وأرسل الإمبراطور قنسطنطين بورفيروجينتوس أيضا فى القرن العاشر مائة وأربعين عمودا للخليفة الأندلسى عبد الرحمن الثالث الذى كان عندئذ مشتغلا ببناء مدينة الزهراء ، محل إقامته المفضل لديه ، إلى جوار قرطبة . وكان يعيش فى القسطنطينية فى القرن العاشر زمن الإمبراطور ثيوفيلوس رياضى بارز يسمى ليو . وقد بعُد صيته خارج بلاد الدولة بفضل تلاميذه ، حتى إن الخليفة المأمون ، وهو مشجع نشيط للتعليم فى بلاده ، سأله الحضور إلى بلاطه . ولما سمع ثيوفيلوس بهذه الدعوة قرَّرَ لليو مرتبا وعيّنه معلما للناس فى إحدى كنائس القسطنطينية . ومع أن المأمون أرسل رسالة شخصية لثيوفيلوس يطلب منه أن يسمح لليو بالحضور إلى بغداد لفترة قصيرة ، وقال إنه يعتبر ذلك

عملا وديا ، ويعرض فى مقابل ذلك ، كما تؤكد الرواية ، صلحاً دائما وألفى قطعة ذهبية فقد رفض الإمبراطور إجابة مطلبه . وفى القرن التاسع أيضا أرسل الخليفة الواثق (٨٤٢ — ٨٤٧م) إلى إفيسوس عالما ليزور الكهوف التى كانت محفوظة فيها جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا أيام دقليديانوس ، وذلك « بتفويض خاص من الإمبراطور ميخائيل الثالث » ، كما تقول الروايات . ولهذه المناسبة أرسل الإمبراطور البيزنطى رجلا ليكون دليلا للعالِم العربى . وإننا لا نستطيع رفض قصة هذه الرحلة ، التى أوردها كاتب عربى فى القرن التاسع ، لأنها صادرة عن كاتب معاصر ، فهى تُرينا أنه حتى فى الوقت الذى كانت العداوات فيه شديدة متصلة بين بيزنطة والعرب ، كان من الممكن أن يقوم بينهما نوع من التبادل العلمى : فقد كان هدف البعثة منسجما انسجاما مطلقا مع عقلية العصور الوسطى .

ولقد أثرت الحروب العربية — البيزنطية فى الأدب فى كلا البلدين . فقد خلقت الاشتباكات العسكرية نموذجا لبطل قومى يتصف بالبسالة والإقدام والكرم ، وأصبح بعض هؤلاء الأبطال شخصيات أسطورية وُهبت قوة خارقه (فوق مستوى البشر) وتقوم بأعمال عجيبة . ومن ذلك محارب عربى اسمه

عبد الله البطّال ، ربما يكون قد استشهد فى معركة اكروينون فى آسيا الصغرى سنة ٧٤٠ م[١] ، فأصبح هذا البطل الإسلامى فيما بعد النموذج الحى التاريخى للبطل التركى القومى الأسطورى سيد بطّال غازى الذى لا يزال قبره يشاهد فى إحدى القرى جنوب اسكى شهر (دور يليوم *Dorylaeum* فى العصور الوسيطة) فى آسيا الصغرى . وفى القرن العاشر أوجد الحمدانيون فى حلب فى سوريا مركزا لنشاط أدبى زاهر فى بلاطهم . وأطلق المعاصرون على عهد الحمدانيين اسم « العصر الذهبى » . ولم يقتصر شعراء عهدهم على معالجة مواضيع الشعر العربى العادية بل تعدوها إلى تمجيد أعمال المسلمين فى الحروب مع بيزنطة . وتدور ملحمة البطولة البيزنطية المشهورة التى نشأت حول شخصية ديجينيس أكريتاس — وهى ملحمة من ملاحم أعمال الأبطال "*Chanson de geste*" تصور أعمال هذا البطل القومى اليونانى الخالدة — حول شخص حقيقى كان قد قتل فى الحرب ضد العرب فى آسيا الصغرى فى سنة ٧٨٨ م على ما يظهر . وقبر البطل نفسه يوجد غير بعيد من سُمَيْساط . وهذه الملحمة وما يسمى بالأغنيات

---

(١) ورد فى الطبرى ج ٢ ص ١٧١٦ عند الكلام على حوادث سنة ١٢٢ هـ : « وفيها قتل عبد الله البطال فى جماعة من المسلمين بأرض الروم »

الشعبية الأكريتية [نسبة لأكريتاس] تصور الحروب بين العرب و بيزنطة تصويرا جميلا ودقيقا فى حالات كثيرة ، وخاصة حروب القرن التاسع عند ما انتصرت الجيوش العربية فى سنة ١٣٨ م (٢٢٣ هـ) انتصارا عسكريا عظيما على الفرق البيزنطية فى عمورية فى فريجيا . وقد تمخضت الأبحاث الباهرة التى تمت أخيرا فى ميدان أشعار البطولة البيزنطية والعربية والتركية عن مسألة فى غاية الأهمية ، وهى مسألة الارتباط الوثيق بين ألف ليلة وليلة و بين شعر البطولة اليونانى وملحمة سيد البطال التركية ، التى لم تدخل فى دائرة الشعر التركى إلا بعد نقلها إلى اللغة التركية وأصلها عربى . فملحمة ديجينيس أكريتاس اليونانية مصدر غنى للمعلومات عن العلاقات الثقافية بين بيزنطة والعرب .

وقد انتقلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغة اليونانية ، وكلمات يونانية كثيرة إلى اللغة العربية نتيجة للاتصال المتبادل بين العرب والروم ؛ فهذه الكلمات المنقولة ، سواء أكانت عربية أم يونانية ، كثيراً ما أخذت صوراً محرفة إلى درجة لا نستطيع معها أن نصل إلى الأصل المختفى وراءها . ومثل هذه الاستعارات اللفظية يمكن ملاحظتها فى الغرب فى الأندلس ، حيث دخلت كلمات عربية كثيرة إلى اللغتين الإسبانية والبرتغالية .

إن الفترة التى تبتدئ منذ الحروب الصليبية إلى سقوط القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣ م كانت تختلف اختلافاً بيناً عن الدور السابق فيما يختص بمدى العلاقات المتبادلة بين بيزنطة والإسلام . وقد توالت فى تاريخ الشرق الأوسط ثلاثة أجناس احتلت المركز الأول فى أموره السياسية واحداً بعد الآخر : ففى القرن الحادى عشر أسس السلاجقة الأتراكُ فى آسيا الصغرى سلطنة الروم وعاصمتها قونيه *(Iconium)* ، وفى القرن الثالث عشر هزم المغول السلاجقة ، وفى الرابع عشر والخامس عشر أقام الأتراك العثمانيون سيادتهم حين غزوا آسيا الصغرى ومعظم شبه جزيرة البلقان ووضعوا أيديهم على القسطنطينية فى سنة ١٤٥٣م ، وبذلك قرروا المصير السياسى لبقايا الإمبراطورية البيزنطية . وخلال هذه الفترة كانت المصالح السياسية تفوق المصالح الاقتصادية والثقافية فى العلاقات بين بيزنطة والإسلام .

وقد ظلت آسيا الصغرى ، على رغم الصراع الطويل الذى نشب بين الإسلام والنصرانية فى ميادينها ، مسيحية حتى بدأ السلاجقة تقدمهم فيها خلال القرن الحادى عشر . ولم يُدخل السلاجقة الإسلامَ فى هذه البلاد — التى فتحوها والتى غلب الإسلام فيما بعد على أهلها — إلا فى القرن الحادى عشر . وقد تغير

الموقف السياسى فى آسيا الصغرى نتيجة لذلك تغيّراً حاسماً . ففى سنة ١٠٧١ م سحق السلاجقة الجيشَ البيزنطى وأسروا الإمبراطور رومانوس ديوجينيس فى موقعة ملاذ كرد (منزيكرت) فى أرمينية . وفى نفس ذلك العام استولوا على بيت المقدس ونهبوها . ومن ذلك الحين صار الإسلام خطراً حقيقيًّا يهدد بيزنطة بعد أن أصبح لواؤه بأيدى السلاجقة دون العرب . ولا معنى لأن نتصور ما كان من الممكن أن يحدث فى الشرق الأوسط عند نهاية القرن الحادى عشر لو أن الصليبيين لم يظهروا فى القسطنطينية ويفتحوا بذلك صفحة جديدة فى تاريخ العالم .

لقد ظهرت فى القرن الثامن مسألة الصراع العالمى بين العالم المسيحى الأوروبى كله والدولة الإسلامية القوية . وكانت الأخيرة هى البادئة بالعدوان ، أى أن الشرق هدد الغرب فى هذا الدور . وعند نهاية القرن الحادى عشر تجدد هذا الصراع العالمى بين العالم المسيحى الأوروبى كله وبين العالم الإسلامى مرة أخرى بوضوح . وفى هذا الدور هدد الغربُ الشرقَ ، وبدأت بهذا فترة الحروب الصليبية ، تلك الفترة الحافلة بالنتائج السياسية والاقتصادية والثقافية ، والتى كانت خطراً داهماً على الإمبراطورية البيزنطية ، وعظيمة الفائدة لغرب أوروبا . وكان المسلمون فى ذلك الحين

تسودهم الفوضى والاضطراب . ويقول مؤرخ عربى معاصر [وهو ابن القلانسى] فى سنة ١٠٩٧ م ٤٠٩ هـ « وفى هذه السنة كان مبدأ تواصل الأخبار بظهور عساكر الإفرنج من بحر القسطنطينية فى عالم لا يحصى عدده كثرة ، وتتابعت الأنباء بذلك فقلق الناس لسماعها وانزعجوا لاشتهارها[1] » .

وكان موقف الإمبراطورية البيزنطية شديد التعقيد فى الحروب الصليبية التى كانت عملاً أوروبيًّا خالصاً ، فلم تكن هناك فكرة عن أى حرب صليبية فى بيزنطة . وكانت مسألة استعادة فلسطين خيالية إلى حد بعيد ، ولم تكن حيوية بالنسبة للإمبراطورية ، إذ لم يكن هناك عداء دينى بينها وبين الإسلام ، ولم يكن هناك خطباء يحرضون على القيام بالحروب الصليبية فى بيزنطة . وقد أُقحمت الإمبراطورية الشرقية فى غمرة الحرب الصليبية الأولى على رغمها ، فقد كان هدف الإمبراطورية هو الحصول على بعض المعاونات فى حربها مع الأتراك ، ولم يكن لهذا الأمر علاقة بالحملة على فلسطين . وكانت السنوات التى سبقت الحرب الصليبية الثالثة هامة إذا نظرنا إليها من ناحية موقف بيزنطة حيال الحركة الصليبية . ففى اللحظة التى بدأت فيها الحرب الصليبية فتح

(١) انظر ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٤ .

الإمبراطور إسحاق أنجيلوس باب المفاوضات مع صلاح الدين الذى وُجهت تلك الحرب ضده ، وعَقد معه محالفة ضد سلطان الروم السلاجقة فى قونية .

لقد دفعت بيزنطة ثمناً غالياً لاضطرارها إلى الاشتراك على رغمها فى الحملات التى سارت لحرب الإسلام . ففى سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على القسطنطينية ونهبوها وأسسوا إمبراطورية لاتينية . وحين استعاد آل باليولوجوس القسطنطينية فى سنة ١٢٦٧م كانوا أضعف من أن يقوموا بأى محاولة خطيرة لاستعادة ما فقدوه مما أخذه منهم الأتراك السلاجقة .

« ولو قد كان هناك فى آسيا الصغرى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر عنصرٌ غالب له ماض تاريخى وقائد قوى لكان من المحتمل أن نشاهد انتعاشاً فى سلطنة قونية ، أو لربما رأينا انتعاشاً للهلينية بعد أن تُطعّم بها سلالة جديدة ، فتستطيع فى هذه الحالة أن تضع أسساً جديدة فى ظل الإمبراطورية البيزنطية ، وذلك باستعادة المقاطعات الأسيوية وغزوها من جديد . ولكن المغول والصليبيين قاموا بعملهم على صورة أكمل مما ينبغى . فقد أقفل اللاتين فى القسطنطينية ، والمغولُ فى فارس وبلاد الجزيرة ، السبيلَ أمام أى انتعاش سواء أكان للمسلمين

العرب أم للتقاليد الإغريقية المسيحية[1] » .

وقد رأينا فيما سلف أن الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة البيزنطية من سنة ١٢٦١ — ١٤٥٣ م إنما كانت فترة صراع سياسى مستيئس ؛ فقد كانت الإمبراطورية فى الواقع تحتضر احتضاراً طويلا فى أثناء صراع بقاياها مع الإسلام ، ولم يكن صراع نِدٍّ لند ، وكان يحمل لواءه هذه المرة الأتراكُ العثمانيون .

ونتيجة لهذا لم يكن هناك تقريباً أى تبادل ثقافى بين بيزنطة والإسلام فى الفترة التى مرت بين الحروب الصليبية وسقوط الإمبراطورية : اضطرب سير التجارة وفقدت تنظيمها ، ولم تعد تسير فى أوقاتها ، وضاع الكثير من كنوز الثقافة الإسلامية . ولم يكن السلاجقة أو العثمانيون فى ذلك الوقت أهلا للسير بشئون الثقافة الحقيقية أو لبثّ الحياة فى كيانها . وأضحى التعاون مع الإمبراطورية الشرقية مستحيلا .

وخلال هذه الفترة زار القسطنطينية أربعة من الرحالة العرب وتركوا لنا أوصافاً للمدينة : زارها اثنان منهم فى أثناء حكم أسرة

---

(١) H. A. GIBBONS, *The Foundation of the Ottoman Empire* (New York, 1916), pp. 13—14. (المؤلف)

آل كومنين الباهر فى القرن الثانى عشر . ويعطينا أحدهما وهو أبو الحسن على بن أبى بكر الهروى فى كتابه « الإشارات إلى معرفة الزيارات » وصفاً موجزاً لأهم آثار العاصمة ، وهو يخص بالذكر بعض الآثار التى لها علاقة بالإسلام ، ويؤكد مرة أخرى تسامحَ بيزنطة الدينى مع المسلمين ، فيقول إنه كان يقوم « فى جانب سورها قبر أبى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها الجامع الذى بناه مسلمة بن عبد الملك والتابعون ، وبه قبر رجل من ولد الحسين رضى الله عنه[1] » . ويقول فى نهاية وصفه للقسطنطينية : « وهذه المدينة أكبر من اسمها ، نسأل الله تعالى أن يجعلها دار إسلام بمَنِّه وكرمه إن شاء الله تعالى[2] » . وقد أُجيب دعاؤه فى سنة ١٤٥٣ م .

أما الثانى ، وهو الإدريسى ، الجغرافى المشهور الذى ولد فى سبتة ، فقد زار القسطنطينية فى القرن الثانى عشر . ووفد عليها فى زمن آل باليولوجوس اثنان من الرحالة العرب ووصفاها : أولهما هو المؤرخ الجغرافى العربى أبو الفداء ، وقد زارها فى بداية القرن الرابع عشر وشاهد آثار اضمحلال العاصمة ، وقال : « وداخل

(١) انظر رحلة الهروى ص ٤٨ — ٤٩ (مخطوط دار الكتب المصرية) .

(٢) نفس المخطوط ص ٤٩ .

سورها مزارع و بساتين ، و بالمدينة خراب كثير[١] » .

وثانيهما هو الرحّالة المغربى الذائع الصيت ابن بطوطة ، الذى ولد فى طنجة ، وزار القسطنطينية فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وخلّف لنا وصفاً ممتعاً يفيض حيوية . ويقول : إن قافلته عندما وصلت أول بوابة للقصر الإمبراطورى وجد رجالُها عندها حوالى مائة رجل « سمعتهم يقولون : سرا كِنو ! سرا كِنو ! ومعناه المسلمون[٢] » ، ونزل ضيفاً على الإمبراطور ، وأظهر سكان القسطنطينية نحوه وداً كبيراً ؛ ويقول ابن بطوطة : « دخلت سوق الكتاب فرآنى القاضى فبعث لى أحد أعوانه ، فسأل الرومى الذى معى فقال له : إنه من طلبة المسلمين . فلما عاد إليه وأخبره بذلك بعث إلىّ أحدَ أصحابه ، وهم يسمون القاضى النجشى كفالى ؛ فقال لى : النجشى كفالى يدعوك ، فصعدتُ إليه إلى القبة التى تقدم ذكرها ، فرأيت شيخاً حسن الوجه واللمة عليه لباس الرهبان ، وهو الملف الأسود ، وبين يديه نحو عشرة من الكتاب يكتبون ، فقام إلى وقام أصحابه وقال : أنت ضيف الملك ويجب علينا إكرامك ، وسألنى عن بيت المقدس والشام ومصر

(١) أبو الفداء ، تقويم البلدان طبعة باريس (١٨٤٠) ص ٢١٣ .
(٢) رحلة ابن بطوطة ج ٢ طبعة باريس ص ٤٢٥ — ٤٢٦ .

وأطال الكلام وكثر عليه الازدحام ، وقال لى : لابد لك أن تأتى إلى دارى فأضيفك ، فانصرفت عنه ولم ألقه بعد[١] » .

وعند ما اشتد خطر الأتراك العثمانيين ، بدأنا نلاحظ عند أهل العاصمة نمو شعور العداء للإسلام . ويقول مؤرخ بيزنطى من مؤرخى القرن الرابع عشر إنه بينما كانت الصلاة تجرى ذات مرة فى الكنيسة الإمبراطورية ، غضب الناس عند ما رأوا أتراكا عثمانيين ، ممن سُمح لهم بدخول العاصمة ، يرقصون ويغنون على مقربة من القصر « يرددون فى أصوات غير مفهومة أغانى محمد وتراتيله فصرفوا الناس بهذا عن الكتب المقدسة » . وقد صنف الإمبراطور مانويل الثانى أو فى رسالة كتبت فى بيزنطة فى الرد على الإسلام وتعاليمه ، فهو يعرّف الإسلام بأنه « ضلالة تسمى عقيدة » . ويتحدث عن محمد فى لهجة ملؤها الجرأة . وعلى رغم ذلك كله كانت غالبية الشعب فى عشية الكارثة القاضية تنفر من أى اتفاق مع كنيسة روما الكاثوليكية أكثر من نفورها من الإسلام . ولا زال الناس يرددون تلك القالة المأثورة ، التى صدرت عن رئيس دينى بيزنطى يُدعى لوكاس ناتوراس فى ذلك

(١) رحلة ابن بطوطة طبعة باريس ج ٢ ص ٤٤٣ — ٤٤٤ . وقد اكتفى المؤلف هنا بذكر إشارة ابن بطوطة إلى دعوة القاضى له ، فرأينا أن نثبت هنا نص ابن بطوطة كله .

الحين ، وهى « إنه لخير لنا أن نرى العمامة التركية فى مدينتنا من أن نرى فيها تاجَ البابويّة » .

وفى سنة ١٤٥٣ م سقطت القسطنطينية ، روما الثانية ، ودخلها السلطان محمد الثانى « المنذر بقدوم الدجال وشبيه سنحاريب » . وأقام الأتراك العثمانيون إمبراطورية العسكرية على أطلال الإمبراطورية الشرقية المسيحية . وكان لهذا الانتصار الذى أحرزه الإسلام على المسيحية أصداء بعيدة فى روسيا النائية ، ووقع فى روْع كثير من الروس أنهم أصحاب التراث البيزنطى الثقافى ، فوجب عليهم لهذا الدفاع عن العقيدة الأرثوذكسية ضد الإسلام .

وأخيراً ربما كان التأثير الثقافى للإمبراطورية البيزنطية والإسلام معاً ظاهراً فى أصول ما يسمى بالنهضة الإيطالية وتقدمها . فتلك العلوم القديمة والمعارف المختلفة ، التى حافظت عليها بيزنطة بعناية والتى عُنى بها العرب وأتقنوها ، قُدر لها أن تلعب دوراً أساسياً فى خلق جو ثقافى جديد فى إيطاليا ، وأصبحت حلقة واصلة بين الثقافة القديمة وحضارتنا الراهنة . وفى هـذا المجال نرى بين أيدينا مثلا للتعاون الثقافى بين هاتين القوتين اللتين كانتا أقوى وأخصب ما عرفه العصر الوسيط ، وهما بيزنطة والإسلام .

ا . ا . ڤازلييف

ملحـــق ٣

أباطرة الدولة الرومانية الشرقية

من قنسطنطين الأول إلى قنسطنطين الحادي عشر

نقلا عن كتاب

الحضارة البيزنطية

تأليف

ستيفن رونسمان

STEVEN RUNCIMAN : *Byzantine Civilization*, pp. 301—305 (London 1948)

كان بعض أباطرة الدولة البيزنطية يشتركون فى الحكم كشركاء للإمبراطور القائم أو معاونين له قبل أن ينفردوا بالسلطان ، وقد كتبنا أسماءهم حين حكموا على هذه الصورة بالخط الصغير ، ثم عدنا فكتبنا أسماءهم بالحرف الكبير عند ما تولوا منفردين .

أسرة قنسطنطين :

قنسطنطين الأول ، الكبير توفى سنة ٣٣٧ .

قنسطنطيوس ٣٣٧ — ٣٦١ . حكم منفرداً بعد سنة ٣٥١ .

يوليان المرتد ٣٦١—٣٦٣ . حكم منفرداً

يوفيان *Jovian* ٣٦٣—٣٦٤ . حكم منفرداً .

ڤالنس ٣٦٤—٣٧٨ .

أسرة ثيودوسيوس :

ثيودوسيوس الأول ، الكبير ٣٧٩—٣٩٥ حكم منفرداً بعد سنة ٣٩٢

أركاديوس ٣٩٥—٤٠٨ .

ثيودوسيوس الثانى ٤٠٨—٤٥٠ . كان انثيميوس وصيا من سنة ٤٠٨—٤١٤ .

مارقيان *Marcian* ٤٥٠—٤٥٧ .

أسرة ليو :

ليو الأول ٤٥٧—٤٧٤ .

ليو الثانى	٤٧٤ .
زينون	٤٧٤ — ٤٩١ باسيليسكوس المغتصب ٤٧٥ — ٤٧٦ .
أناستاسيوس الأول	٤٩١ — ٥١٨ .

أسرة جستنيان :

جستين الأول	٥١٨ — ٥٢٧ .
جستنيان الأول	٥٢٧ — ٥٦٥ .
جستين الثانى	٥٦٥ — ٥٧٨ صوفيا وصية من ٥٧٣ إلى ٥٧٤ ، وطيباريوس وصياً من ٥٧٤ إلى ٥٧٨ .
طيباريوس الثانى	٥٧٨ — ٥٨٢ .
موريس	٥٨٢ — ٦٠٢ .
ثيودوسيوس، شريك فى العرش	٥٩٠ — ٦٠٢ .
فوكاس *Phocas*	٦٠٢ — ٦١٠ .

أسرة هرقل :

هرقل الأول	٦١٠ — ٦٤١ .
قنسطنطين الثالث	٦١٣ — ٦٤١ .
هرقليوناس	٦٣٨ — ٦٤١ .

قنسطنطين الثالث ٦٤١ .

هرقليوناس ٦٤١ مارتينة Martina وصية ٦٤١ .

قنسطانز الثانى ٦٤١ — ٦٦٨ .

قنسطنطين الرابع ٦٥٩ — ٦٦٨ .

هرقل ٦٥٩ — ٦٨١ .

طيباريوس ٦٥٩ — ٦٨١ .

قنسطنطين الرابع ، بوجونات Pogonatus (= ذو اللحية) ٦٦٨ — ٦٨٥ .

جستنيان الثانى ، رينوتميتوس Rhinotmetus (المجدوع الأنف) ٦٨٥ — ٦٩٥ .

ليونتيوس Leontius ٦٩٥ — ٦٩٨ .

طيباريوس الثالث ، ابسيمار Apsimar ٦٩٨ — ٧٠٥ .

جستنيان الثانى ، رينوتميتوس ٧٠٥ — ٧١١ للمرة الثانية

طيباريوس ٧٠٦ — ٧١١ .

فيليبيكوس Philippicus ، باردانس Bardanes ٧١١ — ٧١٣ .

أناستاسيوس الثانى ، ٧١٣ — ٧١٥ .

ارتميوس *Artemius*

ثيودوسيوس الثالث ٧١٥ — ٧١٧ .

الأسرة الإيسورية :

ليو الثالث ، الإيسورى ٧١٧ — ٧٤٠ .

قنسطنطين الخامس ٧٢٠ — ٧٤٠ .

قنسطنطين الخامس ، ٧٤٠ — ٧٧٥ .

كوبرونيموس *Copronymus*

ليو الرابع ٧٥٠ — ٧٧٥ .

ليو الرابع ، الخزرى ، *Chazar* ٧٧٥ — ٧٨٠ :

قنسطنطين السادس ٧٧٦ — ٧٨٠ .

قنسطنطين السادس ٧٨٠ — ٧٩٧ إيرينى وصية

٧٨٠ — ٧٩٠،٧٩٢—٧٩٧ .

إيرينى ٧٩٧ — ٨٠٢ .

نقفور الأول ٨٠٢ — ٨١١ .

ستوراكيوس ٨١١ .

ميخائيل الأول ، رانجاب ٨١١ — ٨١٣ .

Rhangabe

ليو الخامس ، الأرمنى ٨١٣ — ٨٢٠ .

الأسرة العمورية [الفريجية] :

ميخائيل الثانى ، العمورى ٨٢٠ — ٨٢٩ .
ثيوفيلوس ٨٢١ — ٨٢٩ .
ثيوفيلوس ٨٢٩ — ٨٤٢ .
ميخائيل الثالث ، السكير ٨٤٢ — ٨٦٧
ثيودورا وصية ٨٤٢ — ٨٥٦ ،
بارداس وصياً ٨٦٢ — ٨٦٦
باسيل الأول ٨٦٦ — ٨٦٧ .

الأسرة المقدونية :

باسيل الأول المقدونى ٨٦٧ — ٨٨٦ .
قنسطنطين ٨٦٩ — ٨٨٠ .
ليو السادس ٨٧٠ — ٦٨٦ .
الإسكندر ٨٧١ — ٩١٢ .
ليو السادس ، الحكيم ٨٨٦ — ٩١٢ .
قنسطنطين السابع ٩١١ — ٩١٣ .
الإسكندر ٩١٢ — ٩١٣ .
قنسطنطين السابع ، الأرجوانى ٩١٣ — ٩١٩ مجلس وصاية ٩١٣
Porphyrogennetus زوى كاربوبسينا *Carbopsina*
وصية ٩١٣ — ٩١٩ .
رومانوس الأول ، ٩١٩ — ٩٤٤ .
ليكابينوس *Lecapenus*

قنسطنطين السابع ٩١٩ — ٩٤٤ .

كرستوفر ليكابينوس ٩٢١ — ٩٣١ .

ستيفن ليكابينوس ٩٢٤ — ٩٤٥ .

قنسطنطين ليكابينوس ٩٢٤ — ٩٤٥ .

قنسطنطين السابع ، بورفيروجينتوس ٩٤٤ — ٩٥٩ .

رومانوس الثانى حوالى ٩٥٠ — ٩٥٩ .

رومانوس الثانى ٩٥٩ — ٩٦٣ .

باسيل الثانى ٩٦٠ — ٩٦٣ .

قنسطنطين الثامن ٩٦١ — ١٠٢٥ .

باسيل الثانى ، سفاح البلغار ٩٦٣ ، ثيوفانو

Bulgaroctonus وصية ٩٦٣ .

نقفور الثانى فوكاس *Phocas* ٩٦٣ — ٩٦٩ .

باسيل الثانى ٩٦٣ — ٩٧٦ .

يوحنا الأول ، تسيمسكيس ٩٦٩ — ٩٧٦ .

باسيل الثانى ، سفاح البلغار ٩٧٦ — ١٠٢٥ .

قنسطنطين الثامن ١٠٢٥ — ١٠٢٨ .

رومانوس الثالث، ارجيروس *Argyrus* ١٠٢٨ — ١٠٣٤ .

ميخائيل الرابع ، البفلاجونى ١٠٣٤ — ١٠٤١ .

ميخائيل الخامس، الشماع *the Calfat* ١٠٤١ — ١٠٤٢ .

زوى وثيودورا ، الأرجوانيتان ١٠٤٢ .

Porphyrogennetae

قنسطنطين التاسع ، مُنوماخوس ١٠٤٢ — ١٠٥٥ .
Monomachus

ثيودورا ، الأرجوانية ١٠٥٥ — ١٠٥٦ .
Porphyrogenneta

ميخائيل السادس ، ستراتيوتيكوس ١٠٥٦ — ١٠٥٧ .
Stratioticus

إسحاق الأول ، كومنينوس ١٠٥٧ — ١٠٥٩ .

أسرة دوكاس :

قنسطنطين العاشر ، دوكاس ١٠٥٩ — ١٠٦٧ .

ميخائيل السابع حوالى ١٠٦٠ — ١٠٦٧ .

ميخائيل السابع ، پارابينيسز ١٠٦٧ — ١٠٦٨ .
Parapinaces

إيدوخيا ماكريمبوليتسا
Macrembolitissa وصية
١٠٦٧ — ١٠٦٨ .

رومانوس الرابع ، ديوجينيس *Diogenes* ١٠٦٨ — ١٠٧١ .

ميخائيل السابع ١٠٦٨ — ١٠٧١ .

ميخائيل السابع پارابينيسز ١٠٧١ — ١٠٧٨ .
Parapinaces

نقفور الثالث ، بوتانياتيس ١٠٧٨ — ١٠٨١ .
Botaniates

أسرة كومنين :

ألكسيوس الأول ، كومنينوس	١٠٨١ — ١١١٨ .
قسطنطين دوكاس	١٠٨١ — حوالى ١٠٩٠ .
يوحنا الثانى	١٠٩٢ — ١١١٨ .
يوحنا الثاني ، كالوجوهانيز Calojohannes	١١١٨ — ١١٤٣ .
ألكسيوس	١١١٩ — ١١٤٢ .
مانويل الأول	١١٤٣ — ١١٨٠ .
ألكسيوس الثانى	١١٧٢ — ١١٨٠ .
ألكسيوس الثانى	١١٨٠ — ١١٨٣ مارية الأنطاكية ، وصية
	١١٨٠ — ١١٨٢ .
اندرونيكوس الأول	١١٨٢ — ١١٨٣ .
اندرونيكوس الأول	١١٨٣ — ١١٨٥ .

أسرة أنجيل :

إسحاق الثانى ، أنجيلوس	١١٨٥ — ١١٩٥ .
ألكسيوس الثالث	١١٩٥ — ١٢٠٣ .
ألكسيوس الرابع	١٢٠٣ — ١٢٠٤ .
إسحاق الثانى	١٢٠٣ — ١٢٠٤ .

ألكسيوس الخامس ، مورتزوفلوس ١٢٠٤ .
Murtzuphlus

أسرة الأشاكرة :

(إمبراطورية نيقية ، ١٢٠٤ — ١٢٦١)

ثيودور الأول الأشكرى ١٢٠٤ — ١٢٢٢ .

يوحنا الثالث ، دوكاس ڤاتاتزيس ١٢٢٢ — ١٢٥٤ .
Vatatzes

ثيودور الثانى ، الأشكرى ڤاتاتزيس ١٢٥٤ — ١٢٥٨ .

يوحنا الرابع ، دوكاس ڤاتاتزيس ١٢٥٨ .

أسرة باليولوجوس :

ميخائيل الثامن ، باليولوجوس ١٢٥٨ — ١٢٨٢ .

اندرونيكوس الثانى ١٢٧٢ — ١٢٨٢ .

اندرونيكوس الثانى ١٢٨٢ — ١٣٢٨ .

ميخائيل ١٢٩٥ — ١٣٢٠ .

أندرونيكوس الثالث ١٣٢٥ — ١٣٢٨ .

اندرونيكوس الثالث ١٣٢٨ — ١٣٤١ .

يوحنا الخامس ١٣٤١ — ١٣٤٧ .

حنة أميرة سافوى ، وصية :

١٣٤١ — ١٣٤٧

يوحنا السادس ، كانتا كوزينى ١٣٤٧ — ١٣٥٥ .
Contacuzene

يوحنا الخامس ١٣٤٧ — ١٣٥٥ .

ماتيو كانتا كوزينى ١٣٤٨ — ١٣٥٥ .

يوحنا الخامس ١٣٥٥ — ١٣٧٦ .

اندرونيكوس الرابع ١٣٧٦ — ١٣٧٩ .

يوحنا السابع ١٣٧٦ — ١٣٩٠ .

يوحنا الخامس ١٣٧٩ — ١٣٩٠ .

أندرونيكوس الرابع ١٣٧٩ — ١٣٨٥ .

مانويل الثانى ١٣٨٦ — ١٣٩١ .

يوحنا السابع ١٣٩٠ .

يوحنا الخامس ١٣٩٠ — ١٣٩١ .

مانويل الثانى ١٣٩١ — ١٤٢٥ .

يوحنا السابع ١٣٩٩ — ١٤١٢ .

يوحنا الثامن ١٤٢٣ — ١٤٢٥ .

يوحنا الثامن ١٤٢٥ — ١٤٤٨ .

قنسطنطين الحادى عشر ، دراجاسيس ١٤٤٨ — ١٤٥٣ .
Dragases



فهرس تفصيلي

صفحة

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

صفحة

صفحة

صفحة

الفصل الرابع

الفصل الثامن

صفحة

الفصل التاسع

الفصل العاشر

صفحة

الفصل الحادى عشر

صفحة

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

صفحة

الفصل الرابع عشر

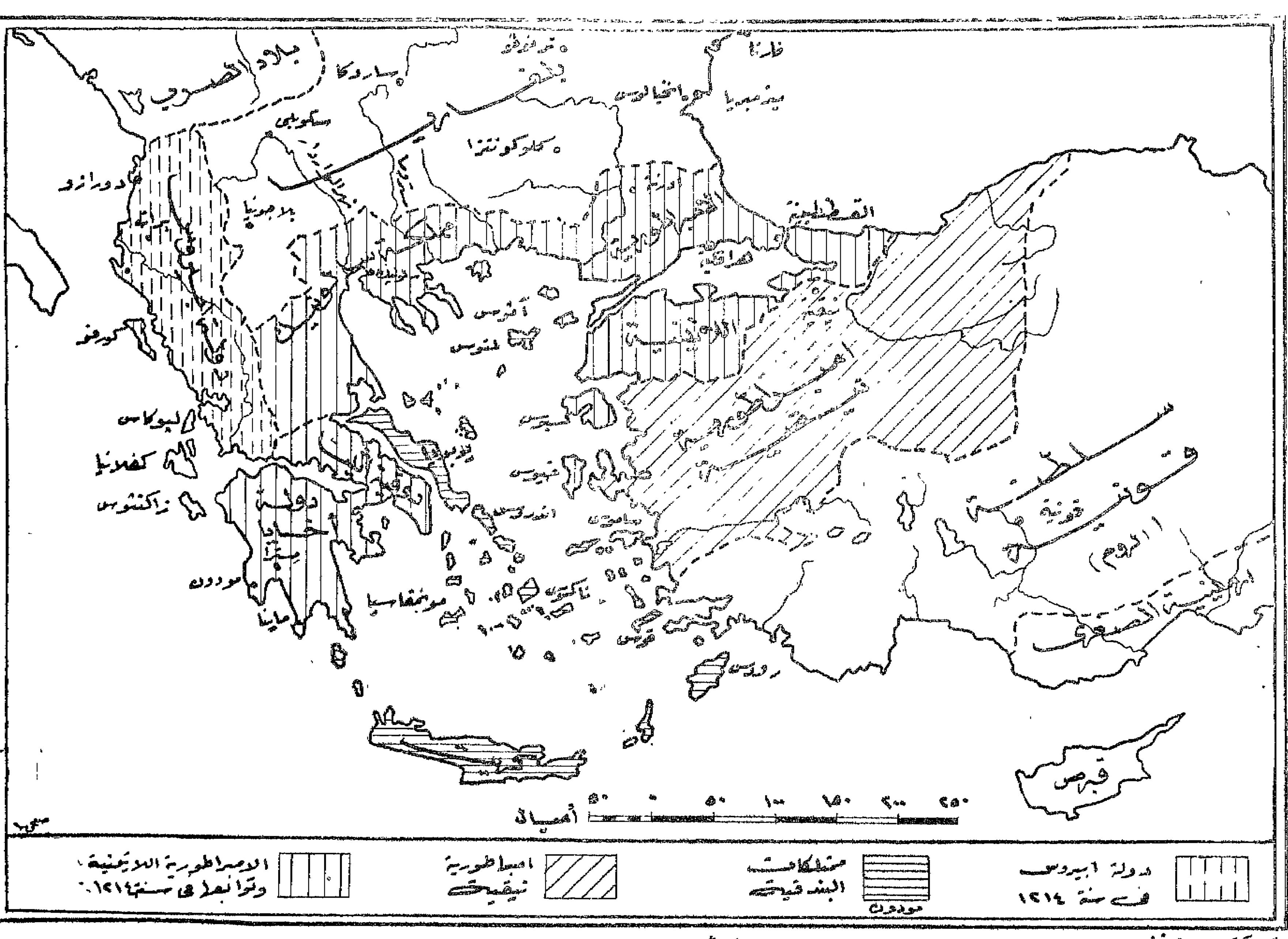
(٢) الإمبراطورية البيزنطية على عهد باسيل الثانى ١٠٢٥ .
(٣) الدولة البيزنطية بعد سنة ١٢٠٤ .

اللوحات

(١) جستنيان الكبير .
رسم بالفسيفساء فى كنيسة القديس أبوليناريوس فى رافنا .
(٢) القديس سمعان (سيميون) العمودى جالسا على عموده .
عن أحد مؤلفات باسيل الثانى .
(٣) لوحة تضم عددا من أباطرة الدولة البيزنطية وهم (من اليسار أعلى) .
الكسيوس الرابع أنجيل ، الكسيوس الخامس دوكاس مورتزوفلوس ، ثيودور الأول الأشكرى ، يوحنا الثالث دوكاس فاتاتزيس ، ثيودور الثانى الأشكرى ، يوحنا الرابع ، ميخائيل الثامن باليولوجوس ، اندرونيكوس الثانى ، وابنه ميخائيل .
(٤) قائد بيزنطى يتفاوض مع العرب .

تصويبات

ص	سطر	خطأ	صواب
٢٢	٦	سالونيكا	سالونيك
٣٢	١٥	الوثنية	المسيحية
٥٧	٧	المدينة	المدنية
٦٠	٢	وجدت لها الرجل	وجدت الرجل
٦٥	٢	١٥٠٤	١٠٥٤
٦٨	٨	بوتانتياتيس	بوتانياتيس
٧٦	٧	دقليديانوس	خلفاء دقليديانوس
٧٨	٥	وإذا	وإذ
٨٥	٩	الامبراطور	الإمبراطور ميخائيل
٨٨	٨	لإدارة	لإرادة
٩٩	١٦	*Greek*	*Byzantine*
١٠٢	١٤	المسيح	طبيعة المسيح
١٠٥	١٢	البردى	البردعى (برادايوس)
١١٣	١٦	الأرمينيين	الأرمن
١٢٦	١٠	السورى	السريانى
١٣٣	١١	الحاكم	الحاكم
٢٢٤	١٦	إحدى	أحد
٢٣٩	٩	الظاهرة	الظاهرة البارزة
٢٤٠	١٢	صربيا	بلاد الصرب
٢٩٦	٤	المقلب	الملقب



عن كتاب بيزنطيوم

الدولة البيزنطية بعد سنة ١٢٠٤ م



القوط الغربيون

البحر الأبيض المتوسط

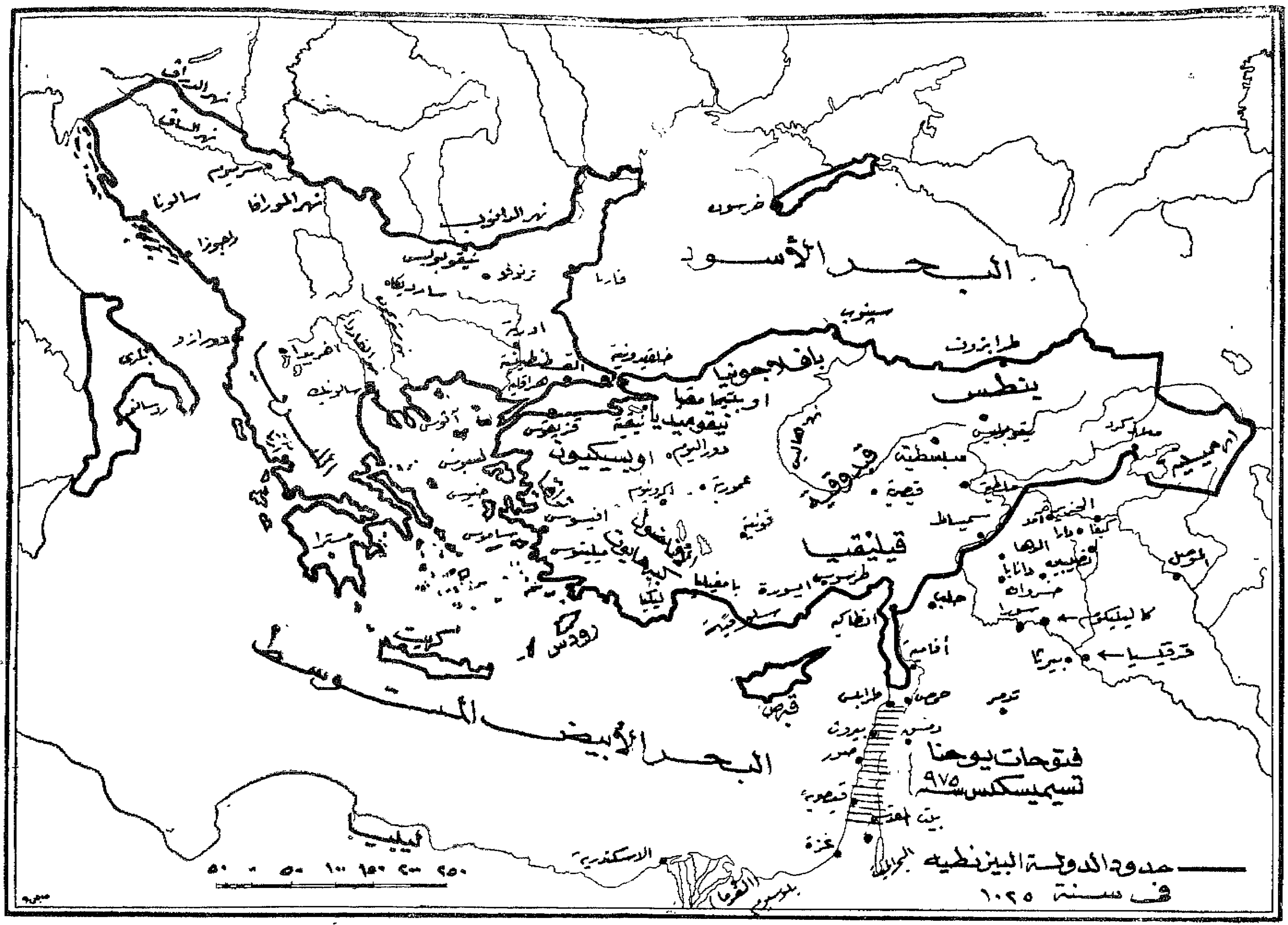
الامبراطورية قبل جستنيان

فتوحات جستنيان

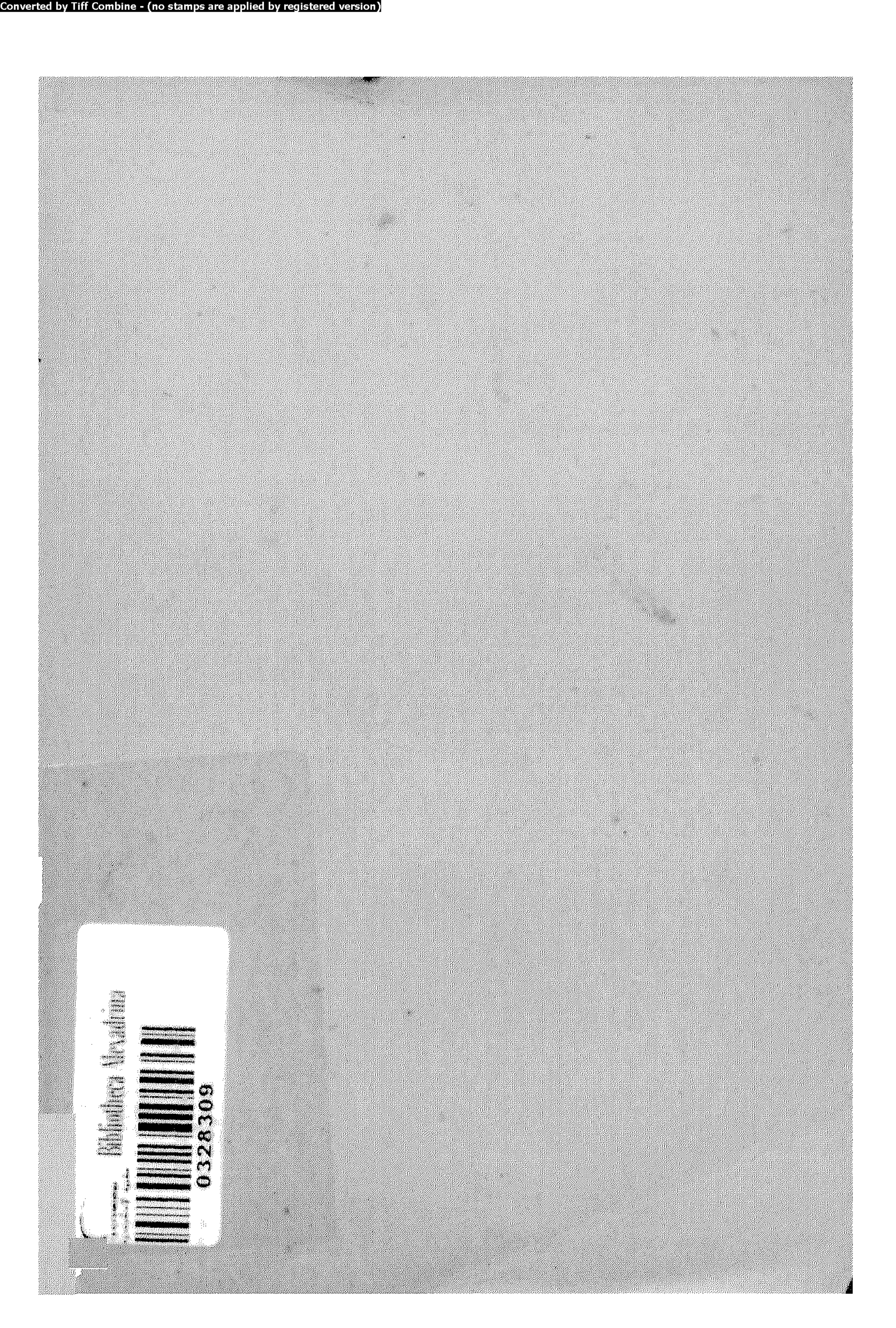
٥٠٠ ٤٠٠ ٣٠٠ ٢٠٠ ١٠٠ ٠ ١٠٠

أميال

امبراطورية جستنيان في سنة ٥٦٥



الامبراطورية على عهد باسيل الثانى سنة ١٠٢٥


0328309